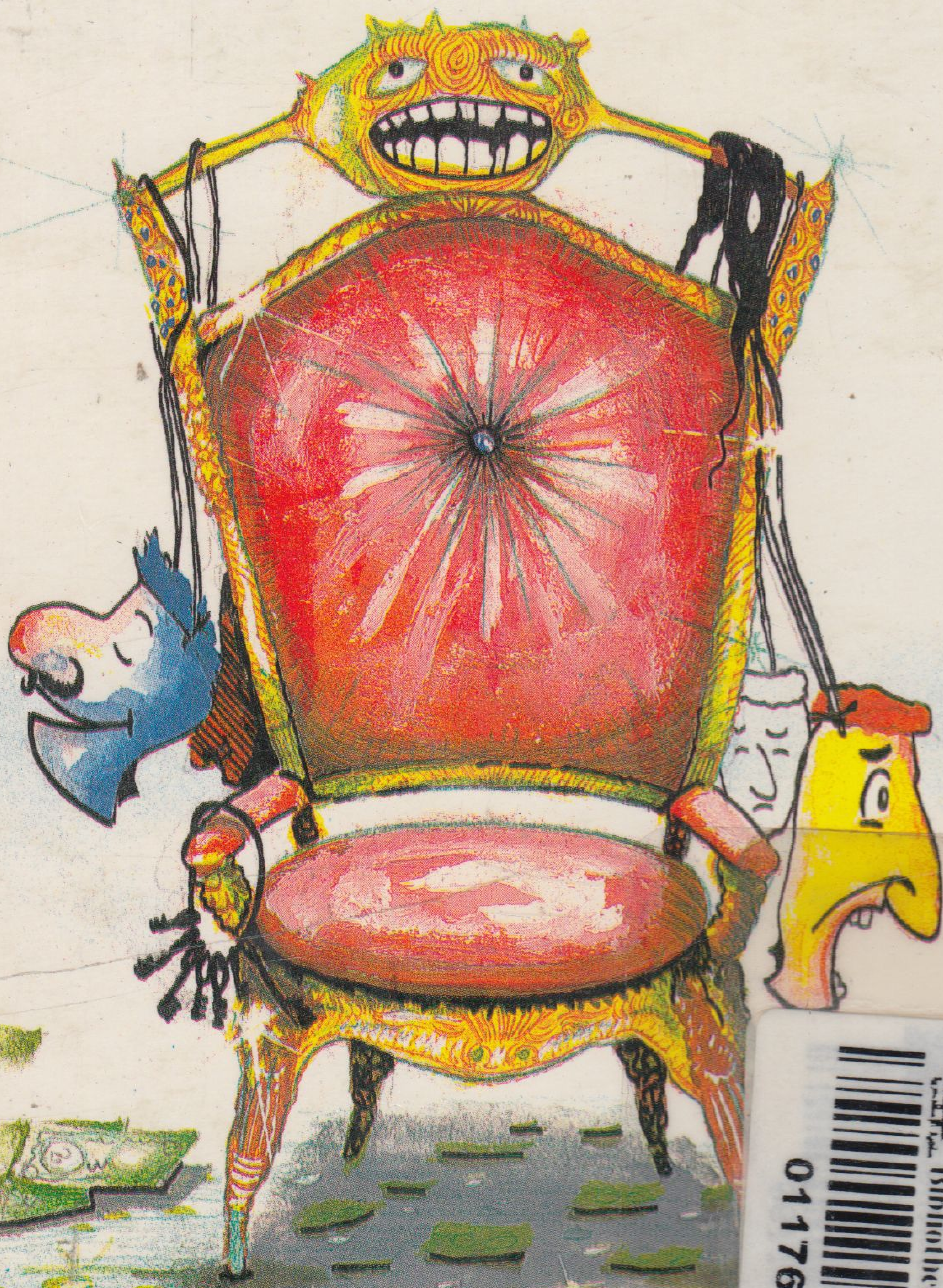
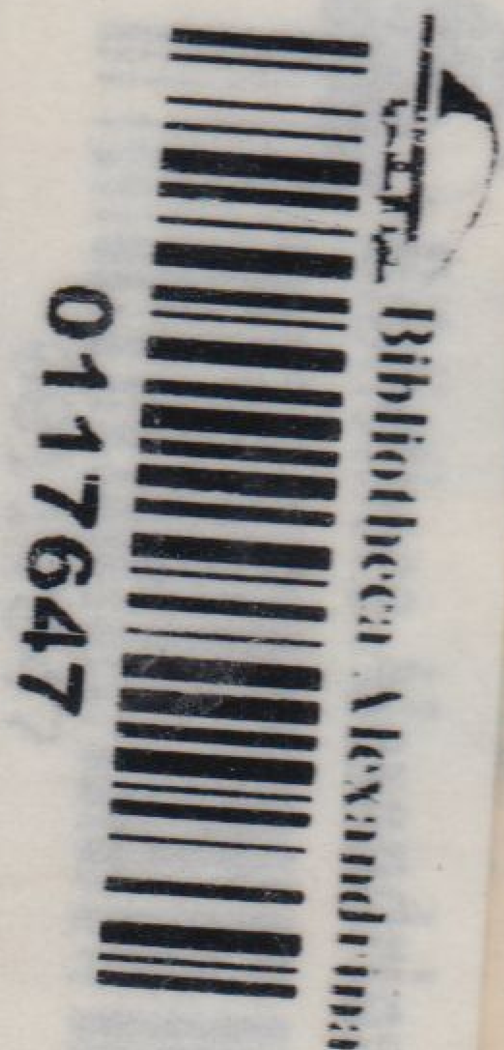
الحاكم لصاً





د. محمد عباس

مكتبة مدبولي

الحاكم لصا

تصميم الغلاف : أمين يوسف

الحاكم لصا

"أوفريسيا - رواية"

تأليف

دكتور / محمد عباس

إهـــــداء

إلى الحكّام ..

وأولـئك الذين اكتشفوا أن المثقفين بلابيص وصراصير تستحق السحق بالأحذية

ـ ١ ـ

دنيا لا كبقية الدنــا

ورؤ ية لا كبقية الرّؤى ..

ذلك ما كان يحس الملك به ـ كان هذا لقبلا وليس اسمه ـ وهو يمارس ذلك الدور لأول مرة فى حياته .. أن يكون سجينا ..

لشدّ ماتختلف الرؤ ية باختلاف مكان الرئى ..

ولشّ مايختلف الفكر باختلاف موضع المفكر ..

إن الأشياء دائما هى ذات الأشياء .. لكنها تتبدل داخلنا بصورة مذهلة عندما تتغير ظروفنا ...

من كان يتخيل أن الملك نفسه يرشو العسكرى عبد الواحد ويلتمس رضا الشاويش عطيه .. وهو الذى كان يلتمس رضاءه وزراء وقادة .. ومن الذى كان يتخيل أن يجمعه هذا السجن بحثالة بشرية مثل عطوة الصبان الشهير بالقشاط وهو نشال شهير. أو بسلطان الأطرش ذلك القوّاد الذى لم يكن يتعامل إلاّ مع الطبقة العليا من المجتمع .. وكان يتمتع بمزايا تؤهله لذلك بل وأكثر.. فبرغم وطأة السجن على الملك الا نه لاينكر كم كان هذا القواد يثير ضحكات صاخبة بمواهبه المتعددة وقدرته على إلقاء النكات واختلاق الحكايات وتقليد الأصوات وكانت هذه الصفة الأخيرة وحدها مثار مفارقات صاخبة عندما كان يقلّد صوت الشاويش عطية ويلقى بالأوامر من بعيد الى العسكرى عبد الواحد فينفذها المسكين ليعاقبه الشاويش عليها فى النهاية لأنه لم يأمره بها ..

كان هناك أيضا قتلة سفاحون .. وقتلة من أجل الشرف وتجار مخدرات وجواسيس ولصوص .. إلاّ أنه كان هناك أيضا عدد هائل من عِليّةِ القوم وصفوة المجتمع .. وهم مثله لم .

يقترفوا شيئا غير الّذى يفعله الصفوة والعَليّة لكنهم يدخلون السجن فى فترات مختلفة من تاريخ أفريسيا ــ ربما ليكونوا قربانا يضحّون بهم كى يستمر الآخرون خارج السجن . .

تعرف الملك فى السجن على كثيرين لم تتح له حياته خارج السجن أن يتعرف بمثلهم . . واستمع إلى حكايات كانت أكثر تشويقا من أعظم الأفلام التى شاهدها فى حياته . . يكفى فقط كمثال على ذلك حكايات ذلك الشقى عليوه عن رئيس عصابته الشهير محمود أمين سليمان والذى لم تتمكن منه السلطات أبدا .

لشدّ ما ظلم الملك أمثاله فى السجن . . الأشخاص الذين ينتمون إلى صفوة المجتمع مثله عندما كان يتخيل أنهم دخلوا السجن بسبب الغباء أو عدم الحرص . . الآن يدرك أن دخول السجن ككوارث الطبيعة لا تفسير لها ولا حذر يمنعها .

كان عقل الملك لا يكف عن التفكير . . أفكار جادة وأفكار تافهة وأفكار هازلة وأفكار حزينة . .

وكان من أشد الأفكار غرابة تلك الفكرة التى طرأت دون سابق مقدمات عن نظم الحكم فى العالم . . فعبر التاريخ حكمت كل فئات المجتمع « فراعنة وملوك وقياصرة وأكاسرة وأباطرة » . . كما حكم « الإقطاعيون والفرسان والنبلاء والأغنياء » . . وحتى الأنبياء حكموا أحيانا . . وفى العصور الحديثة حكم « العمال والفلاحون والتكنوقراط » . . . . لكن فئة واحدة دون هؤلاء جميا لم تحكم قط . . هى فئة المساجين .

وأعجبته طرافة الفكرة فأخذ يتخيل إنقلابا على نظام الحكم يقوم به المساجين وأخذ وضحكاته الداخلية تتعالى بشكّل حكومته الجديدة . فعيّن أحد المتهمين بتزييف النقد وزيرا للمالية . . وعين تاجرا للمخدرات وزيرا للشرطة وعين جاسوسا رئيسا للمخابرات . . . كما أنه عين سلطان الأطرش وزيرا للثقافة والآداب . . !!

ولم يكن الملك يتخيل أن هذه الفكرة التى نبتت فى عقله كطرفة ستشكل بعد تطويرها محورا لوجوده كله باقى عمره .

كان السجن الكبير فى « أوفريسيا العاصمة » كغيرة من السجون فى كل مكان . وعلى عكس ما يتوقعه الناس خارج السجون فإن جو الكآبة والحزن لا يخيم على المساجين طوال الوقت . **خاصة بعد أن تنقضى رهبة السجن الأولى والتى تبدأ فى الانتهاء بالنسبة للسجين على عتباته . وفى الداخل تفقد الأسوار معناها ليصبح السجن عالما كاملا وإن كانت قوانينه تختلف أحيانا عن قوانين العالم الخارجى .**

— ٢ —

كانت للملك شخصية فريدة . ولقد اصطحب معه هذا اللقب من خارج السجن حيث كان أصدقاؤه ومعارفه ينادونه به . وكانت ملامحه توحي بجاه حقيقي . طويل القامة ممتلئ الجسم في غير بدانة أبيض اللون مشرب بحمرة أشيب الشعر رغم أن عمره لايتجاوز الخامسة والأربعين . وكانت ملامحه باختصار لا تنسى بسهولة و برغم أن هذا كان يشكل عقبة خطيرة أمامه الا أنه — كما يفعل دائما — أجاد استغلال شكله وحول نقطة الضعف إلى نقطة القوة وكانت تعلو فمه بسمة دائمة حتى في أعقد المواقف فقد كان يؤمن بالحكمة القائلة أن بسمة المغلوب تحرم الغالب نشوة انتصاره وكان أعداؤه والشامتون به خارج السجن وداخله كثيرين . لذا حرص أن تكون بسمته أشد اتساعا والمصورون يلتقطون صورا له كي ينشروها في الصحف .

كان يعرف عن نفسه أنه شديد الذكاء واسع الحيلة ذو مواهب حقيقية وكان يتمتع بأخلاقيات معينة منحته وضعا خاصا بين أرباب المهنة . كان يراعي حدودا معينة في اكتساب المال بحيث لاتصل الى حدود الاحتيال أو النصب . كان يحاول فعلا ألا يسبب ضررا مباشرا لإنسان رغم أنفه . فهو مثلا لا يرى بأسا في تهريب الحشيش لسببين : أن ضرره على الصحة محدود من وجهة نظره ثم أن من يتعاطاه يعلم أضراره . وبهذا المنطق كان يرى غش الحشيش جريمة لايرضاها ضميره . ثم أن من يدمن المخدرات عموما يفعل ذلك بإرادته . أما الهيروين وعقاقير الهلوسة فقد رفضها ضميره !! كما رفض أيضا الاتجار في الأغذية الفاسدة والاختلاس من البنوك أو خداع البسطاء بتكوين شركات لتوظيف الأموال . كان يعتبر كل ذلك من شئون السفلة والمجرمين والحثالة ..

أما تزييف النقد الذي مارسه منذ زمن طويل فقد كان هواية قبل أن يكون عملا . وكان المبرر الأخلاقي الذي يسوقه لنفسه أن الحكومة تطبع النقد دون غطاء وأنه يطبعه مثلها فلما؟ يكون ما يفعله هو جريمة . انه يفعل مثل الحكومة .

وفى العمولات الهائلة التى كان يحصل عليها من شركات أجنبية كان يرى بعينيه إلى أى مدى وصل حال كبار المسئولين وصغارهم . كانوا أكثر خروجا على القانون منه .

كان شديد الحرص فى تعاملاته . لكن الحذر لا يحمى من القدر فطبيعة عمله تخلق أعداء ومنافسين أقوياء خاصة أولئك الهواة الذين يمارسون العمل من مقاعد السلطة .

كلن قد غطى على عملياته الغير مشروعة بأنشطة مشروعة فاشترك فى شركات متعددة وافتتح عدة معارض لتجارة السيارات كما عمل فى تجارة الأخشاب وتصنيع الأثاث واستيراد قطع الغيار والأغذية .

وكان مع شركائه فى الخارج يبتدعون طرقا مبتكرة فى تهريب الحشيش بين مايستورد من بضائع .

وكان حريصا على عدم التواجد بنفسه أو الحديث التليفونى أو حتى الكلام العادى فيما يمكن أن يسجل أو يؤخذ عليه فقد كان يعرف تقدم أجهزة الرقابة فى أفريسيا . كانت كل عملياته تتم عن طريق وسطاء ومعاونين له . وكان كريما جدا معهم حتى يضمن ولاءهم من ناحية ، ولأنه كان يرى أن ذلك حقهم وهم الذين يتصدون للخطر المباشر .

كان سعيدا وكان يحقق كل يوم نجاحا و يزداد ثروة وسلطة ونفوذا الا أن الأيام الحلوة لاتدوم . وأنه يسترجع الآن تلك الأسباب التى أدت إلى هذا المكان فى السجن الكبير .

منذ ثلاثة أعوام فوجئ بالعقيد موسى الدهان بادارة جرائم الأموال بوزارة الشرطة يقابله فى نادى فندق أوفريستون الكبير . تصنع أن اللقاء مصادفة إلاّ أنه وهو يصافحه أخبره أنه يريده لأمر هام وأنه سينتظره بسيارته فى شارع الملك الساعة العاشرة من صباح الغد . وبرغم تشديده عليه بأهمية الأمر إلاّ أنه نظر للأمر كله باستهانة ، فعلاقته مباشرة برئيس الإدارة كلها اللواء فيروز العسال وهو قد تعود أن تكون علاقته بالكبير مباشرة فذلك آمن من ناحية كما أنه أوفر من ناحية أخرى . ومن الأفضل له أن يحصل اللواء على خمسين ألف أوفريس (العملة الأوفريسية) بدلا من أن يعطى ١٠ آلاف أوفريس لعشرة عمداء وعقداء . لهذا فقد تجاهل الأمر كله . إلاّ أن موسى الدهان كان لحوحا . وذات مرة كان فى تلك المنطقة الرائعة المسماه بتيفولى الجبل . كان قد أنهى لتوه إبرام صفقة رائعة . وانصرف ضيوفه وجلس يحتسى قدحا من القهوة . وفوجئ بموسى الدهان أمامه ، فرسم على شفتيه تلك الابتسامة الساحرة وهو يرحب به وتجاهل كلّ منهما ماحدث قبل ذلك . إلاّ أن العقيد موسى الدهان أخذ يدير دفة الحديث بصورة لم يخف مغزاها على الملك . ولما كان لايريد أن يراه الناس بصحبة أحد رجال مكافحة جرائم الأموال فقد استأذن منصرفا ، إلا أن موسى الدهان قام معه طالبا منه أن يتوجها لدقائق إلى شرفة تيفولى كى يرقبا المنظر الساحر لأوفريسيا العاصمة فى أحضان الجبل . حاول التخلص إلا أن الشرفة كانت

فى طريقة الى موقف السيارات حيث ينتظر سائقه ، ولم يشأ أن يكون فظا معه . وقفا يتأملان فى صمت قطعةٌ موسى الدهان قائلا :

— سبحان الخالق .

— ما أجمل أوفريسيا فعلا .

— يعجبنى فى الملك ذكاؤه .. وتدينه .

أدرك السخرية فى كلمته لكنه تجاهلها قائلا :

— الحمد لله قدّر وما شاء فعل .

كان يريد أن ينهى اللقاء دون يكسب عداوته فأزمع أن يكون حديثه حياديا تماما ، إلاّ أن موسى الدهان يستمر فى لعبته :

— إلا أننى لا أفهم كيف غاب عن ذكائك، وتدينك تلك القاعدة الشرعية التى تقول أن دفع الضرر مقدم على جلب المصلحة .

وفهم الملك التهديد المستتر فأجاب :

— إن بحر الشريعة عميق من لا يجيد العوم فيه يغرق .

ورد موسى الدهان فى سخرية قائلا :

— لكن من يجيدون العوم أيضا يغرقون أحيانا . وإن لدغه عقرب صغير كافيه لشل عضلات بطل سباحةٍ كى تجعله يغرق . لذلك وجب عليه ألا يخرج العقرب من حسبانه .

وأراد الملك أن يدير دفة الحديث بعيداً عما يريد موسى الدهان فأخذ يتحدث عن إعجاز لمشيئة الإلهية وأن كل شئ مكتوب فى اللوح المحفوظ وأن ما سطر على الجبين لابد للعين أن راه . ثم بدأ يروى قصصا شيقة عن تصاريف القدر وكيف تكون .

وأحس موسى الدهان أن الخيط يفلت من يده بعد طول انتظاره لهذه الفرصة . لهذا قرر أن يقاطعه .. واستمر بنفس الصوت الخفيض ونفس النبرات كأنما يكمل حديثه السابق :

- إسمع يا ملك . أنا أعرف تفاصيل العلاقة بينك و بين اللواء . وأنا أعرف أننى مازلت صغيراً لذلك أطالب بنسبة مساو ية للواء لكن يجب أن يكون لى نسبة وإلا طربقتها على دماغ الكل .

ارتسمت ملامح الغضب على وجه الملك فهتف بغضب :

- ماذا تر يد
- أر يد مافهمت تماما . من الأفضل أن يتم الأمر فى هدوء ودون شوشرة . إننى لن أستطيع تقديم الخدمات التى يقدمها اللواء لكننى أستطيع أن أكون نافعا بالتزام الصمت . هذا بالإضافة إلى أننى سأكون لواء أنا الآخر يوما ما .. وعلينا أن نتفق من الآن .

كان على الملك أن يواجه هجوم موسى الدهان بسرعة وبحنكة تجر بة صقلتها السنين . إنه يعلم جيدا أن من يستسلم للابتزاز مرة لن يصبهد بعد ذلك أمامه أى مرة . بالإضافة إلى أن اتساع حلقة التعامل سيميط لثام السر ية والكتمان الواجب لأعماله . ولعل مقاومة موسى الدهان لاتخلو من خطورة لكن خطر الإستسلام له أشد .
تخلى الملك عن ابتسامته التقليدية وتحدث إلى موسى الدهان بصوت رهيب :

ماذا تقصد . إن صحافة المعارضة رغم سفالتها لم تصل فى تشهيرها إلى ماتقوله الآن . فهل جننت . إننا نحمل أمانة البلد فى عنقنا . ورئيسك هذا الذى تتهمه الآن هو أشرف من الشرف ذاته وإنه مثلى على استعداد فى أى وقت لأن يدفع حياته نفسها فى سبيل أوفر يسيا .

وتصاعدت حدة انفعاله وهو يلقى على موسى الدهان درسا فى الوطنية ، لكنه فى نفس الوقت كان حر يصا على أن لا يرفع انفعاله صوته بدرجة تمكن المحيطين من سماعه .
بدأ الذهول على وجه موسى الدهان وهو يقارن بين مايبدو من صدق انفعال الملك و بلاغه

عباراته وبين مايعرفه هو بيقين عنه .. إلا أنه سرعان ماتمالك نفسه ونظر إليه بوجه جامد الملامح وهو يقول :

ــ سوف تفقد كل شئ لقاء ذلك .

عادت الابتسامة سريعا إلى وجه الملك كأنه نسى فجأة كل ما حدث مستعيدا لباقته الاجتماعية الشهيرة ومد يده إلى موسى الدهان مصافحا :

ــ سعيد بلقائك .. أرجو أن نلتقي مرة أخرى .

ــ سوف نلتقي .. بالتأكيد سوف نلتقي . ثق من ذلك .

انصرف كل إلى شأنه . وإن الملك يدرك الآن أنه استهان بقدرة موسى الدهان علي إيذائه والإيقاع به . لكن لكل جواد كبوة . بل إنه حتى لم يطرح الأمر أمام أصدقائه العديدين ولا أمام اللواء فيروز العسال رئيس موسى الدهان حيث كان يمكن تحجيم الدهان بل والقضاء عليه لو شاء . لكنه لم يعط للأمر أهمية . والآن يكتشف كم أخطأ . وإنه الآن ينفرد بنفسه فى سجن أوفريسيا الكبير يستعيد الأحداث حدثا بعد حدث . لم يكن لديه هذا الوقت الطويل ابدا ليفكر و يتأمل . ولقد حقق فى حياته الماضية نجاحا هائلا بأفكار لم تكن تستغرق منه سوى لحظات . ترى أى نهاية يمكن أن يدفعه اليها تفكير طويل قد يستمر فيه شهورا عديدة .

. وإنه ليذكر كيف حاول موسى الدهان بعد ذلك الإيقاع به مرات عديدة . وكيف أصبحت متعته لاتكتمل إلا بملامح خيبة الأمل والدهشة وعدم الفهم علي وجه غريمه الصغير عندما يعجز عن الإمساك به رغم ما كان يبذله من جهد خارق فى جميع التحريات عنه . وكان الملك قد تعود أن يقوم بالعملية الواحدة عدة فرق لاتعرف بعضها . واحدة منها فقط هى التى تقوم بالعملية الحقيقية بينما باقى الفرق للتمويه وكانت هذه الفكرة قد طرأت بباله بينما الفريق حيدر الطرابلسى نائب رئيس مخابرات أوفريسيا يحكي أمامه عن كيفية إعدام خونة أوفريسيا رميا بالرصاص ، حيث يقوم مجموعة من الجنود بإطلاق الرصاص علي الخائن وتكون البنادق جميعها محشوة برصاص « فشنك » ماعدا بندقية واحدة هي المحشوة بالرصاص الحقيقى . كانوا يفعلون ذلك حتى لايعانى الجنود تعذيب الضمير فإن كل منهم سيحاول إقناع نفسه بأنه ليس القاتل . ولقد استفاد من حيدر أيضا أن يقسم العمل الى حلقات متصلة لكنها تبدو منفصلة ، يكلف بكل حلقة مجموعة خاصة لاتعرف من قبلها ولا من بعدها . بل وإن معظم هذه المجموعات لا تعلم حقيقة ماتؤديه . كان ذلك أصون للسر .

ولقد كان سر عبقريته أنه كان يستفيد من كل ما يسمع . ولكم استفاد من علم الإجرام والجاسوسية في مكافحة أمثال موسى الدهان وفرض سرية كاملة على عملياته فيما عدا الرؤوس الكبيرة التى تدبر وتخطط من بعيد . كان يقدس إمكانيات العقل البشرى والقدرة الهائلة للإدارة البشرية عندما تُوجّه التوجيه الصحيح .

وإنه ليذكر كم استمتع بعملية تهريب الماس الكبرى والتى تمت فى بلاد الشمال فى حادث سرقة القطار الشهير الذى كان يحمل الماس الى مركز البنك الدولى . إستطاع أعوانه فى الخارج الاتصال بمن قاموا بالعملية التاريخية وحصلوا على الماس بأبخس سعر لكنه عوّضهم عن ذلك بتهريبهم إلى القارة الجنوبية عبر سلسلة من المغامرات لا يصدقها عقل . فقد كان بوليس العالم كله يطاردهم وسافر الملك بنفسه إلى بلاد الشمال كي يباشر الإشراف بنفسه .

كانت المشكلة شديدة الصعوبة لكن الحل واتاه فى حفلة دعاه اليها أصدقاؤه فى أحد المسارح الكبرى فى عاصمة بلاد الشمال . كانت مسرحية هزلية رائعة يستعمل فيها الأبطال الأقنعة على وجوههم فى سلسلة من المفاجآت المضحكة . وكاد الملك يصرخ كأرشميدس «يوريكا .. يوريكا» «أى» «وجدتها .. وجدتها» ، لكنه احتفظ بهدوئه حتى نهاية الحفل . ورأى أن المشكلة تتطلب اجتماع مجموعته الخاصة والتى تتشكل من مجموعة من الأذكياء مثله فى بلاد عديدة فى العالم ليشاركوه فى العملية . إن الماس المستولى عليه يساوى عدة مليارات . وكانت حكمته من قديم أن اللقمة إذا كانت أكبر من قدرته على ابتلاعها قد تكون قاتلة . لذلك عزم فى نفسه أن يشرك معه أصدقاءه الذين يتعاونون معهم فى اقتسام الماس مقابل تهريب من سرقوه . ولم يكن ذلك فضلا منه ، بل إنه كان يعلم أن القبض على أى واحد منهم كفيلا بكشف علاقته بالأمر رغم حرصه . فلم تكن هذه عملية عادية كالتى تحدث فى أوفريسيا وإنما أكبر سرقة فى العالم بل وفى التاريخ كله .. وبعد هذا كله فان إشراك أصدقائه معه فى هذه العملية سوف يدعم مركزه بينهم بصورة حاسمة ستحوله من أحد أصدقائهم فى أوفريسيا الى أكبر أصدقائهم دون منازع . كما أن طريقة تفكيره العبقرية والبسيطة فى آن واحد كانت جديرة بأن تجعله أحد حكمائهم مما يجعل له نسبة فى العمليات التى تحدث خارج أوفريسيا حتى بدون اشتراكه فيها .

وفى خلال أيام اجتمعوا فى قاعة احتفالات جهزت خصيصا للاجتماع بعد أن تولى المختصون فى مجموعة الأصدقاء تأمينها اليكترونيا ضد التصنت .

وطرح الملك المشكلة وفكرته البسيطة لحلها . فالمشكلة تتلخص فى أن المجموعة التى استولت على الماس مختفية الآن حيث يطاردها بوليس الدولة كلها مدعما ببعض الفرق والتجهيزات الخاصة من الدول الكبرى . ولو استمرّوا فسوف يعثر البوليس عليهم حتما فى النهاية . ولو حاولوا الهروب بأى طريقة فإن جميع المنافذ مسدودة . ولقد فكر فى جميع الطرق كاستعمال طائرة خاصة

أو سفينة خاصة تبحر من ميناء مهجور أو تخطى الحدود لكن ذلك كله محفوف بالمخاطر لأنه علم من مصادره أن وسائل الاستطلاع العسكرى تشارك البوليس فى البحث بما لديها من امكانيات ضخمة تشمل حتى الأقمار الصناعية .

وعلّق أحد أصدقائه بأن كل هذه الوسائل مطروحة فعلا ويمكن أن تنجح لكن بقدر من التنفيذ الجيد والحرص . وأنه لا يوجد بأى حال عملية تخلو من المخاطرة . ورد الملك أنه يملك خطة بسيطة لا يوجد فيها مخاطرة على الأطلاق وأن الخطة بسيطة لدرجة أنها لن تخطر على بال أجهزة الأمن التى تتوقع أن يهرب اللصوص بجوزات سفر مزورة وكانت خطته أن يسافروا بجوازات سفر حقيقية ــ وكان هذا أمرا سهلا ــ بعد أن يلبسوا أقنعة متقنة الصنع على وجوههم تغير ملامحهم تماما وقفلزات على ايديهم تغير بصماتهم . وفى البلاد المجاورة تُجرى لهم عمليات جراحية تغير ملامحهم . وبعد عدة خطوات يمكن إرسالهم الى القارة الجنوبية كى يعيشوا هناك حياة طبيعية .

وتم تنفيذ العملية بسلاسة دعّمت بصورة نهائية مركز الملك الدولى وسط أقرانه العالميين .

لم يكن الملك قد أخبر أحدا فى أوفريسيا عن اشتراكه فى هذه العملية . ولا حتى صديقة المؤتمن فيروز العسال والذى كان قد عُيِّن وزيرا للشرطة . لكنه اضطر فيما بعد لإخباره بنيتّه على إدخال شحنة من الهيروين النقى المرتفع الثمن طالبا معونته . ولم يكن ما سيهرب به هيروينا وانما جزء من نصيبه فى الماس حيث احتفظ بمعظمه فى خزنة خاصة به فى بنك عالمى ، وأراد ادخال جزء الى أوفريسيا .

كان العقيد موسى قد رقى الى عميد ثم الى لواء ورأس جهاز مكافحة جرائم الأموال . وقد حاول الملك عرقلة هذه الترقية وكاد ينجح فى مسعاه إلاّ أنّ وزير الشرطة أخبره أن أوامر عليا قد صدرت فى اللحظة الأخيرة فأفسدت الخطة . وعلم موسى بذلك مما زاد فى إشعال غضبه ورغبته فى الإنتقام من الملك .

دبّر الملك لإدخال الماس الى أوفريسيا بطريقة مبتكرة . كان قد تعدّى مرحلة الإحتراف الى مرحلة الإبداع . بل كان مايدفعه الى العمل الآن ليس رغبته فى المال الذى يملك منه أكداسا هائلة وإنما نوع من إشباع رغبته فى الإحساس بذاته وبذكائه وتفوقه على الآخرين .

وكعادته كلّف عدة مجموعات بمهمة إحضار الشحنة من الخارج وكانت مجموعة واحدة هى التى ستحمل الشحنة الحقيقية .

وكان فى أثناء ذلك قد ألقى الى اللواء موسى الدهان بطعم التقطه على الفور. فلقد استغل القصة الملفقة التى قالها للوزير « فيروز العسال » عن قيامه بتهريب شحنة هيروين وسرّب هذه القصة إلى موسى الدهان ، فرمى بطرف الخيط إلى أحد عملائه . وتمّت العملية التمويهية ببراعة حيث أرسل إحدى مجموعاته لتتصل فعلا بشبكات تهريب المخدرات فى الخارج ولتشترك فى

عملية تهريب خارج أوفريسيا . كانت المجموعة الاخيرة التى ستستلم الحقائب لاتعلم أن مابها هو مجرد أدوات للإستعمال الشخصي وملابس . ودبّر الملك أن يكون خارج أوفريسيا يوم وصول الماس . كان يهدف أمرين :

أولهما أن يكون بعيدا عن مكان الحادث إذا حدث ماليس فى الحسبان .

والثانى أن يشد انتباه موسي الدهان ورجاله لمراقبته فى الخارج ، متيحا أمناً أكثر لدخول الماس . فى المساء جاءته العلامة المتفق عليها أن كل شئ تم على مايرام . وكان ذلك يعنى أن خطته فى تهريب الماس قد كُلّلت بالنجاح الباهر .

وقرر السفر الى أوفريسيا صباح اليوم التالى . كان أعضاء مجموعة التمويه مندهشين لسفر الملك معهم فلم يحدث قبل ذلك أن كان معهم فى أى عملية . كانوا لايعلمون أن مايحملونه ليس سوى مستلزمات شخصية . كان هدف الملك أن يمرّنهم على خوض التجربة كاملة بكل إنفعالاتها النفسية . إلا أنه كان هناك ثمة سبب آخر كان الملك يكاد يخفيه حتى عن نفسه ، لأنه سبب صغير لا يليق بكبر يائه . كان يتوق فى نشوة عارمة إلى وجه موسي الدهان تعلوه خيبة الأمل واليأس بعد أن يفشل الكمين الذى أعدّه فى المطار له والذى علم به من عيونه فى وزارة الشرطة برغم أن الوزير لا يعلم به . كان موسي الدهان حريصا على ألاّ يعلم الوزير خشية أن يحذر الملك الذى عرف سر الكمين رغم كل هذه الاحتياطات .

هبطت الطائرة فى مطار أوفريسيا الكبير . كان رائعا هذا الطيار الأوفريسي وهو يلامس بعجلات طائرته فلا يكاد الملك يحس بتلك الرجة التى تقلب أمعاءه . وفكّر الملك أن الهبوط قد يكون عاديا لكن احساسه بالنشوة هو الذى يُخيّل له أنّ كلّ شئ رائع .

كان أعضاء مجموعة التمويه يركبون فى الدرجة السياحية واستقلوا الباص إلى صالة المطار لإنهاء اجراءات الوصول . أما هو فقد كانت تنتظره سيارة توجهت به إلى إستراحة كبار الزوار . وأخذ ضابط جواز سفره لإنهاء الإجراءات . لولا اعتبارات اللياقة لترك الاستراحة وتوجه إلى صالة الوصول كي يرى بنفسه وجه موسي الدهان عندما يفاجئ بالحقائب خالية من الميروين .

تأخر الضابط كثيراً فأبدى الملك استياءه لمرافقيه . وذهب أحدهم كي يستعجله لكنه لم يَعد . ثم ذهب آخر ولم يعد أيضاً . لابد أنها لعبة صغيرة من موسى الدهان لمضايقته . أخيرا عاد أحد الضباط محرجا ولم يتكلم .

سأله الملك فى ضيق :

— أين الجواز ؟

أجاب الضابطُ بعد تردّد .

— لست أدرى ماذا أقول . إننى فى غاية الحرج لكنّ الشرطة اكتشفت عصابة لتهريب المخدرات . واللواء موسى الدهان شخصيا موجود و يصر على تفتيش جميع الحقائب حتى حقيبة سيادتك .

انتفض الملك فى غضب هائل .

— هل يجرؤ : لن تكفى وظيفته مقابل هذا الموقف . استدار فى عنف نحو التليفون لكن مجموعة من الضباط والجنود دخلت لتطلب منه فى أدب وحزم التوجه معهم للتفتيش . وقلّب الأمر فى ذهنه بسرعة وقدّر أن موسى الدهان يقصد النيل من كبريائه وأنه إن حاول التصدى للجنود فسوف يصطحبونه بالقوة . و يكفى ذلك مهانة . من أجل ذلك توجه معهم إلى حيث يريدون وهو يرسم على شفتيه ابتسامة احتقار .

قابل موسى الدهان فى حفاوة متكبّرة

— إننى سعيد أن يوجد فى اوفريسيا مثلك ياعزيزى موسى .. فلا أحد فوق القانون دمت ستفتش حقائب المواطنين فلم يكن من حقى ولا من حقك أن تستثنينى أنا .

ثم أردف ضاحكا بلهجة تحمل أكثر من معنى

— لو كنت استثنيتنى لكلّمت المسئولين فى عقابك .

كان وجه موسى الدهان جامدا لايوحى بشئ . عليه اللعنة . لقد أجهض حبوّره بمنظره المتوقع عندما يكتشف أن الحقائب خالية . الآن لا يود الا أن ينتهى هذا الموقف السخيف ويمضى . إلا أن مراجل الغضب التى تغلى داخله تجعله يقسم أن يدفع الدهان حياته إزاء هذا الموقف .

بدأ تفتيش الحقائب ولم يكن بها شئ غير عادى . ملابس نوم وملابس داخلية وشراشف وأدوات الحلاقة ومعجون الأسنان وفرشاه اليكترونية . ولقد تكرر هذا فى حقائب مجموعة التمويه . وتكاد الضحكة المكتومة تنطلق من الملك لكنها أصبحت بلا طعم مثل كأس من الشمبانيا وقعت فيه ذبابة . شهى لكنه مقزز . مزّقوا حقائب المجموعة بحثا عن مخابئ سحرية .

وها هو يراقب ملامح موسى الدهان عسى آن يرى فيها لمحة إحباط لكن وجهه كتمثال صخرى تجمدت ملامحه الوضيعة . وسأل الضابط موسى الدهان :

ـ هل نغلق الحقائب ؟

فأجابه الدهان :

ـ بعد أن نفتش حقيبة الملك .

سأل موسى الدهان الملك فى نبرات معدنية :

ـ هل هذه حقيبتك .

أجاب فى ضيق واحتقار:

ـ نعم .
ـ هل لديك حقائب غيرها .
ـ لا .
ـ ماذا يوجد فيها .
ـ ما يوجد فى حقيبة رجل أعمال مسافر.

مد الملك يده بالمفتاح وهو ينطق بالرقم السرى الخاص بفتح الحقيبة لكن موسى الدهان طلب منه أن يفتحها بنفسه .
كان الضابط الذى يقوم بتفتيش الحقائب يرتجف من الخوف لكن موسى الدهان أمره أن يفتشها كما فتش باقى الحقائب .
كان كبرياء الملك يتمزق مع جوانب حقيبته التى كان سلاح المشرط الحاد يمزقها .
لم يجدوا شيئا . ولاح للملك وجه موسى الدهان وتخيل أنه يخفى أحاسيس الذعر والخوف الرهيب داخله فهو يعرف أنه سينتقم . بدأ الضابط يغلق الحقائب ، وفى لهجة منكسرة قال موسى الدهان للملك :

— انني أعرف مركزك وقدرك فى أوفر يسيا كلها لكنني تعلمت منك أنت أنه لا أحد فوق القانون . الا أنني آسف لتمزيق الحقائب . وأطمع أن يغفر لى **الملك** .

كان الملك يفكر فى رد حاسم يلجم به **موسى ال** مان الذى انصرف عنه فجأة وهو يسأل **الضابط** :

— هل فتشت علب فوم الحلاقة ومعجون الأسنان .

وفى خفة التقط العلبة المعدنية من حقيبة الملك وطلب من الضابط أن يفتحها . كان **الملك** ينفجر من الغيظ وصوت الهواء المضغوط فى العلبة ينطلق كالرصاص . وفار الفوم من العلبة لينسكب على المكتب وعلى الأرض . ومد **موسى الدهان** يده فى خفة يبحث فى تجويف العلبة ثم أخرج شيئا ما بين أصبعيه . مسحه بمنديله فاذا به كيس من النايلون يحتوى بداخله على مسحوق .

حدث كل شئ فى ثوان معدودة حتى أن عبقرية **الملك** عجزت عن ملاحقته . انهار فى كرسيه غير مصدق . ولاحت فجأة كل مخاوف الماضى التى دفنها فى أعماقه وبنى بينه وبينها سدا من الإفراط فى الثقة .

وإنه كالمنوم مغناطيسيا يتابع أصابع **موسى الدهان** وهى تفتح أنبوبة معجون الأسنان لتخرج كيسا مماثلا ... ثم وهو يخرج من حقائب مجموعة التمويه نفس الأشياء .

توقف عقله عن التفكير . مثل كمبيوتر انقطعت عنه الكهرباء فجأة .

أصدر **موسى الدهان** أوامره بالقبض على الجميع . وأثناء اعداد المحضر كان ذهنه يتحرك كسلحفاه وكأنما هو شخص آخر .

وتتضح الحقيقةُ أمامه فجأة بعد أن وقع فى الفخ المميت . إن حرصه اقتصر على تحركاته فى الخارج . أما قبل السفر فلم يكن هناك ما يخشى منه . ولقد قامر **موسى الدهان** وسخر منه فكان انتصاره يفوق أعظم أحلامه جنونا . لقد دسّ رجال **موسى الدهان** هذه الأكياس فى أنابيب المعجون وعلب الحلاقة ، ربما فى الطائرة وربما قبل ركوبها ، بل لعلّه يكون قد وصل الى قصره نفسه لتوضع فيه هذه الاشياء قبل سفره .

أما بالنسبة للمجموعة فإن الأمر يكون أسهل بكثير .

أخذ **الملك** يحاول استجماع شتات نفسه . طلب أن يتحدث فى التليفون لكن **الدهان** رفض .

وأتت نتيجة التحليل المبدئى بأن المسحوق يشتبه أنه هيروين .

ووجد الملك ـ كأنه يحلم ـ الجنود يضعون القيود الحديدية فى أيدى مجموعته . وتوجّه موسى الدهان نحوه وهو يقول :

إننى أطلب مغفرتك مرة أخرى . لكن لا أحد فوق القانون . لن أترك الجنود يضعون القيد فى يدك . . سأضعه أنا بنفسى تكريما لك .

وطاف بذهن الملك فكرة أنه ارتكب آلاف الجرائم دون أن يمسه أحد وها هوذا يقع فى جريمة لم يرتكبها .

وسيق الملك الى السجن .

كان لخبر القبض عليه رجة هائلة هزت أرجاء السلطة الحاكمة كلها . لكنه أدرك أن شعب أوفريسيا الملعون لم يفاجئ . كأنهم كانوا يعلمون حقيقته . حتى بدون أن يعلموا تفاصيل أى شئ فقد كان عدوهم وكانوا أعداءه . ربما كان مجرد انتمائه للطبقة العليا فى المجتمع مبررا لكى يبدى الرعاع ابتهاجهم وشماتتهم به .

هكذا وجد الملك نفسه فى السجن .

ولقد حاول أصدقاءه الأقوياء فى الخارج نجدته لكن موسى الدهان كان قد أجاد نصب شَرَكِه الذى أوقعه فيه .

وها هوذا فى السجن يقضى ليالى طوالا يجفوه النوم وتسبح به الذكريات .

لشدما هى غريبة تلك النفس الانسانية . إنه يكاد ينفصل عن نفسه أحيانا . كأنه شخص آخر ينضم للآخرين و يشاركهم فى الشماتة بنفسه . وفى أحيان أخرى يغرق فى نوع من الكآبة العميقة فينمحى أمامه الوجود ولا يرى سوى ليل بهيم ممتد لا يوجد به شعاع نور لكن هذا الاحساس نفسه سرعان ما يسلمه الى نشوة ثملة بلا سبب .

وكان يدرك أن تلك المشاعر الجارفة المتناقضة مقدمة انهيار نفسى ، لذلك يحاول جاهدا السيطرة على نفسه .

إنه يدرك أن المشكلة التى أوقعه فيها موسى الدهان ليست مستعصية على الحل . يدرك أنه يمكن أن ينفذ منها . و يدرك أيضا أنه يمكن أن يعود الى نفس وضعه الاجتماعى . لن يشعر بالخجل إزاء أفراد طبقته فكلهم أشد سوءًا منه . أما الرعاع الذين يشكلون شعب أوفريسيا فهم حيوانات بشرية لا يهمه شعورهم ولا أحاسيسهم الداخلية نحوه . لقد كانوا يكرهونه دائما . وهم يكرهونه الآن وسوف يكرهونه فى المستقبل . لكنه استطاع طويلا أن يسحق شخصياتهم بالمال فإن لم ينفع فبالقهر . يمكن أن يعود هو كما كان . وستظل مشاعر الجميع كما كانت . . وليس أحمقا كى يفكر فى الانتقام من موسى الدهان الآن وقد قويت شوكته . يمكن أن يتعامل معه كما

تعامل دائما مع الآخرين . وسوف يأتي يوم الانتقام لكن ليس الان . ليست المشكلة أمامه إذن عدم وجود حل . بل إن المشكلة أن أمامه عشرات الحلول لكن عليه أن يختار أفضلها .

عندما دخل السجن حاول أصدقاؤه فى الخارج أن يخففوا عنه قدر ما يستطيعون بوضعه فى أفضل ظروف معيشه . لكن موسى الدهان لم يكن يكف عن التصريح فى الاذاعة والتلفزيون بأن الملك يعامل فى السجن كأى سجين عادى مشيدا بالعدالة المطلقة فى أوفريسيا . ونجح الوغد فى أن يسلبه امتيازاته واحدا فواحد حتى وجد نفسه فى عنبر ٦ مع باقى المساجين .

ولم يكن الوضع بالسوء الذى تخيله فى البداية . بل انه الآن لو خير بين عنبر ٦ و بين الغرفة الفاخرة ـ نسبيا ـ والتى كان يقيم فيها لاختيار العنبر .

إنه يواجه فيه أنماطا أخرى من الناس مازالت الكلمات التى يستعملونها فى حياتهم اليومية كلمات غير مزيفة . إن الصدق هنا يعنى الصدق والكذب يعنى الكذب ، والأمانة تعنى الامانة والخيانة تعنى الخيانة ، والشرف يعنى الشرف والعار يعنى العار ، والشجاعة تعنى الشجاعة والجبن يعنى الجبن : كانت الكلمات كثمار أشجار غابة برية لم تطأها قدم بشر . لذلك كان مسمع الكلمات غريبا عليه . فى طبقته كانت الكلمات لا تستعمل للتعبير عن الحقيقة بل لإخفائها

كان الجميع يعرفون مثلا أن مفتاح قلب الشاويش عطية قطعة من الحشيش . لم يكن هو ينكر ذلك ولا يخجل منه . ولم يكونوا هم يعتبرون ذلك سرا ينبغى عليهم كتمانه . وكان الجميع يعرفون أن العسكرى عبد الواحد مصاب بالشذوذ مع الأطفال . ولم يكن هو يعتبر ذلك سرا يخفيه ولطالما تضاحكوا ساعات الصفو بمغامراته . وكان عطوة القشاط نشالا يحكى لهم عن مغامراته فى النشل وخفة يده . ولقد راع الملك أن يسمع منه كيف تدهورت الأحوال فى أجهزة أمن أوفريسيا ، عندما كان عطوة يحكى لهم عن التنظيم الدقيق للنشالين والتوزيع الجغرافى لهم والقيمة المهنيّة التى تحكمها قوانين صارمة للترقى طبقا للأقدمية والكفاءة تحت إمرة المعلم الكبير وعلاقته بضباط الشرطة والصولات والشاويشية فى الاقسام وكانت لهم نسبة ثابتة من حصيلة النشل . وكان هناك قوانين غير مكتوبة فى العلاقة . قوانين يحكمها شرف من نوع خاص . . فكانت الشرطة مثلا إذا أحرجت فى عملية نشل تمكن ضحيتها من الوصول الى مسئول كبير تلجأ الى المعلم الكبير الذى يعيد المسروق كما يقدم إليهم أحد النشالين الجدد أو الصبيان كى يودع السجن أو الأحداث .

اما سلطان الأطرش فقد كان قوادا من نوع فريد لا يتعامل إلا مع علية القوم . وذات يوم أرادوا الإيقاع بأحد المرشحين لمنصب وزير كى يشوهوا سمعته و يقضوا على منافسته لهم ، وراح سلطان الأطرش ضحية لتلك العملية .

كان فى السجن أيضا أنماط أخرى كثيرة تشمل لواءات ووزراء سابقين ورئيسين للوزارة وثلاثة

قادة للجيش. وذات يوم قال أحدهم ساخرا أن السجن يحوى ما يكفى لتشكيل ثلاث حكومات .. وعلق أحدهم ضاحكا لكن من يكون الرئيس .

كان للجملة الأخيرة وقع خاص فى آذان الملك .
كان دائما يتعامل مع أنداد أو مرؤوسين .
كان حرا . ولم يرض أبدا أن يتعامل مع رئيس .

وكانت تلك الفئة من عليّة القوم تتمتع بامتيازات واضحة داخل السجن . كانوا أذكياء أثناء وجودهم فى السلطة حيث كانوا يدركون أن أمامهم ثلاث طرق : اما الاستمرار فى السلطة وهذا صعب واما الموت واما السجن .

كانوا يدركون تماما استحالة عودتهم للحياة الطبيعية كباقى الناس . فقد كانت السلطة بالنسبة لهم غابة تمتلئ بصراعات وحشية لا تعترف بأوساط الحلول .

وبالنسبة للموت فقد كان هو الآخر شحيحا جدا بالنسبة لهم ومن النادر فعلا أن يموت أحدهم وهو فى السلطة كما لو كانت تحمل فى ثناياها ترياقا ضد الموت .

لذلك كله فقد كان السجن هو النتيجة المتوقعة للسلطة . ومن أجل ذلك أدخل كثير من المسئولين تحسينات مختلفة على سجن أوفريسيا الكبير حتى تحولت بعض زنازينه الى شاليهات فاخرة منفصلة تماما عن السجن الرئيسى .

وطافت بفم الملك بسمة وهو يذكر أن أول مشروع أعده فيروز العسال بعد تعينه وزيرا للداخلية هو مشروع انشاء حمام سباحة فى السجن . فقد كان فيروز العسال من هواة السباحة . وأيامها أخذت وسائل الإعلام تشيد بهذا القرار العظيم فالسجن تهذيب لا تعذيب .

وهكذا .. برغم مشاعر المذلة والمهانة والإحباط والغضب كان الملك يجد نفسه مشغولا ــ بل ومستمتعا أحيانا ــ بأكثر من انشغاله وهو خارج السجن .

— ٣ —

كانت الأسابيع الأولى قاسية فلم يسمحوا للملك بالاتصال بأى أحد فى الخارج كما منعوا عنه الزيارة .

ولم يكن ذلك خطيرا جدا فان أصدقاءه فى الخارج سيقومون بعملهم دون اتصال به . لكنه على أى حال يشعره بقوة تحكم الآخرين فيه وقهرهم له .

وعندما سمحوا له بالزيارة اخيرا — بتدخل فيروز العسال نفسه — وجدهم عند حسن ظنه فقد فعلوا ما كان يخطر بباله تماما .

من حسن حظ أوفريسيا أن أكاديمية البحث الجنائى بها — والتى تشمل قسم الطب الشرعى — كان يسودها جو خال من تعقيد المتنطعين . لذلك كان سهلا أن يحصل منهم أصدقاء الملك على أكياس الهيروين وأن يضعوابدلا منها أكياسا من السكر . ولم يُنْبِيهم واجبهم تجاه الملك أن يبيعوا الهيروين فيعوّض مادفعوه إلى المسئولين فى الأكاديمية ولم يكن الأمر شديد السهولة كما تعوّدوا من قبل ، فقد كان موسى الدهان يتابع الامر بنفسه مع تنبيهات مشدّدة أن تتم التحاليل بمنتهى الدقة والصرامة . كانت الاحراز . التى تحتوى على الأكياس فى عهدة مسئول كبير فى خزانة خاصة كان موسى الدهان يحتفظ بأحد مفتاحيها فى مكتبه وكان الآخر مع رئيس الأكاديمية . وإن الملك يضطر للاعتراف أخيرا أن موسى الدهان ذكى لكن ذكاءه منحط : أو على الأخرى مزيج من الذكاء والغباء . لذلك فهو لم يدرك بعد أنه لا يوجد كائن فى الدنيا — ولا توجد خزنة أيضا — يعجز المال عن فتح مزاليجه .

ولم يكتف أصدقاؤه بذلك . بل رتبوا أمورهم جيدا فى دوائر محكمة الجنايات التى يحتمل أن يحاكم أمامها إذا فشلت خطتهم الأولى كما أعدوا خطة ثالثة لتهريبه خارج أوفريسيا إذا ماتأزمت الأمور .

وتمت الخطة بنجاح مذهل فى مرحلتها الأولى . صحيح أن رئيس أكاديمية البحث الجنائى قد فقد وظيفته لكنه قد أصبح مليونيرا . وأصبح الافراج عن الملك مجرد اجراءات روتينية كان يعلم أن موسى الدهان يعرقلها لكن الافراج آت لا ريب فيه . ولم تعد المشكلة الآن فى الافراج بل فيما بعد الافراج . لقد قويت شوكة موسى الدهان بصورة خطيرة . إنه يأتى أفعالا لا يمكن لأحد أن يصدقها ولا أن يتخيلها . وان تصرفاته الحمقاء تؤدى الى نتائج عبقرية ولا يجد الملك لكل ذلك تفسيرا منطقيا . وإنه لكى يتعامل معه لابد أن يفهمه ... وهو حتى الآن لا يفهمه .

وبينا يتوقع الملك الافراج كل يوم إذ به يُفاجئ بأن اللواء فيروز العسال نفسه يقف أمامه ذات صباح . للحظة خاطفة ظن أنه أتى بنفسه لزيارته وامتلأت نفسه بالغبطة . إلا أنه سرعان ما أدرك أن وزير الشرطة نفسه قد أصبح سجينا معه .

— ٤ —

يعتقد الحمقى أن الحقيقة لها وجه واحد بينما الباطل فقط هو الذى يتبدّى بألف وجه ووجه .. والحقيقة — إن جاز استعمال الكلمة — أنه لا يوجد حقيقة ولا يوجد كذب . وأن كلا منهما يحتوى فى النهاية نفس الجزئيات . إن ملايين الأحجار التى تكوّن أوفر يسيا الكبير مثل ملايين الاحجار التى بنت فندق أوفر يستون الهائل . وان إرادة الإنسان وقدرته على فهم غاياته ثم على تحقيق هذه الغايات هو الذى جعل هذا فندقا وهذا سجنا . إذن فالفرق بين السجن والفندق الفاخر يمكن أن يُلخص فى كلمة واحدة هى الإنسان ولما كان الإنسان أيضا هو العامل المشترك بين الحقيقة والباطل فإنه لاتوجد حقيقة مطلقة ولا باطل مطلق وإنما توجد حقيقة ما بالنسبة لإنسان ما محصور فى زمن ما وأن هذه الحقيقة قد تكون عين الباطل بالنسبة لإنسان آخر .

هكذا كان الملك يحدث نفسه وهو يستعيد فى ليالى الأسبوع المنصرم ما حدث للواء فيروز العسال .. وزير الشرطة .

كان لدى رعاع أوفر يسيا ألف قصة على الأقل لأسباب سجن الوزير، كل قصة منها يستطيع أن يقسم على صحتها ألوف .

وكان لدى الصفوة عشر قصص على الأقل يتحدث بها العالمون ببواطن الأمور .. وبرغم تناقض القصص المختلفة فإن كل مجموعة منها تملك اليقين الكامل على أن روايتها هى دون الأخريات هى الصحيحة .

وكان الملك نفسه رغم اتصالاته الهائلة يملك أربع قصص على الأقل لتفسير ما حدث .

أما الوزير نفسه فقد كانت أول رواياته هى أصدقها . فعندما سأله الملك قال له :
لاأعـــرف .. !!

وفى الأيام التالية روى فيروز العسال روايات أخرى . كانت الرواية تختلف باختلاف

المستمع . وكان بعضها نوعا من التفكير بصوت مرتفع . وكانت مجرد صور فى عقله .. ولم تكن تمت للواقع بصلة وكان الوز يريتحدث فى كل هذا كما لو كان المستمع سيحكم عليه فى النهاية بالإدانة أو بالبراءة . لم يكن المسكين يدرك أنه فى المجتمع الوحشى الذى يعيش فيه فى أوفر يسيا لا يوجد صدق ولا كذب يوجد فقط فكرة صحيحة وصادقة لأنها تقود إلى النجاح .. وتوجد أفكار كاذبة و باطلة لأنها تؤدى الى الفشل . والنجاح والفشل هنا مقياس عملى مرتبط بالزمان والمكان وملايين الأشياء الأخرى . بل إن النجاح نفسه يعنى فى نفس الوقت فشل شخص آخر .. ولهذا فان **موسى الدهان** هو الصادق الذى يملك الحقيقة بينما هو ـ **الملك** ـ **وفيروز العسال** كذبان على باطل . لم يكن **فيروز يملك هذا العقل الكلى الجبار الذى يملكه الملك** .. لذلك لم يدرك أن الأفكار فى رأسه والحجج على لسانه كمن يستحضر النار داخل عقله متجاهلا أنها نار لا تحرق خشبا . أو من يتخيل الماء جاهلا أنه طالما فى رأسه فقط فهو ماء لا يروى ظمأ ولا يطفئ نارا .

إن أى فكرة **كالطفل الوليد** مجرد مشروع لشئ قادم . ولا أحد يستطيع أن يحكم هل سيكون هذا الطفل خائنا أم بطلا . جبانا أم شجاعا . كاذبا أم صادقا . انه مجرد مشروع لشئ قادم سوف تظهر الأيام نتائجه النتيجة فقط هى ما يحكم عليها . وهى بغض النظر عن أى شئ آخر وعن أى وسيلة اتخذت فى الوصول اليها تمثل الحكم النهائى .... لذلك لم يكن مهما أبدا ما حدث **لفيروز العسال** كى يصل الى السجن . الحقيقة الآن أنه فى السجن لا يهم أبدا ما حدث قبل ذلك . يستوى أن تكون التهمة هى الخيانة العظمى أو الرشوة أو الاختلاس أو العمولة أو أن يكون ضحية لعصر طهارة اليد واللسان . الصدق هو القوة . والحق هو الواقع . وما غير ذلك مجرد بهتان و باطل .

لم يتعود **الملك** أن يفصح عما فى نفسه . كان **الملك يكنّ قدرا هائلا من الإزدراء للآخرين . لكنه كان يغطى ذلك كله فيض من الرقة والدماثة والأرستقراطية التى اكتسبها بعد أن جرب مختلف الوسائل فى التعامل مع الآخرين .**

ولقد اضطر **الملك** هذه الليلة أن يعطى درسا فى الحكمة **لفيروز العسال** الذى كان ما يزال فريسة الألم الطاغى لاعتقاله وسجنه محاولا أن يجد مبررا يجعل منه بطلا . واضطر **الملك** أن يقول له فى النهاية :

ـ لا تجلس هكذا تندب حظك . إنك طوال الوقت تحاول إثبات أنك على صواب وأنهم على خطأ : لا يوجد عمل صواب وآخر خطأ العمل مجرد مشروع لشئ ما . فاذا نجح فهو صواب واذا فشل فهو خطأ . وان انتصرت فأنت على حق واذا هزمت فأنت على باطل . تلك هى الخلاصة المركزة للحقيقة .. فافهم .

لم يحزن الملك من أجل وزير الشرطة إلا لسبب واحد . وهو أن موسى الدهان هو الذى عين مكانه . وكان هذا يعنى مزيدا من النجاح للوزير الجديد ــ وبالتالى مزيدا من الحق والصدق ــ ومزيدا من الفشل له وبالتالى مزيدا من الكذب والباطل .

وكان أخطر ما فى ذلك أنه سيؤثر بصورة ما على تاريخ الافراج عنه .

— ٥ —

كان الامبرائيس فى أوفريسيا يحكم منذ عشرات الأعوام . كان اسم المنصب قد اشتق خصيصا بتهجين كلمتى الامبراطور والرئيس . فبعد تجارب أجيال وأجيال فى أوفريسيا كان الرأى العام قد رفض تماما الحكم الملكى المتخلف الذى كان يجعل حكم أوفريسيا ينتقل بالوراثة فى عائلة بعينها . وكان هذا يجعل صلاحية الملك خاضعة لظروف متعددة أهمها الصدفة . وكان من الممكن دائما أن يخرج من ظهر العالم فاسد كما كان من الممكن بنفس الدرجة أن يخرج من ظهر الفاسد عالم . ولم يكن مستساغا فى القرن العشرين لدى شعب أوفريسيا أن تخضع كفاءة حاكمه لقوانين الوراثة والصدفة . لذلك رفضوا الحكم الملكى ، خاصة بعد أن فشلت كل القوانين التى حاولت أن تجعل الملك يملك ولا يحكم ......

كان دائما يملك ويحكم و يبيع أيضا . وكان الإبن يأتى — حتى لو كان صالحا — ليدافع عما فعله أبوه وليتستر على أى شئ يخدش كرامة القصر الحاكم ... لذلك كله رفض شعب أوفريسيا النظام الملكى . وقد جرب بعد ذلك مختلف أنواع الحكم . وجاء الامبرائيس أخيرا ليضع نظاما جديدا وفريدا فى العالم . وهو أن يكون الحاكم مزيجا من الرئيس والامبراطور وعلى ذلك فإن الحكم لا ينتقل بالوراثة حاملا معه مساوئ الصدفة . وفى نفس الوقت فقد كانت تجربة الرئاسات المتعاقبة كل عدة سنوات فضحية أمام العالم . كان كلّ رئيس يأتى يمكث عدة شهور فى الحكم ثم يواجه الشعب فى خطاب علنى هام يعلن فيه أنه استلم الخزانة من سلفه خاوية وأن الاقتصاد تحت الصفر وأن الأوفريسيين يجب أن يربطوا الأحزمة على البطون . وكان يتهم نظام الحكم السابق باتهامات شائنة منها الاختلاس والرشوة واهدار المال العام وتهريب النقد الى الخارج .

وكان أعوان النظام السابق يتهمون الرئيس بأنه نجح بانتخابات مزورة زيف فيها إرادة الشعب . وكان الحال يظل هكذا حتى تقوم انتخابات جديدة ينجح فيها رئيس جديد يتهم سابقه نفس الاتهامات .

لذلك كله فقد كان اقتراح الرئيس عبقريا . فعندما انتهت مدة حكمه وآن أوان الانتخابات الجديدة كتب ربيبه الحميم خنفس بوللى رئيس تحرير صحيفة الأنباء مقالا طويلا عن عيوب نظام الانتخابات الذى لاتقتنع به المعارضة والذى تهدر فيه ملايين وملايين كل مرة دون مبرر حقيقى . وأن شعب اوفريسيا أولى بهذه الملايين . كما أضاف أن الانتخابات المتعاقبة تحرم شعب أوفريسيا من الاستقرار والاستمرار الذى يشجع رأس المال على الاستثمار . واقترح الصحفى الكبير خنفس بوللى نظاما وسطا ــ فخير الامور الوسط ــ وهو أن يتولى الرئيس الحكم حتى يعجز عن الحكم بالمرض أو الموت . وأخذ يعرض حججه المؤيدة لفكرته . والحقيقة أنه كان محيطا وشاملا فى عرضه مبرهنا على أن فكرته هى أفضل فكرة لنظام الحكم عبر التاريخ . وكان مما قاله أن الرئيس لو كان عظيما فمن حق الشعب أن يتمتع بعبقرية عظمته مدى عمره . ولو كان غير ذلك أيضا فالأفضل أيضا أن يستمر فى الحكم مدى عمره . حتى لو كان لصا . فقد اكتشف خنفس بوللى أن أهم سبب للنزيف المتصاعد لخزانة أوفريسيا هو احساس الرئيس أنه سيترك الحكم بعد سنوات معدودة مما يدفعه أن يحاول فى هذه السنوات أن يؤمن مستقبله ومستقبل أتباعه . وكان النظام الذى يقترحه خنفس بوللى سيؤمن مثل هذا الرئيس بأن الخزانة كلها ملك يديه طوال عمره مما يجعله ينصرف عن السلب والنهب الى مصالح البلاد . ومزيدا من الخير اقترح الصحفى الكبير أن يكون الرئيس التالى هو من يوصى به الرئيس السابق . فان ذلك أدعى أن يطمئن الرئيس أن من يأتى بعده لن ينبش خلفه كى ينشر فضائحه . وقد قرر خنفس بوللى أنها فى معظم الأحيان ليست فضائح بقدر ما هى محاولة من الرئيس الجديد أن يرفع قامته على أنقاض رئيس لم يعد يملك وسائل الدفاع عن نفسه بعد أن ترك كرسى الرئاسة وفقد سيطرته على قوات الأمن والدفاع التى كان منوطا بها أن تدافع عن سمعته وشرفه والتى أصبح منوطا بها الآن أن تدافع عن الرئيس الجديد حتى ولو على حساب الرئيس القديم الذى كانت تدافع عنه قبل ذلك .

واقترح خنفس بوللى أن يكون اسم الرئيس هو « الامبرائيس » وهو دمج لكلمتى الامبراطور والرئيس . وعلل ذلك كله بأن شعب أوفريسيا العظيم يستحق هذا الاسم العظيم .

أثارت مقالة خنفس بوللى رجة هائلة فى الصحافة والاعلام . أيدها الكثيرون وعارضها البعض . ولقد حيى خنفس بوللى معارضيه قبل أن يحيى مؤيديه منوها بأن الديمقراطية فى أوفريسيا تسمح لكل من يريد أن يقول لا أن يقولها .

وأنبرت صحافة المعارضة ــ التى كانت فلسفتها المعارضة من أجل المعارضة ــ فى تسفيه فكرة الأستاذ خنفس بوللى متهمة اياه بأنه عبد كل حاكم وكلب كل سلطة . لم يكن أسلوبهم مهذبا . فمعظمهم تمتد جذورهم الى طبقات الرعاع ولم يتخلصوا بعد من آثارها عليهم . كانوا أفنديات يخفون تحت ملابسهم الأنيقة ملابس الرعاع . كانوا يسكنون الشقق الفاخرة ويستعملون المياه الساخنة ويأكلون الأطعمه الفاخرة ثم يتحدثون عن آلام الجياع والعراه ومن بلا مأوى . ولم

يكونوا سفلة فقط . ففى الاسبوع التالى لنشر مقال الكاتب الكبير خنفس بوللى قامت أجهزة الأمن بعمل رائع اسمه الرمزى الذى اشتهر به فى وسائل الإعلام هو: العملية «تفاحه». وثبت بما لايدع مجالا للشك أن رئيس تحرير جريدة الشرق جاسوس لبلاد الشرق . وأن رئيس تحرير صحيفة الغرب يتلقى أموالا طائلة من الغرب . كذلك كان رئيس تحرير صحيفة الجنوب جاسوسا ــ بالإضافة الى فضيحة مشينة ــ حيث اكتشفوا أنه مصاب بالشذوذ الجنسي بسبب ذلك ــ وأشياء أخرى ــ يخون أوفريسيا لصالح بلاد الجنوب . أما رئيس تحرير صحيفة الشمال فقد كان له وضع آخر . كان منصبه الظاهر هو الصحافة . أما فى الخفاء فقد كان تاجر سلاح . كان يهرب السلاح الى المتمردين فى أوفريسيا . وكان يحصل منهم على مبالغ طائلة . لكن كان بالنسبة لهم بطلا يخاطر بحياته من أجل مستقبل أفضل للأوفريسين . وكان بالنسبة للحكومة ايضا بطلا . فقد كشفت التحقيقات أنه كان يبلغ الحكومة عن السلاح دون أن يخبرهم بأنه مورده . وكانت الحكومة تستولى على السلاح فيحتاج المتمردون الى سلاح أكثر وتزدهر تجارته .

ولقد أثبتت التحقيقات كل ذلك بالصوت والصورة ثم باعترافات المتهمين أنفسهم كما نشرت الصحف .

وكانت هذه الواقعة ضربة قاصمة للمعارضة . لم تستطع بعدها أن ترفع رأسها وخفتت أصوات الرفض ازاء طوفان الموافقة الجارف الذى دفع مجلس الأعيان الى الاجتماع للنظر فى تقنين الاقتراح .

وفوجئ الجميع بقلة من المجلس تعارض . كان من ضمنهم رئيس المجلس ووكيله وعشرة أعضاء آخرين أما باقى المجلس وهم مئات فقد أيدوا تماما الاقتراح . ولم يكتفوا فقط بالاقتراع عليه . بل سحبوا الثقة من المعارضين وأسقطوا عضويتهم من المجلس .

كانت مصلحة أوفريسيا أهم من الالتزام بأى شكليات تافهة يرسمها القانون . واعتقل المعارضون من أعضاء المجلس فقد ثبت بما لا يدع مجالا للشك أنهم كانوا يدبرون مؤامرة لقلب نظام الحكم ولقد اعترفوا بذلك جميعا فى التحقيقات التى أجريت معهم . كما اعترف بعضهم أيضا بأكياس الذهب التى حصل عليها لكى يعارض . ولم يكن النظام فى أوفريسيا يسمح بهذا الخلل المشين .

وحكم القضاء النزيه العادل على المجرمين بالاعدام . كان فى موتهم حياة أوفريسيا وأمان مستقبلها .

هكذا عرفت أوفريسيا طريق الاستقرار وأخذ الصحفيون جميعا وعلى رأسهم خنفس بوللى يبشرون الأوفريسيين بالرخاء القادم .

ومرت الأعوام والإمبرائيس يحكم وخنفس بوللى يكتب ولم يأتى الرخاء . لكن ذلك لم يكن ذنبهم . كان الشعب الأوفريسى لا يعمل كما تعمل باقى الشعوب . والحقيقة أن أجهزة الاعلام أشبعت هذه الفكرة حتى اقتنع كل أوفريسى أنه لا يستحق أن يعيش وأن حياته منّةٌ من الإمبرائيس عليه . وكيف من حقه أن يعيش وهو لا ينتج ما يكفيه . لكن قليلا من الأوفريسيين الكذابين كانوا يدعون أنهم يعملون و ينتجون وكانت صحافة المعارضة السافلة تشجع مثل هذه القلة الحاقدة الكاذبة . وتتساءل فى خسة طائشة حمقاء أين يذهب إنتاج الأوفريسيين . ولم يتوان خنفس بوللى عن الرد عليهم بأن هذا الانتاج يذهب الى أفواه الجياع الذين تطعمهم الدولة بدعم الأسعار. وتباهى خنفس بوللى أيضا بما يصرف على قوات الدفاع والأمن لحماية أوفريسيا التى تملك أقوى جيش فى المنطقة .

كانت حجج خنفس بوللى مقْنِعة . وكان الامبرائيس شديد الذكاء هو الآخر. فقد أخذ كل حين وآخر يعين رئيس وزراء جديد ثم يعزله بعد فترة لعجزه عن التصدى للفترات المصيرية الحاسمة التى تواجهها أوفريسيا . بل كان يثبت على بعضهم إتهامات خطيرة تدفع الإمبرائيس لإحالتهم الى القضاء كى يجنوا عقاب ما اقترفت أيديهم بأن يغيبوا فى غياهب السجون . وفى إحدى هذه القرارات وجد فيروز العسال نفسه فى السجن و وجد موسى الدهان نفسه وزيرا للشرطة .

كان الملك يتابع الأحداث من داخل السجن بقلق . فقد كانت المعارضة وقلة محدودة من شعب أوفريسيا تنفخ فى النار. وكان التوتر فى أنحاء البلاد فظيعا . ولم تقتنع القلة الحاقدة بتغيير الوزارة وسجن وزير الشرطة. كان التغيير الذى يطلبونه أشمل . كانوا يطالبون بتغيير الواجهة الحاكمة كلها . وتصدى لهم خنفس بوللى وزملاءه فى شجاعة منقطعة النظير وكتب مقاله الشهير بأنهم لا يقصدون واجهة الحكم بل يقصدون الامبرائيس ذاته . و برغم قوة حجته وفصاحة بيانه فقد كان رعاع أوفريسيا يصدقون القلة الحاقدة التى تحركها المعارضة . و بدا أن الأمور لن تستقر بقلم خنفس بوللى بل بسيف موسى الدهان . وأنه لا بد من مذبحة تسحق من يعارض وترهب من يشجع . كان الملك يتوقع المذبحة كل يوم . وأتته الأخبار من الخارج أنهم يعدون لها وأن كشوف الأسماء تعد . ولأول مرة أحس الملك بالسعادة أنه فى السجن . فقد كانت خبرته فى أوفريسيا أن كثيرا من الابرياء مثله يضيعون فى خضم هذه المذابح . كان يكفى أن يكون على عداء بأحد من يعدون للمذبحة كى يدرج إسمه فى هذه الكشوف .

الآن يملك الدليل اليقينى أنه بعيد عن مصادر الإثارة والتشكيك . ولم يكن هذا هو السبب الوحيد لسعادة الملك . فقد كان يدرك أيضا من واقع خبرته أن الامبرائيس إزاء مشاعر الرعب الشعبى الذى سيعقب المذبحة مضطر للتضحية بموسى الدهان الذى سيحمل وحده دون الإمبرائيس عواقب السخط والحقد والكره .

كان هذا هو ما يحدث دائما فى أوفريسيا فلماذا لا يحدث هذه المرة .

وكان الملك يمنى نفسه بقرب إنقشاع كابوس موسى الدهان .

— ٦ —

لم يتدارك المسئولون عن السجن أمر الاتصال مع الخارج طول اليوم فظل المساجين فى سجن أوفريسيا الكبير يتابعون ماحدث فى الخارج .

كانت مظاهرات الرعاع قد انفجرت فى أنحاء أوفريسيا منذ الصباح الباكر ممتدة من أقصى الشمال الى أقصى الجنوب ومن أقصى الشرق الى أقصى الغرب . أسفرت الحيوانات البشرية عن المشاعر الكامنة فيها فراحت تحطم كل شئ فى سبيلها وتشعل النيران وتخرب الاقتصاد الوطنى للبلاد . ولم يكتفوا بذلك بل كانوا يطالبون برأس ثلاثة :

الامبرائيس وموسى الدهان وخنفس بوللي . كانوا يتسترون خلف شعارات براقة كالديمقراطية والحرية وطهارة اليد واللسان لكنهم كانوا ينهبون المتاجر والسوبرماركت وكل مايمكن أن يحمل .

حيوانات متوحشة سافلة تثور على أسيادها لكن هؤلاء الأسياد كانويستحقون ذلك فى رأى الملك .

كانت الاعتقالات قد بدأت فى الليلة السابقة فثار الناس فى ثورة تنبئ برغم كل الخراب والدمار بالخير . إنهم سيضعفون السلطة وستدمر السلطة جزءا كبيرا منهم وهذا هو أفضل مايحلم الملك به بعد خروجه من السجن ... أفضل جو لأعماله .

كان موسى الدهان قد حاول بقواته منذ الصباح مواجهة المظاهرات التى اكتسحت كل شئ . وعجزت الشرطة عن مواجهة الكارثة فطلب موسى الدهان من الامبرائيس صدور أوامره بتدخل الجيش . تقاعس الجيش عن التدخل ففوجئو فى المساء بقائد الجيش يدخل السجن معهم . كانت معرفة الملك به سطحية . لكن فيروز العسال جاءه بعد ساعات ليخبره بأن نطاق المظاهرات أخطر مما يظنون . وعندما أمر الملك قائد جيشه بمواجهة المظاهرات كان الزمام قد أفلت

فى نظر القائد .... وحاول أن يشرح للإمبرائيس أن المظاهرات لن تهدأ الآ بقرارات سياسية تحمل بعض التنازلات للرعاع . وأنه لايستطيع مواجهة الجماهير بالدبابات والطائرات والمدفعية الثقيلة ... ثم أن ينزل بالجيش الى الشوارع فينضم جزء منه الى المتظاهرين بأسلحته لينهار الاستقرار والاستمرار فى أوفريسيا .

لم يتفهم الامبرائيس كل ذلك واتهمه بالجبن . كان كل منهما يفهم الآخر. إن الامبرائيس يريد من قائد الجيش أن يسحق للرعاع حتى لوقتل نصف شعب أوفريسيا فهم أشرار لصوص يستحقون الموت . وليس عنده مانع بعد ذلك من أن يقدم للنصف الباقى قائد الجيش كى يمزقوه تمزيقا ملقيا باللوم عليه لأنه هو الذى دبر للمذبحة . وقال القائد لفيروز العسال .

— لا يمكن أن تتخيل منظر تلك الكلاب الضالة الباحثة على الدوام عن قطعة عظم عندما تثور كقطعان الجاموس الوحشى ، ولست أخفى عنك أن وجهة نظرى فيهم ليست أقل سوء من رأى الامبرائيس . لكننه يضعنى فى خيار مستحيل بعد أن كادت السفينة تغرق . انه سيستعملنى فقط لذبحهم كى يذبحنى أنا على الفور. فماذا يضيرنى اذن أن أرفض ذبحهم على الأقل لن أتحمل تلك الوصمة أمام التاريخ .

كان الملك يتابع فى اهتمام رواية موسى الدهان وتمتم لنفسه :

— التاريخ ... التاريخ أكذوبة كبرى لايصدقها الا الحمقى .

وكان آخر ما وصل الملك من أنباء أن خسائر ممتلكاته — التى سجل معظمها بأسماء وهمية — تصل الى عشرة ملايين أوفريس .

كان حصاد المعارك فى نهاية اليوم آلاف القتلى وعشرات الآلاف من الجرحى . نزلت قوات الجيش بقيادة الفريق الطرابلسى لتسحق المتظاهرين سحقا . وأوجس الملك خيفه فهاهوذا واحد آخر من أصدقائه سوف يقدم قربانا للرعاع بعد سحق الفتنة .

فى الليل فى السكون الغير مطبق . انساب صوت غريب من بعيد . كصوت عاصفة أو اعصار أو زلزال أو بركان أو هدير موج مجنون ... أو صرخات شيطان يائس أو عواء حيوانات أسطورية ... وربما كان الصوت الذى سمعه المساجين فى أوفريسيا مزيجا من كل هذا ... وأصاخ الملك السمع . إن الصوت يعلو كل حين ثم يهدأ ... وعندما يعلو مرة أخرى يكون أشد علوا من سابقه . وأدرك الملك حقيقة الصوت إن ملحق سجن أوفريسيا والمخصص للسياسيين

والمشاغبين يبعد ميلا واحدا . وما الأصوات التى يسمعها إلا أصوات أفواج المعتقلين التى تصل إلى السجن حيث يقابلهم حراسه بما يستحقون من تعذيب . وكانت الأصوات التى تصلهم مزيجا من أصوات الضاربين المليئة بالانتقام والغيظ وأصوات المضروبين النائحة بالألم . ولأول مرة يغبط الملك نفسه أنه سجين فى سجن الجنايات وليس سجينا سياسيا .

كان الملك واثقا أن ذلك العنف سيولد بين الرعاع مزيدا من العنف وأنه لن يمكن السيطرة عليهم الا باستخدام الحيلة . ولاتوجد الآ حيلة واحدة هى أن تقدم لهم ضحية تقنعهم بأنها السبب فى كل مصائب أوفريسيا . ولايمكن أن تكون هذه الضحية سوى موسى الدهان .

وأغلق الملك عينيه فى نشوة .... لينام .

— ٧ —

كان الواقع الذى حدث فى الاسبوع الرابع للمظاهرات أشد غرابة من أى خيال يمكن أن يخطر حتى فى بال الشيطان .

كانت المظاهرات تزداد عنفا كل يوم .

وفى الاسبوع الرابع أخذت أجهزة الاذاعة والتلفز يون تناشد المواطنين الإستماع الى بيان هام بعد قليل منوّهة أن هذا البيان سيحل كل مشاكل أوفر يسيا .

استطاع أصدقاء الملك الحصول على جهاز تلفز يون ليشاهدوا و يسمعوا البيان فيه .

تأجل البيان أكثر من مرة دون سبب .

كان الجميع يتوقعون ظهور الامبراطيس لكنهم كانوا حيارى فيا يمكن أن يقوله .

أخيرا ظهر موسى الدهان على شاشة التلفز يون .

كان أنيقا مهندما واثقا من نفسه ولايبدو عليه أى أثر للإجهاد . وأحس الملك بقلق خفى .

_ وقرأ موسى الدهان بيانا قصيرا مكتوبا بلهجة واثقة . وكانت بداية البيان مفاجئة صاعقة .

أعلن موسى الدهان أن الامبراطيس يعالج الآن فى المصحة النفسية بعد أن وقع عشرة من كبار أطباء الأمراض النفسية على شهادة بأنه يعانى من مرض عقلى متقدم هو: السيكوباتى المتعدى . وأن هذه الحالة لاينتظر شفاؤها وأنه لم يعد يصلح للحكم .

وأعلن موسى الدهان أنه حرصا على مصالح أوفر يسيا التى توشك على الانهيار وحفاظا على تقاليد راسخة تقضى بانتقال السلطة بطر يقة شرعية تتناسب مع حضارة الشعب الأوفر يسى فقد جمع مجلس الأعيان ومجلس الوزراء والفقهاء الدستور يين . وقد اعتذر الوز ير الأول ورئيس مجلس الأعيان عن الترشيح لمنصب الإمبراطيس . ورشحوا له موسى الدهان الذى وافق عليه مجلس الأعيان بالاجماع .

وأضاف موسى الدهان أنه منذ اللحظة الراهنة مسئول عن أمن أوفريسيا وعن رفاهية شعبها . وقرر أنه لن يترك الجرائم التي حدثت فى الماضى ضد شعب أوفريسيا تمر دون عقاب .

وصرح الامبراطيس الجديد بأن قائد الجيش معتقل الآن فى سجن أوفريسيا الكبير لمسئوليته عن المذابح التى حدثت . ثم أنهى كلمته بتحذير أوفريسيا العظيم من الانتهاز يين والخونة الذين سيحاولون ابقاء الفتنة مشتعلة مؤكد أنه بسبب الحب الهائل الذى يجعله لأوفريسيا والأوفريسين **فإنه لن يرحم مشعلى الفتنة وأنه سيفرم كل من حاول التلاعب بالوطن المُفَدَّى .**

لم يشعر الملك بالاضطراب فى حياته كلها كما يحسه الآن . مزيج من الظلام الدامس والضياء الباهر الذى يعمّى العين .

إن عقله الذى طالما اعتز به يعجز عن مواجهة مايحدث وعن تحليله . يبدو المستقبل بلا طريق .. وتبدو الدنيا بلا أمل الا أنه يدرك على وجه من الوجوه أنه لا توجد فى الوجود مشكلة بلاحل . إنه الآن لا يعرف الحل لكنه واثق أنه سيعرفه يوما ما .. وليفكر على مهل فواقع الأحداث يخبره أن إقامته فى السجن ستطول أكثر بكثير مما توقع .

كان عقله كجهاز كمبيوتر انقطعت الكهرباء عنه . وكانت تقفز فى ذاكرته أحداث متعددة بلا رابط فيذكرها بكل تفاصيلها كما لو كانت حدثت منذ لحظة . لم يكن يجد تفسيرا مقنعا لكل مايحدث ..

وفجأة وجد التفسير فى واقعة حدثت منذ أعوام . كان مع صديقة ــ الذى أحبه حقا ــ وكان كاتبا . كان لا يعرف عن الملك بالطبع سوى شخصيته الإجتماعية اللامعة كأحد صفوة القوم . وسأله الملك :

ــ لماذا لم أقرأ لك منذ فترة طويلة .

وشرد الكاتب لحظة ثم قال بمرارة :

ــ الكتابة فن . والفن خيال يغرى الواقع أن يجرى خلفه . فاذا انقلبت الأمور وأصبح الواقع أشد غرابة من الخيال فليس للفن مكان .

انتحر الكاتب الكبير بعد ذلك اللقاء بأسابيع .

وإن الملك ليدرك أنه يمر بلحظة يأس مشابهة يعجز عقله فيها عن التعامل مع الأحداث حوله . فهى أحداث لا يحكمها منطق .

لكنه لن ينتحر .

وإن جسامة العقبات تحفِّزُه لجسامة التحدى .

ولطالما أدرك أنه لا يوجد فى أوفر يسيا كلها عقل مثل عقله .

فإن لمْ يتصدّ هو لذلك التحدى فمن يستطيع غيره .

إن عقله مجهد . عليه أن يرتاح . الاّ يفكر . . وفى قادم الأيام سوف يفكر طو يلا طو يلا .

— ٨ —

أنقضى عامان قبل أن تنجح خطة الملك التى ظن بعض أصدقائه القليلين الذين علموا بها أنها جنون مطبق .

كان الجميع قد نسيوهم تماما ولم يعد هناك أهمية حتى لإجراءات الحاكمة التى ينص القانون أنهم يجب أن يخضعون لها .

وأدرك الملك أنه سيترك هكذا حتى يموت إن لم تَجُدْ قريحته بفكرة تخرجه من السجن .

كانت خطة الملك تتسم بالبساطة والعبقرية التى تتسم بها كل خططه . كان قد استعاد جلاء عقله . وقد فشلت الخطط الأولى لاستبدال مأمور السجن بأحد رجالهم . وكانت أصابع الامبراثيس موجودة وإن كانت لاترى .

وفى تفصيلات شديدة الدّقة وبمعاونة أصدقاء عديدين فى أوفريسيا وفى خارجها وفى خطة مُذهلة شارك فيها بعض المساجين تمكن الملك ليس من الخروج من السجن بل ومحوآثار الماضى تماما .

من الغريب أن صفات سلطان الأطرش كانت خيطا الى الخطة .

وكان الخيط الآخر هوما حدث فى عملية تهريب الماس الكبرى والتى استعمل فيها الأقنعة .

كانت الواقعة الأولى تعنى امكانية تغيير الصوت وكانت الثانية تعنى تغيير الشكل .

لم يستطع اقناع فيروز العسال وحيدر الطرابلسى بالاشتراك معه . عندما سمعا خطته اتهماه بالجنون . لكن ما فشل فيه المنطق نجح فيه اليأس . أدراكا أنها إن لم يساعداه ــ حتى على ماظناه الجنون ــ سيهلكان فى السجن .

تمت الخطة فى حلقات منفصلة . كانت كل حلقة منها تتم منفصلة دون أن يعلم القائمون بها الغرض منها أو أنها جزء فى خطة أكبر.

التقطت صور عديدة للمأمور ونائبه . قام الأصدقاء فى الخارج بمتابعتها لمعرفة تفاصيل حياتها اليومية . سجل صوتها فى مختلف الانفعالات وعلى كافة الدرجات .

كان نائب المأمور هدفا مثاليا فقد كان أعزبا و يبدو أنه كان يعانى من مرض نفسى يدفعه للعزلة . تم رصد حركته وأصدقائه القليلين وأقاربه .

قطعة كبيرة من الحشيش للشاويش عطية ينفصل بعدها عن الوجود . سلطان الأطرش يقلد صوت الشاويش عطية و ينادى على نائب المأمور مفتعلا حدوث ظرف طارئ .

خبطة على الرأس يغيب بها نائب المأمور عن الوعى .

كان نائب المأمور البديل جاهزا بقناعة .

يلبس ملابس نائب المأمور فيصبح صورة طبق الأصل منه .

ينبهر الملك لتخطيط أصدقائه فى الخارج وفى قدرتهم الفائقة على تدريب البديل حتى يصبح كالأصل تماما . كان ممثلا فاشلا وعرض عليه القيام بالدور مقابل ربح خيالى .

حركة الملك وأصدقائه تصبح أسهل كثيرا .

فيروز العسال يصبح ذو أهمية لمعرفته بكبار الموظفين فى وزارة الشرطة .

تكرر العملية بنفس درجة النجاح المذهل فى عدة وظائف هامة فى وزارة الشرطة . كان البدائل سجناء سابقين تم تدريبهم بمنتهى الدقة والإتقان والصرامة . كانوا يتّصفون بالاقدام والجرأة . وكانوا مأمونين أكثر من ممثلين فاشلين فقد كانت خطورة اكتشاف اللعبة أخطر عليهم من خطورتها على المحرضين أنفسهم .

أمكن التسلل بنفس الطريقة الى أماكن عديدة ، كان الملك يرى أنها هامة للمستقبل .

كانت مشكلة الرهائن الجدد تحل طبقا لظروف كل عملية . قُتِل البعض ، وسُجِنَ البعضُ الآخر كما حُوِّلَ آخرون إلى مستشفى الامراض العقلية .

تم اعداد ثلاثة أقنعة ، احدهما للملك والآخر لفيروز العسال والثالث لحيدر الطرابلسى . أُلبست لسجناء سياسيين ماتوا أثناء تعذيبهم . لم يكن اسمهم مسجلا بدفاتر السجن ولم يكن هناك أمر بالقبض عليهم أو أى دليل عنى وجودهم بالسجن أصلا . وصدر بيان من السجن بموت حيدر الطرابلسى وفيروز العسال والملك اثناء محاولتهم الهروب من السجن .

صرّحت النيابة بدفن الجثث .

وعندما فحص المعمل الجنائى البصمات كانت بصمات حقيقية لهم . .

وفى ملفات الدولة أغلق كل من الملفات بتار يخ الوفاه .

ـ ٩ ـ

مرت عشرة أعوام على موت الملك للذى أصبح اسمه الجديد « المايسترو» أو « الرجل الكبير» أو « رب العائلة » بالاضافة الى أسماء متعددة كانت تستعمل فى ظروف خاصة .

تطوّرت صناعة الأقنعة تطورا مذهلا وشكرا للتكنولوجيا . ولأجهزة الكمبيوتر

البدائل القليلون فى البداية أصبحوا مئات فى مختلف الأجهزة الحساسة لأوفر يسيا

ـوتضاءلت الحاجة للبدائل إلا فى الظروف الخاصة . فقد كان كبار المسئولين فى أوفر يسيا على استعداد للقيام بنفس الدور الذى يقوم به البدائل المقنعون .

أسفرت خطته عن نجاحها المذهل بترقية عدد من البدائل الى منصب الوزارة

تشعبت العملية إلى حد كبير وأصبح له معاونون فى الداخل والخارج . ولم يعد يحدث شئ إلا بعلمه .

كان مافكر فيه طويلا أمرين هامين :

أولها : نظام الحكم فى أوفر يسيا .

والآخر: الرعاع فى أوفر يسيا .

كان مايشغله كيف يسيطر على الإثنين ، إن سقوط الانظمة يكون دائما بسبب الرعاع .

كما أن ثورات الرعاع تكون دائما بسبب الأنظمة الحاكمة . وإنه يريد تلك المعادلة العبقرية التى تكفل له السيطرة الكلية النظام وعلى الرعاع .

الفترة الأولى من الأعوام العشرة الماضية قضاهاخارج اوفريسيا . دهاء الإمبراثيس جدير بكل احتياطات الأمان . وكان عليه أن ينتظر حتى يتأكد أنه صدق قصة موته .

حساباته السرية في الخارج وسبائك الذهب والماس ومشروعاته في أوفريسيا بأسماء وهمية كانت بداية رصيدة في مرحلة عمره الثانية . وأخذ الرصيد يتضاعف بصورة مذهلة .

كان هناك خمسة فقط بينهم فيروز العسال وحيدر الطرابلسي هم الذين يعرفون عمليته الكبرى . كانوا وكلاءه الرئيسيين . أما الباقين جميعا فقد كانوا وكلاء للوكلاء ... أو وكلاء لوكلاء الوكلاء .... وهكذا .

تكلف الوكلاء كثيرا . لكن إيرادهم كان أضعاف ماتكلفوه . كان يغطي معظمهم أعمال تجارية واقتصادية كبرى تصلح وحدها أن تكون هدفا حتى بغض النظر عن مهامهم الأساسية . والتي كانوا أحيانا لايعرفون عنها شئا .

وكان أحد وكلاء الوكلاء هو سلطان الأطرش الخبير بفنون المتعة. أرسل سلطان الأطرش الى بلاد الشمال بوثيقة سفر باسم « معاوية زغلول » كان مذهولا وهم يعطونه مبلغا ضخما من المال لاستثماره هناك . مارس في البداية نفس العمل الذى كان يزاوله قبل سجنه وكان ناجحا جدا في بلاد الشمال . ثم وجهت إليه نصيحة أنه ليس هناك اعتراض من ناحية المبدأ على أختياره لهذا العمل فذلك حقه الشخصي لكن الأفضل أن يكون هناك غطاء محترم لأعماله فاشترى فندقا فاخرا أثث به دارا للمسرح وقاعة للسينما . اشترى بعد ذلك دار للنشر والتوزيع . وفي صفقة رائعة اشترى قدرا كبيرا من الأسهم في صحيفة كبرى . وكان النجاح يلد النجاح فامتلك أيضا عديدا من الفيللات الفاخرة في الأماكن السياحية في بلاد الشمال . بالطبع لم تكن كل هذه الممتلكات خاصة به . كان يدرك أنه وكيل لرئيس يتلقى منه تعليماته و يسدد له جزء كبيرا من أرباحه . وكان يدرك أن هناك مثله كثيرون ربما يكون بعضهم شريكا في أعماله وإن كان لايعرفهم .

ساعدته مرونته وخفة ظله على اكتساب الحب مما أعطاه قدرا هائلا من الاتصالات .

نشر باسمه عديدا من المقالات والتحليلات في الصحيفة التي يملك بعض أسهمها . كانت هذه المقالات تُجَهَّزُ له ، وكان لايملك الوقت أحيانا لقراءتها قبل النشر . وذات يوم فوجئ بطلب من أكبر صحفيتين في أوفريسيا أن تحصلا على حق نشر مقالاته في الوطن . ووافق طبقا لتعليمات فورية . وبعد ذلك فوجئ بزيارة السفير الأوفريسي في بلاد الشمال الذى عبّر له عن اعجابه الشديد وفخر أوفريسيا كلها به كنموذج مثالي للمواطن الصالح . وانتهت الزيارة بأمرين : موافقته على أن يكون مراسلا معتمدا للتلفزيون الأوفريسي في بلاد الشمال وموافقة السفير على قبول دعوته في مجموعة الشاليهات الفاخرة على شاطئ البحيرة .

وفي تلك البقعة الساحرة كان هناك مالا يخطر ببال من وسائل الترفيه والمتعة . وكان هناك نساء بلاد الشمال الساحرات .

ووصلت تعليمات الى « معاوية زغلول » بأنه بعد منصبه الرسمي الجديد سيكون هدفا لزيارة كبار المسئولين فى أوفريسيا وفى البلاد المجاورة . وكان المطلوب منه أن يتم الإنفاق عليهم بسخاء وأن جزء من المصروفات سوف يسدد له من حساب سرى رسمي وأن الباقى سيكون على حساب الوكيل .

كان المطلوب منه تصوير كل شئ على شرائط فيديو ترسل الى الرجل الكبير فى أوفريسيا . كل شئ ابتدأ من اللهو والمتعة إلى عقد الإتفاقيات إلى الصفقات والرشوة والعمولة .

وكانت أجهزة التصوير والتصنت معدة سلفا فى الفندق والفيللات والشاليهات التى يملكها .. ونجح فى عمله كما كان مأمولا فيه .

كان يوجه الرأى العام بل والحكومة بما يرسله من تحليلات سياسية واقتصادية عبر الصحافة والتلفزيون .

وكان وسيطا للمسئولين لعقد الصفقات والقروض . وكان سمسارا لعرض الرشوة والتفاوض بشأن العمولات .

إلا أن أعظم انجازاته كان مكتبة الفديو الهائلة التى كان « المايسترو » يحتفظ بها بنفسه فى مكان أمين .

كانت هذه الشرائط مفاتيحا لشخصيات الصفوة الحاكمة فى أوفريسيا وكان يكفى التلويح بأى شريط منها كى يصدر القرار الذى يريد « المايسترو » أن يصدر .

وكان معاوية زغلول مجرد نموذج واحد لمئات من الصفوة المنتشرة فى جميع أنحاء العالم وفى داخل أوفريسيا .

— ١٠ —

عندما استولى موسى الدهان على الحكم لم يكن المايسترو ـ الملك ـ يتوقع أن يستطيع المحافظة عليه أكثر من بضعة أسابيع . وإنه الآن يعترف لنفسه أنه إنخدع . كان كل انخداع إهانة لعقله . الا أنه مما يقلل حجم هذه الإهانة أنه تمكن من الحصول على تقارير عديدة للسفراء الأجانب الى دولهم تظهر أنهم وقعوا في نفس الخديعة .

الآن بعد عشرة أعوام من حكمه تختلف الآراء فيه . الا أنه ليس اختلافا جديا على أية حال . فثمة قلة من المعارضة لا وزن لها ولا قيمة ترى أنه أسوأ من حكم أوفريسيا طوال خمسة الآف عام . الغريب أن المايسترو رغم احتقاره البديهي للمعارضة وجد نفسه يتفق معها في الرأى . بل إن أرستقراطيته لم تستنكر إسفاف المعارضة ووضاعتها في مهاجمته . لقد كشفوا عشرات العلاقات الغرامية لزوجته ولم يكتفوا بهذا بل استطاعوا الحصول على صور لزوجته في أوضاع مشينة وبلغت سفالتهم حدا لا يطاق ـ لكن المايسترو أطاق ـ عندما نشروا صورة لمحضر قديم في أحد أقسام الشرطة في أوفريسيا عن التحقيق في واقعة شذوذ جنسي سجن فيها الفاعل وأفرج عن المفعول به فقد كان حدثا . وكان موسى الدهان .

كذلك تحدثت المعارضة عن سرقاته وسرقات أسرته ومعاونيه .

ولم تكن المعارضة بالطبع تجرؤ على نشر هذا داخل أوفريسيا وإنما كانوا يهربون المعلومات والمقالات للخارج حيث ينشر كل شئ في صحافة مأجورة تموّلها دول صغيرة في المنطقة .

كان المايسترو في ظرف يشمئز من طريقة المعارضة السافلة الوضيعة في التشهير . الآ أنه من جانب آخر كان يسخر في نفسه من ضآلة معلوماتهم ـ إن ما يعتبرونه كشفا مذهلا وسبقا يعرفه هو منذ سنوات . كان يعلم أن جميع ما ينشرونه حدث فعلا لكن ليس معنى ذلك أنه صحيح . فمثل هذه الأشياء تحدث منذ بداية الخليقة .... وتحدث وستحدث وليس الخطأ في أن تحدث . لكن

الإجرام أن تنتشر على الناس هكذا إن لكل إنسان عورة وليس عيبا أن يكون للإنسان عورة . لكن العيب الفاضح أن تُكشف هذه العورة أمام الناس .

ولو أن المقصود كان أى أحد آخر لبلغ استياء المايسترو حدا كبيرا .أما وهو موسى الدهان فإنه يستحق .

ولقد أخفى المايسترو دائما أنه بنفسه كان أحيانا وراء تسريب بعض هذه المعلومات إلى جبهات المعارضة .

إزاء كتلة شعب أوفريسيا كان حجم المعارضة لا يكاد يذكر. إلا أن أصوات هؤلاء الملاعين كانت عالية حقا . وكان يذكر تلك الحكمة الأجنبية العريقة أن الأسد يزأر نادرا أما الكلب الصغير فينبح دائما .

وإزاء هذه الجبهة الهزيلة للمعارضة كان العالم المتمدن كله يعتبر موسى الدهان أعظم حاكم لأوفريسيا منذ خمسة الآف عام . كانوا يطلقون عليه أسماء كثيرة وصفات أكثر. فهو الرئيس والزعيم والبطل والخليفة والمعلم والقائد والأب الروحى ورب العائلة وأبو أوفريسيا وأبو الأفريسيين وأعظم من أنجبته أوفريسيا والقاهر والظافر والمعتصم وسيف الله وأمير المؤمنين .

كان المايسترو يجيد فهم لغة العالم كما يجيد التحدث بها واستعمالها . كان يفهم أن اللغة ليست مجرد كلمات وجمل وحروف وأفعال وأسماء ولا حتى معنى هذا كله . كان يدرك أن اللغة تعبير عن أفعال مستترة . . أن الكلمات أرقام فى جداول لوغاريتمات . وأنها عمليات حسابية معقدة تتناول مصالح مشتركة ومتشابكة . أنها نوع من الشفرة السرية مثل التى تستعمل فى الجاسوسية . وأن كل كلمة تعني كلمة أخرى وأنه كلما ازداد تناقض الكلمة مع ماتعنيه حقيقة كانت الشفرة أشد نجاحا . وكان يدرك أن الدهماء والرعاع ومنهم المعارضة لا يدركون الآ ظاهر الكلمات . أما المعنى الحقيقى التى تكشف عنه الكلمات فلم تكن عقولهم القاصرة الجزئية مؤهلة لفهمها . كان عقله الكلى هو الوحيد ــ ربما فى أوفريسيا كلها ــ الذى يستطيع أن يفهم كل أبعاد اللعبة .

و برغم كل شئ فقد ظل المايسترو على رأيه القديم أن ذكاء موسى الدهان ذكاء منحط . إنه شديد اللمعان كالصفيح متعدد الألوان، كقطع البلاستك الملوّنة . . ولقد استطاع بكرنفال الألوان اللامعة أن يبهر العالم وأن يخدع الجميع لبعض الوقت ــ ماعدا المايسترو طبعا ــ وأن يستمر فى خداع الأغلبية حتى الآن .

والحقيقة أنه جدير بالاعجاب رغم كل شئ فقد استطاع فعلا أن يغير أوفريسيا . وأن يقلب

الخريطة الإجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية بها فى صدمات متعاقبة كصدمات الكهرباء .

لم يكن كما وصفته المعارضة أسوأ حاكم لأوفريسيا فى التاريخ . ولم يكن كما شهد له العالم أعظم حاكم لأوفريسيا فى التاريخ . وانما كان حاكما ككل حاكم كان قبله وككل حاكم سيأتى بعده . أجل .. ليس هناك حاكم أعظم وحاكم أسوأ فكلهم على كرسى السلطة سواء .

إن الفارق دائما لايكون فى الحاكم وانما فى طريقة تقديمه للآخرين وطريقة تصرفه أو على الأحرى قدرته على اخفاء نواياه الحقيقة وتغطيتها بأشياء أخرى تستهوى الرعاع أو تثير إعجاب العالم أو تشعل جمرات مختفية تحت رماد التاريخ أو تنير آمالا فى المستقبل . لكن خلف كل هذه المظاهر يقبع الجوهر الواحد المنفرد لكل حاكم .

كان المايسترو يراقب كل هذا . والحقيقة أن **موسى الدهان** قام بدور عظيم وفر على المايسترو وجهدا هائلا كان عليه أن يبذله لو لم يتولّ **موسى الدهان منصب الإمبرائيس** .

لكنه كان فجا . وكان يفتقد أحيانا الى الشئ الجوهرى الذى يجعل العظماء عظماء بأن يجيد التغطية على أعماله واخراجها بالجلال اللائق **بالامبرائيس** . لكنه فى بعض الأحيان لعب الدور بمنتهى المهارة .

ولقد نجح فى كسر شوكة الرعاع فى **أوفريسيا** وهم يمثلون الأغلبية الساحقة . لقد زلزل عقل الشعب بتصرفات غير منطقية كانت تفاجئ أعداءه وأصدقاءه على حد سواء وتفقدهم القدرة على التنبؤ بخطوته القادمة . ونجح فى أن يكوّن حوله حاشية واسعة مستفيدة بسلطاته . وكان يشجع كل واحد من هذه الحاشية أن يقلده ليكون له هو الآخر حاشية أصغر وأن يكون لكل واحد من الحاشية الأصغر حاشية أصغر وأصغر وأصغر وبهذه الحاشيات استطاع تكوين مؤسسة الحكم . وأن يربط مقومات حياة شعب **أوفريسيا** بهذه المؤسسة . وأن يسحق المعارضين سحقا كى لايبقى من الرعاع سوى عناصر هشة بلا قيمة وأن يتحول باقى الرعاع الى خدم للحاشيات لايفكرون إلا فى صراع البقاء .. مجرد البقاء ولو كحيوانات بائسة .

يذكر المايسترو السنة الثالثة لتولى **الامبرائيس** ، حينما كان فى الخارج يتابع خطواته وخطبة ومقالات **خنفس بوللى** والذى كان فى الحقيقة لسان **الامبرائيس** بعد أن أستطاع فى شهور قليلة الاستحواذ على ثقته بصورة مطلقة .

كانت خطب **الامبرائيس** بليغة . ولقد استطاع فعلا اشعال حماس **الأوفريسين** نحو مستقبل باهر يعيد لهم مجد تاريخهم القديم ولقد دغدغ حواس الدهماء وأشعل خيالهم ليس بالمستقبل فقط وانما بالحاضر أيضا . كان يصارح شعب **أوفريسيا** بأنه أعظم شعب فى العالم لكنه قد عانى الكثير

وأن حكامه السابقين قد ظلموه كثيرا . وأنه دفع حاضره دائما لقاء أخطاء حدثت فى الماضى أو أوهام للمستقبل . وأنه كإمبرائيس يرفض كل ذلك . لأن من حق شعب أوفريسيا أن يعيش حاضره . ومن حق كل أوفريسى أن يكون له ليس مسكنا فقط . وانما سيارة وشاليها يقضى فيه أيام عطلته ومن حق كل أوفريسى جهاز فديو وتلفزيون ملون وثلاجة وغسالة أوتوماتيكية . وأنه لا ينـاشـد أبناء أوفريسيا أن يعملوا لكى يسددوا أخطاء الماضى ولا لكى يدّخروا لأجيال المستقبل . وإنما أن يعملوا لكى يحققوا حلمه الكبير لحاضر شعبه العظيم .

وانتقد الامبرائيس بعنف جو القهر والكبت والدكتاتورية التى كانت سمة عصر الإمبرائيس السابق المجنون . وبشر الشعب بحياة ديمقراطية حقيقية تتعدد فيها الأحزاب وتجتهد الآراء المختلفة لإثراء حياة الفكر فى أوفريسيا . وأن ذلك وحده هو الكفيل بكشف الفساد والعفن الذى ورثه من الإمبرائيس السابق والذى تسلل ليس الى جذور السلطة فقط وإنما إلى قمتها . وعاهد الشعب فى انفعال أن يقضى على كل ذلك

ولقد برّ الإمبرائيس بوعده فعلا . وكان معظم شعب أوفريسيا معه . وجُنّدت أجهزة الامن للقبض على مختلف من سماهم الإمبرائيس بالخفافيش التى تمتص دماء أوفريسيا . تم القبض على كل المعروفين من تجار المخدرات وتجار العملة واللصوص الكبار الذين سماهم الامبرائيس بالكلاب السمان . ولقد كانت خطوة بارعة من الامبرائيس أن يكشف تورط وزراء عديدين ورئيسين سابقين للوزراء وقائد للجيش فى عصابات المخدرات وتزوير العملة والغش ، والحصول على عمولات ضخمة فى مشاريع وهمية أو حقيقية لكنها بلا قيمة للشعب .

وحوكم هؤلاء أمام محاكم خاصة أمر بتشكيلها حتى لا تعوق اجراءات القضاء البطيئة رغبته العارمة فى اعادة صياغة حاضر أوفريسيا . وصدرت الأحكام الرادعة ضد من تسببوا فى خراب أوفريسيا .. وكان الشعب يخرج فى مظاهرات صاخبة هاتفة بحياة الزعيم منددة برموز الفساد القديم معبرة عن استعدادها لافتداء الامبرائيس بروحها و بدمها .

وكان المايسترو يراقب كل هذا بمزيج من الانبهار والاحتقار والذهول . لقد غيّر موسى الدهان من لغة الحكام . كأنه غير جداول اللوغاريتمات . كان كل رقم يشير الى رقم آخر . الآن أصبحت الأرقام تعنى أرقاما أخرى غير الأرقام الأخرى التى كانت تعنيها أولا . كأنه قد غير الشفرة السرية المستعملة . وانه لفخر للمايسترو أن يذكر الآن أنه كان من القليلين الذين اكتشفوا «تغيير الشفرة» واختلاف معنى الكلمات . أدرك ما لم يدركه حتى أولئك المثقفون اللزجون الذين يدّعون معرفة كل ما دار و يدور وسيدور . والذين يُغرقون كل حدث وكل فعل وكل معنى فى أكداس هائلة من الكلمات والتحليلات معظمها بلا معنى . وكان هؤلاء المثقفون أول من أيدوا الامبرائيس منوهين بصدق حسه تجاه الفساد والديكتاتورية معبرين

عن استعدادهم الكامل لمؤازته وتأييده ومساندته ضد أعدائه الذين هم أعداء الشعب والحرية والمستقبل .

هكذا كان العباقرة يتحدثون . بينما كان المايسترو يدرك ماسيحدث فعلا حتى قبل أن يحدث . كان يدركه بذكائه . و بإدراكه أن ذكاء موسى الدهان لن يمكنه من التغطية بمهارة على خططه الحقيقية طويلا .

ولم يخدعه حتى قيامه بتغيير مناصب عديدة وضع فيها رؤوسا عديدة من المعارضة التى كانت مضطهدة من كل حاكم قبله . لقد أجاد اختيار أسماء لامعة لتشغيل مناصب قيادته عديدة . لكنه فى نفس الوقت أصدر قرارات سرية عديدة بتنظيم الاختصاصات سلبت من هذه القيادات ليس مجرد اختصاصها بل وحقها فى الإطلاع على المعلومات . لم تكن القرارات مكتوبة فى معظم الأحوال وإنما كانت شفوية تنفذها حاشيته المقّربة . وأُوكلت مهام المناصب القيادية إلى وكلاء . وكان هؤلاء الوكلاء يمثلون الصف الثانى للمسئولين الحكومين . لمن نَدَّدَ بهم موسى الدهان واعتقلهم لأنهم سبب خراب أوفريسيا . كانوا هم الصف الثانى الذى انتقل إلى الصدارة . كانوا يؤدون نفس أعمال الصف الأول السابق لكن ولاءهم كان للإمبرائيس الجديد .

وفى خضم هذه الانقلابات الشاملة كانت خطة المايسترو تحقق نجاحا رائعا .

كان الامبرائيس يعتقد أن ولاء المسئولين الجدد له . بينما كانت الحقيقة أن عددا كبيرا منهم كانوا من لابسى أقنعة المايسترو. وكان معظم الآخرين يدركون أن هناك قوة أخرى خفية خلف الامبرائيس هى التى تحكم حقيقة . وكان ولاءهم لها ، لأنها باقية والإمبرائيس زائل .

وكانت تكنولوجيا صناعة الأقنعة قد حققت تقدما مذهلا تطورها من شكلها العتيق فى البداية والذى كان يلزم معها كشف الوجه كل شهر على الاكثر لحلاقة الذقن والنظافة الى شكل آخر ونسيج آخر بلغ من دقته أنه عمل فيه حساب لشعر الذقن والشارب كى ينمو من خلال النسيج وأن تتم حلاقة الذقن كالمعتاد دون خلع القناع كما كان نسيجه يسمح أيضا للعرق أن يتفصد من خلاله .

— ١١ —

كان المقنعون يحققون نجاحا باهرا فقد كانوا محترفين يؤدون أعمالا كان يقوم بها هواة .

ولقد استطاعوا خلال اعوام قليلة أن يشكلوا السلطة الرئيسية فى أوفريسيا . و بعد خمسة أعوام من حكم الامبرائيس الجديد كانوا يشكلون نصف مجلس الوزراء و بعد عامين آخرين كان رئيس الوزراء وثلاثة أرباع مجلس الوزراء منهم .

لم يكن هناك قصاصة ورق يراها الامبرائيس تخفى على المايسترو وكانت المعلومات تصب فى قنوات شديدة الإحكام والتعقيد ولم يكن معظم المقنعين يعرفون بعضهم ولا حتى رئاساتهم . بل ولقد أمكن فى النهاية استغلال النوازع النفسية فيهم وشوق كل إنسان لأن يكون بطلا فأُدخل فى روع البعض أنهم أبطال يؤدون مهمة مقدسة لأوفريسيا وكان بعضهم يظن أن جهاز الاستخبارات هو الذى يكلفهم بذلك . ولم يكن ذلك عاريا من الصحة تماما فقد كان نائب رئيس هيئة الاستخبارات أحد المقنعين .

كان المايسترو يعتمد على ذكائه المذهل وعقله الكلى فى تحصيل المعرفة واستعملها ، وكان مُلمّا أيضا بمختلف اتجاهاتها من علم وفلسفة وأدب وفكر وحتى الفن لم يهمله . وإزاء ذكائه الخارق كان الكم المتوسط الذى يقرؤه يتحول إلى كيف مذهل . كماأن صداقاته المتعددة فى الداخل والخارج كانت تمكنه من لقاء الصفوة التى قد تساوى جملة واحدة ينطقونها عشرات الكتب .

وكان المايسترو يدرك أن عنق الإمبرائيس قد أصبح فى يده منذ فترة طويلة وأنه لو أراد عزله وسجنه وتعذيبه واتهامه بالخيانة العظمى لاستطاع . ولقد فكر فى ذلك فعلا لكنه استبعد الفكرة فورا .. فقد كان فى حاجة قصوى اليه . إنه يدرك أنه يهدم كل شئ وأنه سيصل بأوفريسيا فى النهاية للإنهيار. والحقيقة أن هذا ما يصبوا المايسترو اليه .. فبعد ذلك يستطيع أن يعيد تشكيل الجزيئيات المنهارة كى تكون أوفريسيا كما يشاء .

وكان المايسترو بعد أن بدأ خطته العبقرية الأخيرة قد أدرك أن الامبرائيس ليس هو أوقوى سلطة فى الدولة كما يظن الجميع رعاعا وصفوة .. وكان قد أدرك أن عين الامبرائيس هى محصلة عيون أتباعه . وأن أذنه هى محصلة آذان أعوانه . وأن رأيه يصاغ له من الآخرين . وأن المعلومات التى تصل إليه والتقارير التى ترفع له كلها أعدها آخرون . أنه يتحول إلى عنصر سلبى تماما فيتوقف عن الفعل ليأخذ موقف المتلقى . وفى مثل أوفريسيا فان أجهزة الأمن كفيلة بإقناعه أن **امنه مهدد دائما . وتتكفل أجهزة الإعلام بأن تضع فى يقينه أنه الملهم وأن أعداء أوفريسيا** فى الخارج يدبرون لاغتياله . وتتكفل أجهزة الاستخبارات باقناعه أن العناصر المعادية قد أرسلت متسللين وسط رعاع أوفريسيا وأنهم يتربصون به وأن عليه أن يأخذ حذره فى كل خطوة . وازاء تنافس غريزى وطبيعى عند البشر فقد كان كل جهاز من الأجهزة يحاول أن يثبت للإمبرائيس أهميته القصوى لأمنه وحياته . ولم يكن ذلك بسبب الغريزة وحدها . وإنما كانوا يعلمون أن وجودهم مرتبط بوجوده . وأنه لو جاء غيره فسيفعل مثلما فعل هو فى البداية وسيضيع الكثيرون على مذبح العهد الجديد بإسم القضاء على الفساد والقصاص ممن ساهموا فى خراب أوفريسيا التى كان يعلن دائما أنها وصلت الى الخراب فى أول عهد كل حاكم جديد . وكانوا يدركون أيضا أنهم ككل بنى آدم خطاؤون .. وأنه لو أتى حاكم آخر فلن يرحم خطيئتهم وسيرجمهم قبل أن يسأل عمّن بلا خطيئة . ولذلك كله فان الأمر لم يكن بالنسبة لهم مجرد عمل بل مسألة حياة وموت . وكانت حياتهم الحافلة بالمتعة والقوة والسلطة والحصانة التى رفعتهم حيث لا يسألون عما يفعلون جديرة بأن يدافعون عنها .

وترتب على ذلك أن هذه الأجهزة كانت لاتكتفى بكشف أعداء الامبرائيس فقط . بل كانت فى معظم الاحيان تخلق هؤلاء الأعداء خلقا وتقبض عليهم وتودعهم السجن . ولم يكن كل ذلك كافيا . فالأجهزة الأخرى تفعل هى أيضا ذلك . لهذا كان ضروريا أن يشكك كل جهاز فى الجهاز الآخر وأن يثبت للإمبرائيس أن الاعداء قد تسللوا اليه وأنه أصبح خطرا عليه !!

وكان طبيعيا إزاء كل ذلك أن يتحول الامبرائيس الى سجين قصر ذهبى لا يرى ولا يسمع شيئا بنفسه انما يرى ماتراه أعين الآخرين و يسمع ماتسمعه آذانهم .

كان الجميع يسعون للفوز به . فهو مفتاح كل شئ من وجهة نظرهم ولو ملكوه لملكوا كل شئ .

ولم تقتصر تلك الطريقة على أجهزة الأمن فقط بل تعدتها الى كافة المسئولين . لم يكن الوعى فى أوفريسيا قد ارتفع بعد الى ادراك أهمية العمل كفريق . وكان كل واحد من المسئولين يحاول أن يثبت للامبرائيس أنه الوحيد المخلص بينما الآخرون خونة وأصحاب منافع .

ولم يشذ المفكرون عن هذه القاعدة وإن كانت دوافعهم مختلفة . كان كل مفكر يجلس مع

الإمبرائيس كي يثبت له أنه هو الوحيد الذي يفكر بنزاهة وتجرد من أجل أوفريسيا وأن الآخرين جميعا مرتشون وخونة يتلقون دعما ماليا وعسكريا من الخارج .

كان المايسترو يدرك من بعيد أن كل مقابلة جديدة للإمبرائيس تزيد من تشويش عقله وفكره . كان الجميع كأجهزة إرسال متعددة تبث برامجها على نفس الموجة فتختلط الصورة على شاشة جهاز الاستقبال بصورة لاتبدو فى النهاية معها صورة ولا يسمع صوت .

وكانت فكرة المايسترو العبقرية أن الامبرائيس تحول بهذه الطريقة الى آلة صماء بكماء عمياء لاتملك من أمر نفسها شيئا . وأنه يمكن التحكم فى هذه الآلة عن بعد كما يشغل جهاز تليفزيونه بالريموت كنترول . إنه وحده بعقله الكلي وبإدراكه لأهمية العمل بروح الفريق الذى يوجهه بعقله يستطيع أن يفعل ذلك . أن يكون المصدر الحقيقى والخفى للسلطة . وأن يتمتع بنشوتها دون أن تقيده قيودها وإنه ليصاب بالدهشة من أن هذه الفكرة لم تراوده بهذا الوضوح قبل ذلك .. بل إنه لايعرف على وجه اليقين متى بدأت ومتى اختمرت فى ذهنه . لقد كانت موجودة بشكل ما قبل أن يدخل السجن . كان دائما يحاول أن يدفع الآخرين بصورة غير مباشرة الى ما يريدهم أن يفعلوه . لكن ذلك لايمكن أن يكون هو أساس الفكرة . كذلك لايمكن أن يكون أساسها تلك الفكرة المهزلية التى راودته فى السجن عن تولى المساجين للحكم كما لايمكن أن يكون أساسها أيضا فكرة الأقنعة التى واتته فى السجن . فقد كانت هذه الفكرة أساسا لكى يتخلص من السجن بعد أن تصاعدت قوة موسى الدهان بصورة خطيرة أصبحت حائلا بينه وبين الحرية . بل وحتى بعد خروجه من السجن فقد كان تسلله الى السلطة عن طريق المقنعين لتأمين نفسه وخلق جو مناسب يمكن أن يعاود فيه ممارسة نشاطه .

ولعل هذه الفكرة بدأت تختمر فى رأسه فى ذلك العام الذى قضاه فى الخارج بعد خروجه من السجن . إلاّ أنه كان اختمارا غامضا لايشى بعظمتها . كانت كقطعة لحم الجنين بلا شكل . وأخذ هذا الجنين ينمو ثم يشبه المايسترو تماما . و يبدو أنه استمر ينمو فى جزء داخله لكنه يجهله حتى واجهه فجأة وهو يقيم بقصره الفاخر فى تيفولى الجبل بالقرب من فندق أوفريستون الكبير .

كان ذلك بعد عام من عودته من الخارج . وكان قد دبر لعودته بحيث تتيح له أكبر قدر من حرية الحركة .

صاحب عودته حملة ضخمة فى الصحف تتحدث عنه وعن النجاح الذى حققه فى الخارج عندما هرب منذ خمسة وعشرين عاما من فساد الرئيس الأسبق وحاشيته التى كانت تطارد كل من ترى فيه معالم الذكاء . وكان عليه إما أن يقبل القهر بالتعاون مع تلك الأجهزة الخارقة فى مستنقع الخطيئة أو أن يهرب بنبله وشجاعته وطهارة يده ولسانه إلى الخارج . وهناك فتح الله عليه فكافأه بما يستحق وأقبلت الدنيا عليه ليصبح مليونيرا فى سنوات ثم بليونيرا بعد ذلك . وأنه لم

ينس وطنه يوما فقد كان يعيش دائما فى قلبه . وعندما انكشفت الغمة أخيرا عن الوطن بتولى الإمبرائيس موسى الدهان الذى قاد ثورة ضد الفساد والمفسدين بثت الطمأنينة فى قلب كل أوفريسىّ فقد دفعته وطنيته أن يترك حياته الرغدة فى الخارج كى يعود بأمواله الى أوفريسيا فشعبها شعبه وأهله وهم أحق باستثمار أمواله .

كانت الخطة معدة جيدا ولقد تابع تفاصيلها بنفسه فاختار أن يتقمص شخصية أوفريسىّ غامض كان الجميع يعرفون عنه أقل القليل فقد كان بليونيرا وكان تاجر سلاح . كانت مهنته تحتم عليه أن يكون غامضا . وكان المايسترو أحد القلائل الذين يعرفون أن هذا الرجل قد تم اغتياله منذ شهور هو وأفراد أسرته حين فُجّرت طائرته الخاصة فى الجو فوق المحيط الكبير فذهب فى بطون الحيتان كل أثر له .

وتم اعداد القناع بشكل تاجر السلاح فى اطار من السرية لم يسبق له مثيل فلم يعلم بها الا الخمسة الكبار من أعوانه فى أوفريسيا ، وثلاثة فقط من مجموعة الحكماء من أصدقائه العالميين كانت معرفتهم ضرورية حتى لا تتكرر محاولة إغتياله كتاجر سلاح .

وكان قد سبق الحملة الصحفية التى أشادت به ورحبت بمقدمة حملة اعلانات ضخمة مدفوعة الثمن شغلت صفحات كاملة من تلك الصحف عن مشروعات ضخمة ستقام فى أوفريسيا وعن فتح باب الاكتتاب المواطنين بها .

كان يعلم أن ربع قيمة الاعلان يحصل عليه الصحفى الذى يقدمه للصحيفة . واختار أسماء معينة كان يعرف أنها الدينامو المحرك والقوة الخفية . وقد حصل كل منهم مقابل تلك الاعلانات على عشرات الألوف . وبعدها أصبحت صحافة أوفريسيا ملك يمينه .

ولقد اندهش المايسترو للسهولة التى يمكن لأى واحد أن يستولى بها على الصحافة تماما . وبرغم يقينه الذى لم يتبدل بأنه لا يوجد شئ فى الدنيا بلا ثمن فقد كان يحمل نوعا من الاحترام للصحافة جعله يشك فى أن الاستيلاء عليها أمر شديد الصعوبة وعالى التكلفة بصورة قد لا تجعله اقتصاديا .. ..

كان المايسترو يستعيد ذلك فى حديقة قصره الفاخرة بتيفولى الجبل عندما قفز فجأة ذلك الجنين الذى كان نسيه . لم يعد بعد جنينا وإنما كائنا عملاقا عبقريا يشكل فكرة الاستيلاء على السلطة والتحكم فيها عن بعد .

وإنه ليتساءل فى دهشة ممتزجة بالحنق كيف لم تطرأ له هذه الفكرة قبل ذلك وأنه على أية حال يملك الآن خيوط اللعبة ، فلتكن أوفريسيا مسرح عرائسه الكبير .

— ١٢ —

رغم اقتناع المايسترو أن كل الامبرائيسيين سواء على كرسى الحكم فقد اضطر للاعتراف أكثر من مرة أن موسى الدهان يتولى الامبرائيسية بطريقة لم يسبقه إليها غيره .

كان يتصرف بطريقة بالغة الغرابة — والحماقة أيضا — وكان المنطق يوحى أنه سيفشل فشلا ذريعا لكنه كان يحقق نجاحا باهرا فى كل مرة وكانت تتبدى شجاعته الفائقة أحيانا فى قرارات رهيبة . وكان المايسترو يقول لنفسه أنها شجاعة الجهل وأنه يتولى الرئاسة بأسلوب إرهابى استولى على طائرة واضطر لقيادتها دون أن يعرف أصول القيادة .. وإن مثل هذا الإرهابى سيقوم بمناورات ومغامرات شديدة الخطورة لكنها لا تخيفه لأنه لا يدرك عواقبها . فضلا على أن هذه المناورات قد يعجز أمهر المحترفين عن تقليدها ... فقط لأنه يعرف خطورتها .

ولقد فكر المايسترو بعد أن قويت شوكته ونجحت خطته فى التحكم فى السلطة أن يعزل الامبرائيس ، لكنه سرعان ما صرف نظره عن الفكرة فقد كان موسى الدهان يحقق فى هذا الوقت كل ما يصبو إليه . كان يحطم كل شئ و يصل بأوفريسيا الى خراب حقيقى ، وانهيار كامل وكان ذلك فى صالح ما يعتمل فى عقل المايسترو من خطط للمستقبل .

كان يضايق المايسترو وأتباعه بعض القصور فى الأقنعة التى يلبسونها .

وأخذ المعمل يطور فى هذه الأقنعة حتى وصل الى درجة مذهلة من الاتقان وأصبح من الممكن نظريا على الأقل أن يلبس القناع الى الأبد دون الحاجة الى تغييره ولو مرة واحدة .

برغم أن المايسترو لم يكن يخشى فى الواقع شيئا الا أنه لم يكن ينكر فى داخله أنه سيشعر ببعض التوتر فى اللقاء الأول مع موسى الدهان ، كان يدرك أنه لقاء حتمى ، فلم يكن الامبرائيس ليترك أغنى أغنياء أوفريسيا دون أن يوطد علاقته به إن لم يفرض اتاوته عليه .

كان طبيعيا أن يأتي اللقاء الأول سريعا فى عيد أوفريسيا القومى . ولأن عدد المدعوين كان يتجاوز الألف مدعو فلم يتسع الوقت من مصافحة عاجلة مع الامبرائيس . الا ان هذه المصافحة العاجلة كانت كافية لكى تبدد توتر المايسترو فلم يبد على الامبرائيس أى شك .

تعددت لقاءات المايسترو والإمبرائيس بعد ذلك . وكان المايسترو يدرك أن عليه هو إتخاذ الخطوة الأولى لأنه لو ترك الحركة الأولى للامبرائيس فسوف تكون هذه الحركة عدائية ، فقد كان هذا هو المتبع فى أوفريسيا . يتحرش المسئول الكبير بشخص ما ثم يبدأ مساومته . ولم يكن المايسترو يريد أن يترك موسى الدهان يساومه . كان يريد أن يعطيه ما يريد فى الوقت الذى يريده .

وأتت الفرصة سريعا عندما طلب المايسترو من فيروز العسال أن يأمر وزير الشرطة ــ وكان من رجالهم المقنعين ــ أن يوحى للإمبرائيس بتوجيه دعوة للمايسترو فى احدى الحفلات الخاصة التى لا يحضرها سوى عدد محدود والتى لا يتقيد فيها الإمبرائيس بقواعد البروتوكول التى تحدد تصرفاته بما يليق بمنصبه من جلال .

بذكائه الفطرى وسرعة بديهته إستطاع المايسترو أن يواجه الحديث الى موضوع كان الرأى العام مهتما به عن هروب محتال استطاع أن يقترض عشرة ملايين اوفريس من البنوك دون ضمان رغم صدور قرار من النيابة بمنعه من السفر . وتعددت الآراء حول الجهة المسئولة عن هروبه رغم المراقبة .. والتقط المايسترو كلمة من الحوار حول تسرب المعلومات من الأجهزة الحكومية نظرا لتفشى الفساد بين الموظفين مما يعوق كثيرا عمل أجهزة الرقابة والأمن التى كانت تفاجأ عندما تراقب شخصا أو هيئة أو مؤسسة بكل أسرار المراقبة لدى من تراقبونه . وأخذ كل واحد من الحاضرين يدلى بدلوه فى الحوار فاقترح البعض إجراء تغييرات حاسمة فى رؤساء أجهزة الرقابة واعترض البعض مقررين أن الخلل فى الموظفين أنفسهم وليس فى الرؤساء وأن تغيير الرؤساء سيهز الاستقرار فى أوفريسيا . وأمن الإمبرائيس على ذلك بقوله أنه اندهش عندما قدمت له إحدى الهيئات الرقابية تقريرا يتلخص فى ضرورة تغيير ٩٨ ٪ من كبار المسئولين والموظفين إما لثبوت انحرافهم أو لوجود شبهات عليهم .

وعلّق رئيس الجيش قائلا :

ــ إنهم خونة ياسيادة الإمبرائيس .

و ينظر الإمبرائيس اليه باهتمام فواصل :

ــ إن الرعاع والغوغاء أنفسهم لو نجحوا ــ لا قدر الله ــ فى تولى الأمور فى أوفريسيا لما غيروا هذه النسبة .. فلو تم ذلك لانهارت أوفريسيا تماما .. إنهم يتآمرون لقلب نظام الحكم . وفجأة انفجر وزير المحليات ضاحكا فنظر اليه الجميع فأومأ الى وزير الشرطة وهو مستمر فى الضحك قائلا :

٩٨٪ .. لابد أنه كان رئيس هذه اللجنة ...

ضحك معظم الحاضرين للنكته . فقد كانت أوساط المعارضة الخبيثة تسمى وزير الشرطة «٩٨٪» كناية عن نتيجة أى استفتاء أو انتخابات تجرى فى عهده .

احتقن وجه وزير الشرطة وهو ينظر الى الإمبرائيس فى استغاثة لكنه لم يُعِرْه اهتماما . أو لعله تصنع ذلك كى لا يستمر الحديث فى هذا الموضوع بما يكتنفه من حرج . ولم يتمالك وزير الشرطة نفسه إزاء إهانة وزير الحليات واستهانة الإمبرائيس فانفجر صارخا فى وزير الحليات :

أنت سافل وكلب .

ذهل الجميع لخروج وزير الشرطة على آداب اللياقة فى حضور الإمبرائيس .

نظر وزير الحليات إلى الإمبرائيس ثم قلب نظره بين الحاضرين فى مرارة وتعال ثم قال :

لقد تسللت أخلاق الرعاع الى قلب الصفوة الحاكمة .

وازداد هياج وزير الشرطة وهو يهب واقفا مستمرا فى صراخه .

أنت منحط ووسخ .. إن لم يؤدبك الكلام فسوف أفعصك بحذائى كصرصار . أتظننى لا أعرف أصلك وفصلك يابن الكلب . يابن الحرام يا(. . . . .) .

إشتعل الجو اكثر بغضب الإمبرائيس الذى اعتبر ان جرآتهم أمامه تحقير له . صرخ فيهما أن يصمتا . خيم الصمت الثقيل . ثم قام الامبرائيس وغادر المكان .

فى لحظة واحدة . كالكمبيوتر ، جرى المايسترو مليون عملية فى خلايا .... نهض مسرعا ليصاحب الامبرائيس كان المايسترو يدرك أن الامبرائيس ـ كل امبرائيس ـ يحتاج دائما الى تقديس ذاته . فلعب على هذا الوتر واكتسب عطف الامبرائيس فورا . استنكر بعد ذلك بشدة موقف وزير الشرطة ،إلا انه لفت نظر الامبرائيس إلى الوجه الآخر لما حدث . فهو على أية حال فى مصلحة نظام الحكم . إن حدوث التوتر والانفصام والبغضاء والتشاحن بين الوزراء أمر ضرورى لاستقرار الحكم . إذا يجب أن يكون إيمان الجميع بأن الإمبرائيس هو حصن الأمان الوحيد . وأن ...ب منه ، ومنه وحده هو السبيل الوحيد للاحتفاظ بمكانه فى عجلة السلطة الدوارة .

كان المايسترو يراقب الإمبرائيس وهو غارق فى صمته مثل كمبيوتر بدائى تراكمت عليه عمليات حسابية صعبة . وكان يدرك أن الإمبرائيس يحاول أن يفهم شفرته فى الحديث . ولم يعط له فرصة للتفكير فوضع يده فى جيبه وأخرج شيكا وهو يقول :

— إننى أعرف حرصكم على أموال الشعب . وحيث أن إنشاء هذه المؤسسة سيتكلف كثيرا فقد كتبت تحويلا مصرفيا باسم سيادتكم الشخصى على البنك الرئيسى فى بلاد الشمال . انه بعشرة ملايين أوفر يس وهو مبلغ كاف للبدء بإنشاء مؤسسة الرئاسة .
ضاقت عينا الإمبرائيس من جديد وهو يسائله فى قلق :

— ولماذا كتبته باسمى الشخصى .

كانت اجابة المايسترو جاهزة على الفور بأن هذه الأمور تقتضى أقصى درجات السر ية وأنه لو كتبه باسم الخزانة الأوفر يسية فسوف ينكشف السر .
و بدا فجاة أن الافبرائيس قد حل سر شفرة كلمات المايسترو وعندما قال له :

— بدلا من اسمى أفضل أن يكون هذا الحساب برقم سرى لا يعرفه الا أنا وأنت .

وابدى المايسترو ترحيبه بذلك بل وأثنى على ذكاء الإمبرائيس الذى وصل لهذه الفكرة التى لم تخطر بباله .
شعر المايسترو برعب حقيقى والإمبرائيس يقول له :

— رغم أننى لم أعرفك الا منذ وقت قليل بعد عودتك لأوفر يسيا إلا أننى أشعر أنك قر يب جدا منى .. وكأننى أعرفك منذ عشرات الأعوام .. يجب أن تكون قر يبا منى دائما . أنت تمثل عقلا أحتاج اليه وتحتاج أوفر يسيا اليه .

تمتم المايسترو فى خضوع بكلمات ثناء وشكر للإمبرائيس واستأذن فى الانصراف فأذن له .
قبل أن يغادر المكتب فوجئ بالإمبرائيس يناديه . شمله القلق مرة أخرى لكن الامبرائيس قال :

— تكفل أنت بمصالحة الوزيرين .

— ١٣ —

كان العداء بين وزير الشرطة ووزير المحليات فى أوفريسيا عداء تقليديا . فقد كان وزير الشرطة دائما كقطعة الإسفنج ويوضع فى مواجهة الرعاع لينفذ فلسفة السلطة التى كانت تدرك تماما أن هؤلاء الرعاع مجرد كائنات هزيلة منحطة وضعيفة وجبانة . وأنها يجب أن تُحَجَّم دائما لا بالإقناع والمنطق بل بالقوة والقهر . وكانت حلقة مفرغة . فقد كان القهر يدفع الرعاع للإستكانة .. وكانت إستكانتهم تدفع وزير الشرطة لمزيد من إرهابهم . لكن هذه الحلقة لم تكن تستمر فى اتجاه واحد . فقد كان شعب أوفريسيا الذليل الراضخ يخفى بإستكانته تيار العنف المتفجر عند أول بادرة . كانت العدوانية المدمرة عنده قرينة للقهر الذى يناله . وكان التخريب والعنف هو لحظة انفجار حقيقته الحيوانية الكامنة فى سكونه الظاهرى ولم يكن لهؤلاء الرعاع أية ضوابط خلقية . كان السوط والخوف ضابطهم الوحيد . فاذا اهتز هذا الخوف لحظة — بسبب حماقتهم وعدم تبصرهم بالعواقب أو بسبب تراخى السلطة — تنفجر نفوسهم الوضيعة فى عنف مدمر ينهب كل ماتطوله أيديهم و يدمر الباقى فى تشف وحقد لا يعرفان الارتواء .

. وفى هذه الأحوال كان على وزير الشرطة أن يواجه الرعاع بمزيد من العنف والا اجتاحوا كل شئ وكان يفعل ذلك لأنه مقتنع بأن هؤلاء الرعاع لا يفهمون سوى إسلوب القهر والتنكيل والإذلال . فضلا على أن هذا الأسلوب هو الوحيد الذى يكفل له الاحتفاظ بمقعده فى الوزارة . وكان ذلك ينجح فى معظم الأحوال . الا أنه كل بضعة سنوات كان لا ينجح وهنا كان الإمبراطيس يحوله الى قطعة من الأسفنج تمتص غضب الناس و يتحول هو إلى نبع للرحمة .. وكان يترتب على ذلك أحيانا إقالة الوزير وأحيانا سجنه — لكن ذلك لم يكن يحدث إلا نادرا . أما ما كان يحدث فى الغالب فهو تغيير وزارى محدود يخرج فيه وزير المحليات من الوزارة . و يشغل وزير الشرطة مكانه . وعادة كان يظل وزيرا للمحليات حتى نشوب عنف آخر للرعاع لا يتمكن

وز ير الشرطة من كبحه فتتغير الوزارة مرة أخرى و يعين وز ير جديد للشرطة و يشغل كرسي وز ير المحليات .

كان وز ير المحليات ينظر إلى وز ير الشرطة على أنه اغتصب مكانه وحقه . وكان وز ير الشرطة ينظر إلى منصب وز ير المحليات على أنه مآله وعقابه . لذلك كانت العلاقات متوترة دائما بينهما . توتر تاريخي لا يقتصر على أفراد .

لم يتدخل المايسترو مباشرة لمصالحة الوز ير ين . كان وز ير الشرطة أحد رجاله المقنعين ولم يكن يعرف المايسترو فقد كان يعرف فيروز العسال فقط . ولقد عبّر المايسترو لفيروز العسال عن استيائه الشديد لتصرّف الوز ير البذئ واستعماله تلك الألفاظ الوقحة فى حضور الإمبرائيس . انه بهذه الطر يقة يمكن أن يكشف عملية الأقنعة كلها فليس متصورا فى إطار دراسة الشخصية الحقيقية التى يقوم الوز ير المقنع بدورها تلك التصرفات الطائشة . لقد نَسِيَ الأحمق نفسه تماما وخرج عن الإطار المرسوم لتصرفاته ، ليتصرف بحقيقته القديمة كزعيم عصابة لتهر يب المخدرات ، رشحه أحد المقنعين ليقوم بدور مسئول كبير بوزارة الشرطة. تم تدر يبه بالطر يقة الفذة التى لاتغادر صغيرة ولا كبيرة . الصوت والحركة والايماءة واللوازم والعادات . طر يقة لم يكن يستطيع معها اكتشاف الحقيقة سوى أقارب الدرجة الأولى . وكان يتم اختيار من سيقوم المقنع بدوره من الشخصيات المعروفة بعلاقاتها المحدودة . كانوا يبحثون عن ذلك المسئول الذى ينطبق عليه القول الشائع فى أوفر يسيا أنه مقطوع من شجرة . كانت عملية مجهدة وشديدة التعقيد . كانت نسبة من يصلحون للدور بعد البحث المبدئى ٥٪ فقط ممن يرشحون . وكان الترشيح النهائى يعنى عدم امكانية التراجع بعد مصارحة الطرف الآخر بالدور الذى سيقوم به . كان التدر يب يستغرق عاما على الأقل . وكان يتم التخلص من المسئولين الذين يقوم المقنعون بدورهم كل طبقا لأحواله وتفاصيل حياته .

بهذه الطر يقة تحول محمود أمين سليمان زعيم العصابة الخطير الى شخصية المسئول الكبير. وتكفله نائب الوز ير الأول بالرعاية مع تدخل أشخاص عديدين كانوا يعملون لحساب المايسترو حتى تم تعيينه وز يرا للشرطة . تم عمل حساب كل شئ . لكن هذا الأحمق كاد يكشف نفسه فى لحظة انفعال وغضب . كان المايسترو يدرك جيدا أن الكمال لاوجود له . وكان يحاول باستمرار علاج سلبيات عمليته الفذة . ولقد اضطر أحيانا أن يأمر بقتل بعض المقنعين عندما مثلوا خطورة على عمليته .

كان كل هذا يدور فى ذهن المايسترو وهو يطلب من فيروز العسال أن يوبخ وز ير الشرطة على ما بدر منه وأن يأمره بالاعتذار للامبرائيس ولوز ير المحليات بصورة تنهى المشكلة بصورة نهائية وقال فيروز العسال للمايسترو.

ــ الحقيقة أنه برغم نجاحنا المذهل فإن هؤلاء المقنعين يمثلون أحيانا خطورة هائلة علينا

جميعا. إن محاولة قولبه المسئولين الحقيقيين أسهل كثيرا. انهم يتفاهمون و يتفهمون بسرعة. ومن ناحية المبادئ العامة فهم قادرون على أداء كل مايقوم به المقنعون بعد تجهيز برنامج معين.لتدر يبهم . ومن ناحية أخرى فان الميزة الهائلة لهم أنهم لن يعرفوا أى شئ عن تفاصيل العملية المذهلة مما يعني أيضا أن سقوط أى منهم لا يشكل خطورة .

كان فيروز العسال واحد من الخمسة المقربين الى المايسترو والذين يعرفون الحقيقة كلها . وكان فضلا على ذلك أقربهم الى قلبه . ولم ينسى المايسترو أنه فى السنوات الأولى كان هو المحرك الرئيسى ومورد المعلومات الوحيد فى كثير من الحالات . كان شديد الذكاء هو الآخر. ولقد فهم فكر المايسترو كمنهج وليس كخطة . لذلك كان قادرا دائما على التصرف حتى دون الرجوع الى المايسترو. لقد أدرك أن كل شئ هو فى الواقع بناء . حتى الانسان نفسه بناء . كذلك الثقافة والمجتمع والسياسة والعلوم النظرية والعملية كلها عبارة عن أبنية متكاملة الا أن كل بناء يضم داخله أبنية أخرى تضم بالتالى أبنية أخرى . كان قادرا بذكائه على الإستمرار فى التحليل حتى يصل الى أساسها المُكوَّن من جزئيات ذات علاقات متشابكة محددة. وأن هذه العلاقات التى تمنحها وظائفها المتميزة والمنفردة . وأنه اذا أمكن التدخل بتغيير هذه العلاقات المحددة لأمكن تغيير الوظائف أيضا . وأنه يمكن بنفس الجز يئيات أن يبنى بناء أفضل وأكثر فائدة وأرقى وظيفة . فقط يلزمنا أن نكشف العلاقات الموضوعية التى تربط بين الجزئيات ثم اعادة تركيبها فى بناء كلّى جديد يكون أرقى من البناء السابق وأكثر تقدما . وكان يتذكر أفكار المايسترو دائما ويحاول أن ينميها داخله . وإنه مايزال يذكر أن أحجار سجن أوفر يسيا الكبير هى نفسها أحجار فندق أوفر يستون الفاخر.

ولقد إقتنع بمنطق المايسترو ألا يكون له مذهب أبدا . ألا يتقوقع فى فكرة معينة يكون حبيسها . ذلك كل فكرة وكل مذهب مايلبث أن ينغلق على نفسه كى يكون جامدا وغير مرن ثم يسقط . كان مايحتاج اليه هو فكر مفتوح قابل لكل تطور دون أن تنهار بنيته الأساسية وأى جنس وأى مهنة وأى فكر. كانت هذه هى المعضلة العقلية التى حلها المايسترو بعبقرية . أن يصل الى منهج يمكن أن يتوافق مع أى ظروف وأى أفكار وأى واقع فى الحاضر وفى المستقبل . كان يشبه تلك الاجهزة الإليكترونية المعقدة التى كانوا يتركون فيها أماكن محددة لإضافات غير محددة قد يكتشفها العلم فيما بعد . كانت الميزة الكبرى لفيروز العسال أنه فهم كل ذلك . ولم يقتصر على الفهم . بل تفاعل معه حتى أصبح جزء من نسيج وجوده .

كان المايسترو يدرك مسبقا مايفكر فيه فيروز العسال . لأنه هو نفسه كان قد فكر فيه ووصل الى نتيجة محددة . و برغم أنه يعرف فقد سأله كى يظفر بتلك النشوة التى يشعر بها عندما يعرف أن هناك انسانا آخر فى هذا الوجود يفكر كما يفكر .

— ما هي اقتراحاتك بالنسبة للمقنعين . كان فيروز العسال يعرف أن المايسترو يعرف ماسيقوله وأنه موافق عليه فأجاب :

— لقد أعطتنا فكرتك العبقرية عن المقنعين كل ما نرجوه منها ، وآن لها أن تتوقف . إن مخاطرها أصبحت أكثر من نفعها فضلا على أن التطور الإجتماعي والسياسي والأقتصادي في أوفريسيا قد قرّب كثيرا من المسافة بين المقنعين والمسئولين . إنه نفس الفارق بين الاحتراف والهواية في نفس اللعبة . المسئول كالنشال المبتدئ الذى يبيع مجوهرات قيمتها ألف أوفريس بمائة أوفريس . المحترف ينتظر حتى يضارب عليه ليبيعه بألفين !!. الا أنه بالتدريب العلمي سرعان مايتحول الهاوى الى محترف .

قال المايسترو

— إنى أوافقك

فأردف فيروز

— لذلك أقترح التوقف عن إنشاء مقنعين جدد ومحاولة تصفية عدد من الموجودين الذين يمكن الاستغناء عنهم بمسئولين حقيقيين .

قال المايسترو.

— لامانع من وقف عملية المقنعين إلا في ظروف خاصة أوافق عليها أنا .

ـ ١٤ ـ

فى خلال أسبوعين كان الامبراتيس قد اطمأن على ايداع العشرة ملايين أوفريس فى حساب سرى خاص له فى البنك الرئيسي ببلادالشمال. وبعدها ظلت علاقته تتوطد بالمايسترو. وفى خلال سنوات قليلة كان المايسترو وهو أقرب أصدقائه وأحبهم إلى قلبه. كان المايسترو يقوده فى الإتجاه الذى يريده. فكان يطرح الموضوع وبعبقريته الفذة وعقله الكُلّى يدفع الحوار فى مسارات تصل بالإمبراتيس إلى تقرير ما كان المايسترو يريده منذ البداية. كان الإمبراتيس هو الذى يقرر. وكان المايسترو يبدى اعجابه بذكاء الإمبراتيس الفذ. وكان ذلك يدفع الإمبراتيس إلى التصميم على قراره. وكان هذا القرار فى كل الأحوال ما يريده المايسترو فى البداية والنهاية.

تفاصيلها وخطوطها الدقيقة. وكان يدفع الإمبراتيس كما لو كان يقوده بالريموت كنترول كى ينفذ تفاصيل الخطة دون أن يدرك الترابط بين مختلف الأفكار التى يعرضها المايسترو عليه كى يتخذ فيها قراره. كان عقل موسى الدهان لا يستطيع إدراك إلا ما هو على السطح. المعنى المباشر والظاهر للأشياء. لم تكن نوعية عقله بقادرة على فهم أن ما يبدو فى ظاهر الأشياء ليس له معنى ثابت. وأن معناه يتحدد فقط بربطه بالعلاقات الحقيقية المتخفية خلف الظواهر.

يحلو للمايسترو كثيرا أن يستعيد ذكريات الأعوام العشرة الماضية. وكان يُحسّ فى تذكر علاقته بالإمبراتيس بشبق. كان أحْلى انتصاراته وأمتعها.

فى العام الثانى لعلاقته بالإمبراتيس قاده إلى أن يقرر تنويع مصادر السلاح للجيش الأوفريسى. كان هذا هو ظاهر القرار. فالحقيقة أن مصادر السلاح كانت متنوعة قبل ذلك. لكن تقليدا كان قد جرى فى عصر الامبراتيس السابق أن يتم استيراد نظم عسكرية كاملة عن طريق اتفاقيات دولية وليس عن طريق شركات السلاح مباشرة. والحقيقة أنه كان للاتفاقيات الدولية مزاياها فى

ضمان الدوله الموردة وانتظام الصيانة . إلاّ أنه كان يترتب على هده الطريقة فى استيراد السلاح إستغفالا كبيرا للمسئولين فى أوفريسيا . كان المسئولون فى أقل القليل من هذه الدول غير مرنين . كانوا مصابين بنوع من الخلل العقلى والنفسى يجعلهم عزوفين عن المكسب. كانوا وجه فقر ولم يكونوا يسببوا للمايسترو سوى الغيظ من حماقتهم. أما أكثرية الدول فقد كانت تسبب للمايسترو جرحا فى كرامته وكبر يائه . فقد كانت حكومات هذه الدول تحصل على عمولة سخية من شركات السلاح مقابل أن تبرم هذه الدول اتفاقيات تصدير السلاح لأوفريسيا . ورؤساء وملوك ورؤساء وزارات ووزراء ومسئولين كبار كانوا يحصلون على عمولات ضخمة . أما بالنسبة للأوفريسيين فلم يكونوا يحصلون على شئ . كانت عملية نصب واحتيال تتم تحت مظلة الاتفاقيات الدولية كان المستفيد فيها الشركة المنتجة وحكومة الدولة المصدِّرة .

لم يكن لدى الامبرائيس خبرة باستيراد السلاح . وسأل المايسترو:

— وهل يمكن لنا كدولة أن تستورد السلاح من الشركة المنتجة مباشرة .

وأجابه المايسترو:

— بالطبع ممكن .

وسأل الامبرائيس :

— وفى هذه الحالة من يحصل على العمولة ؟

— من يقوم بالاستيراد .

غيّر الامبرائيس موضوع الحديث .

كانت تسعد المايسترو كثيرا طريقته الطُّفولية الساذجة فى محاولة اخفاء مابداخله . ولم يكن ينهى الحديث بهذه الطريقة إلا إذا كانْ قد اتخذ قرارا لا يريد أن يكشفه للمايسترو. وكان يسعد المايسترو كثيرا أنه هو الذى دفعه لاتخاذ هذا القرار الذى يخفيه الآن عنه .

فى الأسابيع التالية عرف المايسترو أن الإمبرائيس قد استصدر قرارا من مجلس الأعيان بتفويضه فى عقد صفقات الأسلحة .

وصاحب التفويض قدر كبير من التبجيل والإجلال للإمبرائيس الذى يسهر على أمن أوفريسيا وقوةْ جيشها .

بدأ خنفس بوللي يتمجيد هذا القرار في مقاله الشهير « ختام الإنغلاق » والحقيقة أنه قدّم الموضوع الى الشعب الأوفريسي أعظم تقديم .
فلقد أوضح فى مقالاته المتتالية كيف تتمكن الدول الأجنبية من السيطرة على مقادير أوفريسيا عن طريق استيراد الأسلحة بالصفقات بين الدول . وكشف ببراعة عن تحكم هذه الدول فى كميات ونوع السلاح الذى تُصدّره لأوفريسيا طبقا لموازنات دولية مما يجعل أوفريسيا ريشة فى مهب الريح تتحكم فيها الموازنات العالمية لاظروفها المحلية وصراعاتها الاقليمية مع أعدائها. هذا من ناحية . أما الناحية الأخرى الخطيرة فهى أن الصفقات مع الدول مرصودة دائما ويمكن لأى مخابرات مبتدئة أن تعرف كل تفاصيل الصفقة وأنواع الأسلحة وقدراتها مما يجعل الأمن القومى لأوفريسيا مستباحا أمام الأعداء .

وبعد خنفس بوللى تبارى الصحفيون فى ابراز عظمة القرار . وكتب الصحفى الكبير ونيس الخربوطلى أنه بالاضافة الى وجاهة ماقاله خنفس بوللى فان استيراد السلاح عن طريق الدول كان يتيح لهذه الدول نفسها ابتزاز أوفريسيا والنيل من ارادتها مقابل صفقات السلاح . وأننا كُنّا ندفع ثمن هذا السلاح مرتين . مرة بالمال والمرة الأخرى من إرادة أوفريسيا.

وأضاف الكاتب المشهوربوخليل المسعودى فى مقال طبق الأفاق بعنوانه الشهير : « بل كنا ندفع الثمن ثلاث مرات » وضح فيه أننا بالاضافة الى ماسبق كنا ندفع الثمن مرة ثالثة عندما تفرض علينا الدول المصدرة للسلاح من نحارب ومن نسالم . وبهذا كنا لانحارب إلاّ أعداء تلك الدول .

وأخذ صحفيون آخرون يكتبون و يكتبون حتى اصبحت الفترة الماضية لشراء الأسلحة عارا يوميا يُتَنَدَّرُ به على فساد الإدارة وقصور النظر كان كفيلا بأسوأ العواقب لاوفريسيا لولا نظرة الامبرائيس الثاقبة.
وكانت الخطوة التالية هى هجوم ساحق شنته الصحف على كبار المسئولين والذين لم يقوموا بأداء واجبهم على الوجه الصحيح . وأنه ليس معقولا ولامقبولا فى دولة لها حضارة أوفريسيا وعمقها التاريخى فى الحضارة أن يفكر الامبرائيس فى كل كبيرة وصغيرة .
تلى ذلك تغييرات واسعة فى قوات الدفاع شملت قائد الجيش ورئيس أركانه وقادة الأفرع وعين مكانهم قادة جدد يدركون حجم المسئولية الملقاه على عاتقهم .
وأثبت الامبرائيس مرونة رفعته كثيرا فى عين المايسترو عندما لم يلتهم اللقمة السائغة وحده. بل أشرك معه عددا كبيرا جدا من المسئولين فى أوفريسيا ومعظم القادة المهمين فى الجيش حقيقة أنهم كانوا يحصلون على فئات من العمولة . إلاّ أنها كانت كافية لتجعلهم يحسّون أنهم مشاركون فى الحكم من ناحية وأن تجعلهم يعيشون دائما أسرى القلق من انكشاف ماحصلوا عليه ، خاصة أنهم لم يكونوا واثقين من تورط رؤسائهم المباشرين أو قائدهم الأعلى معهم .

وفي هذه الفترة قام معاوية زغلول بدور وطني عظيم لصالح أوفريسيا . كان المايسترو قد حث الإمبرائيس عنه كأعظم أوفريسي في قطاع السياحة في العالم . وأنهم يمكن أن يستفيدوا من وضعه في الخارج حتى بدون أن يشعر معاوية زغلول نفسه . وتم تنفيذ الفكرة بنجاح كامل . كانت اللجان الرسمية من كبار المسئولين وضابط وزارة الدفاع تذهب الى مختلف بلاد الدنيا لفحص واختيار أنواع السلاح . وكان يُعقد لهذه اللّجان اجتماع بقطاع المخابرات قبل السفر. كانوا يُنبّهون لنقاط عديدة أهمها احتياطات الأمن والسرية كي لاتتسرب أسرار الصفقات الى شركات أخرى مما يؤثر على تعامل أوفريسيا معها أو الى جهات معادية تسربها بدورها الى العدو. وكان التنبيه الأخير أن تتم هذه الصفقات بقدر الامكان في سفارات أوفريسيا في الخارج أوفي منشآت معاوية زغلول في بلاد الشمال .

وفي خلال أعوام قليلة . كانت ٩٨٪ من صفقات السلاح تتم في منشآت معاوية زغلول . وكان يتم تسجيل كل شئ بالصوت و بالصورة . كل شئ . تفاصيل المفاوضات . العمولات التى تمنح لأعضاء الوفد مقابل التغاضي عن بعض الشروط والمواصفات . قيمة هذه العمولات وهل ستودع في داخل أوخارج أوفريسيا وكيفية تسلمها .

ولم يقتصر التسجيل على ذلك وإنما امتد لما كان يدبره لهم معاوية زغلول من سهرات صاخبة ونساء فاتنات .

لم يزد على معاوية زغلول الا أنه كلف بأن يُعِدّ أربع نسخ من الشرائط . كانت النسخة الأصلية تُحفظ في الخارج في مكان لايعرفه إلا المايسترو. وكانت النسخة الثانية يحتفظ بها معاوية زغلول نفسه . وكانت النسخة الثالثة للمايسترو في أوفريسيا . أما النسخة الرابعة فكانت للإمبرائيس عند اللزوم .

كانت النسبة المعروفة للعمولة على الأسلحة هي ٢٠٪ تصل للامبرائيس شخصيا . ولم يكن الإمبرائيس يعلم أن هناك نسبة ٣٠٪ أخرى توزع على سماسرة السلاح في الخارج وأن المايسترو كان يحصل منها على نصيب الأسد . وكانت تنقص من هذه النسب جزء ضئيلا جدا يعطى للّجان . كانت مبالغ مضحكة لم يتجاوز أكبرها خمسمائة ألف أوفريس لكبار المسئولين . كانت أحيانا تعطى نقدا في الداخل أو في الخارج . أوفي صورة سيارة أو شقة أو مشغولات ذهبية ومجوهرات . كانت هذه الصفقات تمثل أعظم استثمار شاهده المايسترو في حياته . أعظم حتى من استثماراته في تجارة المخدرات .

لأن ذكاء الامبرائيس كان منحطا فسرعان ما أوقع نفسه في المشاكل . كان هاو يا فاشلا ولم يكن له العقل الكُلّي الجبار الذى يملكه المايسترو.

كان كطفل عثر على مخبأ ملئ بالحلوى التى يُحبُّها فأخذ يأكل منها دون مراعاة لقدرته على الهضم ولا لقدرة الآخرين على اكتشافه . انتشرت لجانه في أرجاء الدنيا لشراء السلاح . والحقيقة أنه لم تكن هناك خطة أبدا لشراء هذا السلاح ولا لتوافق أنماط الأسلحة وقد نجح

الإمبرائيس أن يوهم كل جناح من أجنحة السلطة أن الجناح الآخر هو الذى يعد هذه الخطط . ولأن جميع الأجهزة قد عجزت عن أكتشاف برنامج للتسلح فى أوفر يسيا فقد وقر فى أذهانهم أنه توجد خطة جهنمية بالغة السرية . لم يكن يخطر ببالهم أنه لاتوجد خطة . وكان تنوع مصادر السلاح وعدم توافقها بل وعدم اكتمال أنظمة السلاح أحيانا مثيرا لحيرتهم الشديدة .

وكان المايسترو يدرك أن هذا الاكثار من الشراء دليل فشل . دليل نَهَمْ . دليل خوف . دليل عدم استقرار وعدم اطمئنان للمستقبل . دليل عدم أمان . تعويض لجوع قديم طويل وخوف من تكراره ، فمع كل صفقة كانت ثروة الإمبرائيس تزداد .

وكان هذا الإكثار يخدم خطط المايسترو للمستقبل وكان يحطم الامبرائيس دون ان يدرى .

وبالفعل سرعان ماتشكى الامبرائيس من أن خزانة البلاد خاوية بسبب ما دُفِع فى صفقات السلاح فى الأعوام الماضية .

كان الحل جاهزا لدى المايسترو. كان سعيدا ومنتشيا فهاهوذا الامبرائيس يدلف بقدميه الى الشَّرَكِ الذى أعدّه له منذ البداية . وكان هذا الشَّرَكُ كفيلا بتدعيم هائل لمركز المايسترو على مستوى العالم . وببطء يقتسه الفذة أخذ يحاور الإمبرائيس وهو يدفعه الى أن يصل بنفسه الى ما يريده الوصول اليه. وأخيرا توصل الامبرائيس الى الحل الكفيل بحل جميع مشاكله . وهو فتح باب الاستثمارات الأجنبية فى أوفر يسيا وتشجيعها بما يصحبها من بنوك أجنبية . ومقابل ذلك أن تضغط الشركات المورِّدة للسلاح على حكومات دولها لتشجيع ذلك بالإضافة الى ضغطها أيضا على هذه الحكومات لتقديم قروض إلى أوفر يسيا لتمويل صفقات السلاح المشتراه من هذه الشركات .

وانهالت القروض الأجنبية على أوفر يسيا . وكان للمايسترو دور كبير فى انهيالها . بل وكان له جزء من العمولة فى مقابل هذه القروض . كان بذكائه الكلى يتفهم دورات الاقتصاد العالمى وفترات الركود التى يعانيها أحيانا . وفى مثل هذه الفترات تتجمد الأنشطة الاقتصادية و يصبح المال عبئا على الدولة التى تملكه وتصبح أفضل وسيلة لاستثماره هى منحه كقروض بأرباح طائلة .

وكان يكفى المايسترو أن يقنع الامبرائيس — بصورة غير مباشرة دائما — أن يوافق على زيادة فائدة القرض نصف فى المائة ليضاف إلى أرصدته بالخارج خمسين مليون أوفر بس . وتسابقت الدول التى تعانى الركود إلى إقراض أوفر يسيا . وانهالت الطيارات على أوفر يسيا . وكان الإمبرائيس سعيدا . كذلك المايسترو.

ومرة أخرى يثبت الإمبرائيس أن ذكاءه منحط . فلم تخضع القروض الخارجية لأى نوع من التخطيط . كان المايسترو يدرك أن هذا الخلل يعود لكونه هاو يا وليس محترفا . حتى تجارة

المخدرات وتزييف النقد وتجارة الرقيق الأبيض تحتاج الى خطة شاملة شديدة الدقة ، شاملة التفاصيل. **لكن الإمبرائيس يُبْرِمُ القروض الهائلة دون أى خطة. ولقد اكتشف أن زيادة ١ ٪ الى فائدة القرض يضيف الى عمولته عشرات الملايين فى حسابه السرى بالخارج. وبلغت به** الحماقة أن بعض القروض التى أبرمها وصلت نسبة الفائدة فيها الى ٢٤ ٪ . وبرغم فداحة الرقم فانه خادع و يبسط الحقيقة تبسيطا مخلا لحد الكارثة . ان ٢٤ ٪ تعنى الربع تقريبا . لكن الأرباح كانت مركبة . وكان هذا يعنى أن المائة أوفريس تصبح بعد عام ١٢٤ أوفريس وفى العام الذى يليه ١٥٤ وفى العام الذى يليه ١٩٢ أوفريس وفى العام الرابع ٢٤٠ أوفريس وتستمر الزيادة بهذا المعدل الصاروخى .

كان المايسترو يتوقع أن تصل أوفريسيا الى الإفلاس التام بهذه الطريقة وكان هَمّ الامبرائيس كله أن يقترض . أما السداد فهو يطلب تأجيله من عام لآخر والعجلة تدور بالفائدة الى أعلى

واضطر المايسترو أن يدفع محافظ البنك الرئيسى ووزير الأموال ووزير التخطيط وبعضا آخر من كبار المسئولين ــ وكانوا إمّا مُقْتَنِعين أو تم تجنيدهم لحسابه ــ الى كتابة تقرير يحذرون فيه من القروض بصورة غير مخططة لصعوبة الوفاء بأقساطها وفوائدها .

وضرب الإمبرائيس عرض الحائط بتقاريرهم مقررا أنهم لا يفهمون خطته الاستراتيجية للنهوض بأوفريسيا .

ولقد تسربت الى المايسترو معلومات مذهلة تؤكد صدق وجهة نظرة فى موسى الدهان منذ البداية .

فلقد كشف له محافظ البنك الرئيسى أن مطالبات تصله بسداد أقساط قروض لم تصل أصلا الى أوفريسيا . كانت كارثة . فقد كان معنى هذا أن بعض القروض تُحَوَّلُ كلُّها إلى حسابات **الإمبرائيس فى الخارج . وكانت خيانة أيضا . فمعنى هذا أن المسئولين فى الدول الأجنبية أصبحوا يبرمون هذه القروض دون وساطته مختلسين منه عمولته . ولم يكن ذلك أسوأ ما فى الامر. إن أوفريسيا** بالنسبة له بئر بترول . ويجب أن تخضع عمليات استخراج البترول منه الى أقصى درجات التخطيط الاقتصادى كى يحقق أقصى عائد له . ويجب المحافظة على هذا البئر لأنه هو الدجاجة التى تبيض الذهب . لكن هذا الأحمق موسى الدهان ينسف البئر نسفا . انه يبيعه بما فيه بأبخس سعر لمجرد أن يضمن أن السعر سيدخل يده هو. مازال إحساس عدم الأمان يطارده . هو ومن بعده الطوفان . إنه لا يكتفى بأن يَدْفِنَ الإمبرائيس السابق كل يوم بأن يشوه صورته مظهرا للرعاع أنه سبب خراب أوفريسيا التى يحاول هو الآن أن ينقذها . **لا يكتفى موسى الدهان بذلك فيدفن الامبرائيس الذى يأتى بعده ايضا بأن يسلمه أوفريسيا بلا ثروة ومثقلة بالديون . يقتله قبل أن يأتى . فكيف يستطيع أى امبرائيس أن يقود اوفريسيا بعد ذلك .**

كان الاتجاه العام يسير في اتجاه خطة المايسترو لكن بحماقة . كان يريده أن ينزل السلم خطوة خطوة لكنه يقفز من الدور العاشر. سيتحطم . وستتحطم أوفريسيا معه .

لم يراع الامبرائيس أيضا حالة التوتر العنيف التي كانت تسود الجنود الرعاع ومعظم الضباط . كان من استفادوا بصفقات الأسلحة مئات أو على الأكثر ألوف قليلة . وحتى هؤلاء . لم يكن لديهم العقل والمنطق الذى يجعلهم غير ساخطين . ولقد فتحت العمولات التى حصلوا عليها فى البداية شهيتهم وشهوتهم للمزيد من العمولات التى كانت فى نفس الوقت قد فتحت شهية الإمبرائيس أيضا فأخذ يقتر عليهم . كان قد أمسك بهم وكانت لديه شرائط فيديو لمعظمهم فى أوضاع مخزية . لم يكونوا يستطعون الاعتراض فقد حصلوا هم أنفسهم فى السباق على عمولة . ولم يكونوا فى نفس الوقت يستطيعون الصمت وهم يرون زملاءهم يحصلون الآن على هذه العمولة بدلا منهم . فقد كان للتبع وقتها سرعة تغيير المناصب حتى لا يتمكن أى قائد من أن يكون مركز قوة وحده . كانت لعبة الكراسى الموسيقية هى التى تتحكم فى توزيع المناصب .

وكان السخط لدى الطبقات الدنيا أشد . لم يكونوا يعرفون طبعا ما يحدث فى القمة . لكن ظروف معيشتهم كانت سيئة . وانعدمت تلك التدريبات القاسية التى كانت تستهلك جهدهم وتُفرِّغ رؤوسهم من الأفكار الضارة . فقد ترتب على عدم وجود خطة محددة لإستيراد الأسلحة فقدان الهيكل الرئيسى للتدريب . كانت الأسلحة تأتى متقدمة جدا وكانوا يعجزون عن إدارتها . وبلغ بهم الظن السئ الذى هو من طبيعة الرعاع دائما أن ينشروا شائعة خبيثة أن هذه المعدات العسكرية ليست متقدمة جدا وإنما قد استوردت فى الأصل فاسدة ، أو ناقصة أجزاء جوهرية لا تعمل بدونها . واتخذ القادة قرارات صارمة ازاء هذه الشائعة الخبيثة والتى كانت تخفى — من وجهة نظر القادة — عجز وجهل الفنيين عن استيعاب هذه الأسلحة التى تحتاج الى عقول ذكية لفهم ما فيها من تكنولوجيا متقدمة . واكتشفت المخابرات الحربية أن مجموعة من الضباط والفنيين والجنود تتخابر مع الأعداء هى التى سربت هذه الشائعة الخبيثة . ولقد تم تفتيش بيوتهم وعثر فيها على دنانير ذهبية حصلوا عليها لقاء بيع وطنهم العظيم أوفريسيا . وقد قُدّمت هذه المجموعة لمحاكمة عسكرية وسرية أدانتهم طبقا لاعترافاتهم .

وسرح عدد كثير من ضباط الجيش والجنود الرعاع (الحقيقة أن معظم الضباط كانوا أيضا رعاعا) لأنهم تعاطفوا مع الجواسيس . بل ونشروا شائعات خبيثة أنهم لو كانوا قد اعترفوا حقا على أنفسهم فلم يحدث ذلك إلا تحت وطأة تعذيب فضّلوا عليه الموت .

وفى هذه الآونة تسربت إلى المايسترو معلومات خطيرة حول تقرير بالغ السرية أعده نائب قائد الجيش اللواء محمد بدوى وكان واحدا من المتزمتين الذين لم يرغب نظام المايسترو فى التعامل معهم منذ البداية . كان لا يستحق النعمة فضلا على أنه يرفضها . كان احمقا . شديد الجدية فيما لا يفيد . كان يشغل نفسه دائما بأشياء لا جدوى منها وكان دائب التفتيش على وحدات

الجيش . ومما يدل على وضاعته ذلك التعاطف العميق الذى كان يحظى به فى أوساط الجيش عامة . فان أولئك الرعاع الذين لم يكفوا عن إطلاق الشائعات على القادة لم يطلقوا عليه إشاعة واحدة . كان منحطا مثلهم . وكان يفتقر عكس أمثاله إلى النظرة الحقيقية الواقعية للأشياء وإلى التقدير الشامل للأمور . كان الأحمق يظن أن الأنتصار فى الحروب يتم نتيجة لكفاءة السلاح وتدريب الجيش والروح المعنوية . كان ذلك يصلح فى الحِقَب الماضية ومازالت أفكارُ هذه الحقب تسيطر على الحمقى . الآن تتحدد نتيجة أى معركة قبل أن تبدأ الحرب . وتتحدد هذه النتيجة طبقا لموازنات دولية واقتصادية وسياسية ومستقبلية دقيقة لايستطيع مثل هذا الغبى إدراكها . كما لا يستطيع إدراك أن تجارة السلاح الآن كتجارة أدوات تجميل النساء لا هدف منها سوى الزينة . ولا قيمة لها إلا ماتبثه فى نفس الجيش من ثقة وفى شعور المواطنين من إحساس بالعزة والكرامة . ولأن هذا الأحمق لم يدرك ذلك فقد تورط فى كتابة تقرير خطير لم يعلم المايسترو به الا بعد ان رفعه ذلك القائد للامبرائيس مباشرة دون اتباع الوسائل القانونية عبر القنوات المشروعة باحترام التسلسل الوظيفى .

عن قصور خطير مرفوض فى وسائل معلوماته . فكيف لم يستطع أعوانه متابعة خطوات اعداد هذا التقرير لحظة اعداده .

عن قصور خطير مرفوض فى وسائل معلوماته . فكيف لم يستطع أعوانه متابعة خطوات اعداد هذا التقرير لحظة اعداده .

وكان المايسترو يتجنب بحذر وذكاء أن يظهر للامبرائيس حجم معلوماته الحقيقى . كما كان يتجنب أيضا أن يظهر له فضوله لأن يعرف أية تفصيلات أو أسرار . كان يحافظ دائما على حاجز بينهما . لم يكن يريد للعلاقة أن تتطور حتى الاندماج برغم رغبة الامبرائيس فى ذلك . لم تعد تحركه رغبة الانتقام القديمة . كان قد جمّدها فى جزء من كيانه . فلا هى ماتت ولا هى تواصل تأثيرها عليه . قد يحتاج إليها يوما ما . أما الآن فإن موسى الدهان يشكل بدون أن يدرى جزء هاما فى مخططه .

برغم محاولات المايسترو العديدة أن يعرف مزيدا من التفاصيل عن فحوى التقرير إلا أنه لم يستطع. وان كان ماعرفه من شذرات متناثرة جعلته يتفهم أسباب غضب الامبرائيس . كان التقرير مطوّلا يشغل عددا كبيرا من الملفات وكان مدعما بعدد كبير من المستندات والصور والوثائق . وتحدث التقرير عن نقاط متعددة كانت فى مجملها تأييدا لأقوال الرعاع وصحف المعارضة والأعداء فى الخارج . وذكر أنّ الروح المعنوية للجيش فى الحضيض . وأن التدريب صفر . وأن طريقة توزيع الوحدات هو أخطر توزيع ممكن . إنّ الكتلة الرئيسية للجيش تتركز فى الغرب بينما مكانها الطبيعى هو الشرق . وتبنى التحصينات فى الجنوب وليس حيث يجب أن تكون فى الشرق . ولا حتى فى الغرب حيث يجب أن تكون بمنطق من وضع القوات فى الغرب . وذكر التقرير أيضا أن كل الأسلحة بلا ذخائر وأن

مخازن الذخيرة كلها تقع فى الشمال .. بعيدا عن المكان الطبيعى لها فى الشرق .. و بعيدا عن الثكنات فى الجنوب .. و بعيدا عن الجيش نفسه فى الغرب . وانتقد التقر ير بشدة طر يقة تخز ين الذخائر . فهى طر يقة لم يراع فيها أى درجة من التنظيم بحيث لوأعلنت التعبئة العامةُ فسوف يستحيل أنْ يُمَدّ كلّ سلاح بالذخيرة المناسبة . وسوف تكون كارثة لونشبت أى حرب . وانتقل التقر ير بعد ذلك الى نقطة فى غاية الخطورة . وهى أنه قد بحث ما أشيع من أن بعض الأسلحة المتطورة هى فى الواقع أسلحة فاسدة ولاتعمل . وقد أثبت التقر ير صحة ذلك . كما كشف أيضا أن تردّد موجات الرادار بوحدات المدفعية لا يتوافق مع تردد موجات طائرات أوفر يسيا مما يمكن أن يترتب عليه أنْ تسقط مدفعيتنا طائراتنا . وأن ترادادات ردارات الطائرات نفسها تعانى من خلل جسيم . واستغرق التقر ير بعد ذلك فى تفاصيل فنيه كان يؤكدها برقم يطلب الرجوع اليه فى ملفات المستندات .

وأظهر التقر ير بعد ذلك واقعة مذهلة لم يكن حتى المايسترو يعرفها . فقد ذكر أنه بالمراجعة تبين وجود عجز فادح فى جرد المخازن مقارَنةً بالأصول الدفترية للأسلحة . وقد حاولت اللجنة التى شكّلها اللواء محمد بدوى تقصى الحقيقة فى هذه الواقعة إلا أنها لم تصل الى تصور كامل لأبعادها وإن كانت واثقة أن هناك تلاعبا يصل الى درجة الخيانة العظمى فلقد حاولت اللّجنة فحص أنواع معينة من السلاح فى بعض المخازن فلم تجدها رغم إثباتها فى الدفاتر . وأفاد قائد اللواء أنه تسلم هذه الأسلحة صور يا وسلمها على الفور إلى لواء آخر وذهبت اللجنة الى اللواء الثانى فأفاد بتسليمها الى لواء ثالث . وذهبت الى اللواء الثالث فأفاد بتكهين هذه الأسلحة نظرا لعدم صلاحيتها . وتوجهت اللجنة الى مخزن الكهنة فلم تجد أى أثر لهذه الأسلحة التى ادّعى أنهم كهنوها . وعندما سألت اللجنة أجاب قائد المخازن أن الأسلحة لم ترِد اليه أصلا وقد وردت فقط أوراق تكهينها من لواء آخر غير الألو ية الثلاثة التى تم سؤالها . وعندما سُئِل عن سبب عدم اتباع الاجراءات المخزنية اللازمة فقد أفاد بأنه نظرا لدرجة السر ية القصوى لهذه الأسلحة فإنها تُعدمُ فورَ انعدام الحاجة لها . وقد حاولت اللجنة تعقب أصول هذه الواقعة فرجعت الى دفاتر ورود السلاح من الخارج فلم تستدل على ورود الأسلحة نفسها وإن وجدت أوراقا تفيد تصديرها من الخارج إلى أوفر يسيا . وقرر أعضاء اللّجنة أنهم إزاء ذلك يشكّون فى وصول هذه الأسلحة أصلا من الخارج برغم أن الدولة تدفع ثمنها . وحذرت اللجنة من إمكانية تورط البعض فى عصابات تجارة السلاح فى الخارج مما قد يكون دفع بهم إلى بيع هذه الأسلحة فى الخارج بعد شرائها من الشركة المنتجة والحصول على قيمتها لأنفسهم بينما تقوم الدولة بسداد الثمن وأن خطورة الواقعة لا تقتصر على القيمة المادية لها . بل رأت اللجنة أن ذلك يتصل اتصالا وثيقا بسوء توز يع الجيش والثكنات والأسلحة والذخائر . وإذ ربما يكون المقصود بذلك ليس احتياجات الأمن القومى لأوفر يسيا وإنما طمس معالم مثل هذه الوقائع بوضع عراقيل لا يمكن

اجتيازها أمام أية لجنة تحاول تقصي الواقع والحقيقة . وأن ذلك بدوره يوسع من اطار الأشخاص المشتبه فيهم والمتورطين فى وقائع خطيرة قد تسبب كارثة لأوفر يسيا .

وذكر التقرير بعد ذلك وقائع أخرى تماثل خطورة ماذكره إلا أن تفاصيل الباقى لم يصل للمايسترو .

كان تقرير خطيرا بكل معنى الكلمة . وقد ذُهل المايسترو لقدرة اللواء محمد بدوى على إعداد مثل هذا التقرير بمثل هذه السرية التى خفيت حتى على عيونه . وأدرك أنه لو استطاع استقطاب هذا الرجل الى مؤسسته الكبرى فسوف يكون إضافةً عظيمة . وأنه يستحق أى جهد يُبذلُ لترويضه حتي يقتنع بالإنضمام بأى صورة حتى ولو انضم دون أن يدرى .

علم المايسترو بعد ذلك أن الامبرائيس طلب اللواء محمد بدوى للقائه . لم يعرف تفاصيل مادار فى اللقاء . وإن كان قد علم انه كان مجرد بداية فقد طلب الأمبرائيس أن يجتمع بكل الفريق الذى أعد التقرير لكى يشكرهم على جهدهم العظيم فى إعداد مثل هذا التقرير الذى قد يكون أهم نقطة يبدأ منها تطوير حقيقى لجيش أوفر يسيا .. جيش أبنائه . ووعد بأن يبدأ تحقيق فورى يتولاه أعضاء اللجنة نفسها فكل ما أثير من شبهات . وتفضل الإمبرائيس فحذّر اللواء محمد بدوى من أن تتسرب أية صور من هذا التقرير الى أى مكان حتى لا تصل الى أيدى المنحرفين الذين يمكن أن يصلوا الى أية درجة من التهوّر إذا علموا به . وحدد الإمبرائيس موعدا بعْد أسبوعين للقاء الفريق الذى أعد التقرير مشدّدا فى التنبيه على اللواء محمد بدوى أن يحضر كل من شارك بعيد أوقريب فى اعداد التقرير . وكانت لفتةً أبوية كريمة منه أن يعتذر إلى اللواء محمد بدوى بأنه يحدد موعد اللقاء بعد أسبوعين نظرا لارتباطه مسبقا بأداء فريضة الحج فقد كان مايميز الإمبرائيس أنه مؤمن .

وتحدد ميعاد اللقاء فى الجنوب حيث سيعود الإمبرائيس من الحج الى استراحته هناك . وأن طائرة من طائرات الرئاسة نفسها ستتكفل بنقل الوفد كله إلى مقر إستراحة الإمبرائيس هناك .

وصلت كل هذه المعلومات إلى المايسترو. وقد وضع احتمالات عديدة على دراسته لشخصية الإمبرائيس . وكالعادة لم يخب تصوره . فقد تحقق أحد التصورات برغم أن ترتيبه فى قائمة الإحتمالات كان الأخير.

ففى الموعد المحدد . و بعد أن أقعلت الطائرة بالفريق برئاسة اللواء محمد بدوى . تعرضت الطائرة لحادث مؤسف حيث انفجرت فى الجو ولم ينج من الركاب أحد .

أمر الامبرائيس باعلان الحداد فى أوفر يسيا ثلاثة أيام . وصدر بيان من الرئاسة ينعى الى الأمة أعظم قادة فى أوفر يسيا حيث لقوا مصرعهم أثناء تأديتهم لواجبهم الوطنى فى سبيل وطنهم حيث لقوا مصرعهم أثناء جولة تفتيشية روتينية على وحدات الجيش .

وكتب خنفس بوللى مقالا دامعا يعدد فيه مناقب اللواء محمد بدوى الذى تفانى فى خدمة الوطن بمساهمته بأكبر قسط ممكن فى بناء جيش أوفريسا والذى ارتفع على أكتاف اللواء بدوى وأمثاله كى يصبح جيشا من أحدث الجيوش فى العالم هو أقوى الجيوش فى المنطقة .

وشيعت الجنازة عسكريا وشعبيا . وكان صراخ الرعاع وهتافاتهم تشق أجواز الفضاء .

ـ ١٥ ـ

كـان المايسـترو يـؤمن بتلك الحكمة القائلة أن صاحب راس المال عندما يجد مجالا لاستثمار أمواله بأرباح ٢٠ ٪ سنويا فإنه يفكر وعندما يرتفع الربح الى ٥٠ ٪ فإنه يُقْدم فورا . أما إذا ارتفع الربح الى ١٠٠ ٪ فإنه يتكالب و يتحايل ويمكن أن يتقاتل كى يستثمر أمواله . لكن إذا ارتفعت هـذه النسبة الى ٢٠٠ ٪ فليس هناك جريمة فى الوجود لا يمكنه إرتكابها فى سبيل اقتناص الفرصة لنفسه .

و بنـفس الطريقه التى استطاع بها توجيه نظر الامبرائيس إلى تنويع مصادر السلاح إستطاع أيـضا دفـعه لتغيير نمط الإقتصاد السائد فى أوفريسيا . كان المايسترو يدرك أنه لا يمكن تحقيق تقدم إقـتـصادى إلا بـنـزح الـشروة مـن فـئـة أخـرى . فهذه الطريقة ــ وبها فقط ــ يتم تجديد شباب الإقتصاد بضخ دماء شابة فيه تعيد إليه حيويته .

واتخـذ الامبرائيس قرارات إقتصادية عديدة كان الأغبياء يظنون أنها دليل ارتباك وتخبط بينما كان المطلوب من هذه القرارات أن تهز الاقتصاد الأوفريسى هزا عنيفا يترتب عليه انتقال الثروة من طبقة إلى طبقة أخرى .

كـانـت الـضـربـة الأولـى الـتـى هزت المجـتـمـع الاقتصادى هزا عنيفا هو قرار الإمبرائيس بـتـخـفـيـض الجـمـارك بـنـسـبة ٥٠ ٪ كان هذا القرار يقصم ظهور كبار التجار الذين يكدسون الـبـضـائع فى مخازنهم فى إنتظار إرتفاع أسعارها والذين فوجئوا بأن أسعار سلعهم المخزونة تنخفض انخفاضا كبيرا دفع الكثيرين منهم الى إشهار الإفلاس .

وتـولـى خنفس بوللى كالعادة شرح قرار الامبرائيس مطلقا عليه ما يستحقه من أسماء كالماجد والأعظم والسيد الأعظم وظل الله على الأرض .

وقـد أوضح ما يتضمنه ذلك القرار من رحمة القلب بأبناء شعبه وما سيترتب عليه من انخفاض

الاسعار للطبقة الكادحة والفقراء فى أوفر يسيا . وأنه لايوجد فى الدنيا كلها حاكم يضحى بالموارد السياسية للدولة كما يفعل الإمبرائيس .

وأختتم خنفس بوللى مقاله بابتهالات مؤثرة أن يطيل الله عمر الإمبرائيس ويحفظه من أجل شعب أوفر يسيا .

والحقيقة أن خفض الجمارك قد أدى إلى انخفاض الأسعار كما أن افلاس عدد كبير من كبار التجار قد خفف من قبضتهم على سوق المال فى أوفر يسيا فانخفضت الأسعار مرة أخرى . ونتيجة لانخفاض الأسعار زادت الواردات . لكن ذلك لم يكن غير متوقع كما أنه لم يضايق الإمبرائيس ولاحاشيته . كانت القروض تتدفق على أوفر يسيا تحمل معها الرخاء للجميع . ودخلت إلى الشعب المحروم أصنافا طالما اشتاق اليها فتكالب عليها وسعد بها كما أيضا التجار الذين أخذوا يستوردون من كل بلاد العالم فيحققون بتجارتهم ربحا وفيرا . ولم يقتصر الأمر على الأستيراد فقط كما حذرت المعارضة الحاقدة بل إن التجار الذين تضخمت ثراوتهم كانوا يستغلون هذه الثروة فى شراء المواد الخام الرخيصة فى أوفر يسيا و يصدورنها للخارج بأسعار عالية محققين ربحا وفيرا يستغلونه فى إستيراد الكماليات والأستهلاكيات التى يبيعونها بأغلى الأسعار الى الشعب طال اشتياقه لها . وكانت حماقة أن يتجه البعض الى بناء مصانع أو استصلاح أراضى صحراو ية فتلك مشروعات لايز يد ر يعها عن ١٠٪ بينما يتجاوز ر يع التجارة ١٠٠٪ .

ونشطت حركة العمران فى أوفر يسيا فرصفت الطرق ومدت كابلات التليفونات وسطعت أضواء الصوديوم والزئبق فى الميادين التى تتوسطها حدائق غناء . و بنيت العمارات الفارهة وانتصبت ناطحات السحاب كصوارى أعلام خفاقة ترفع مجد أوفر يسيا إلى عنان السماء . وتقدمت دولة الغرب بعرض لإنشاء مشروع عملاق لمترو الأنفاق تكلفت المليارات لكنه حل مشكلة الزحام الخانق فى مواصلات أوفر يسيا . وانتشرت المتاجر بديكوراتها الفاخرة معطية لأوفر يسيا وجها تفخر به أمام العالم . كانت تلك هى البنية الأساسية التى أفتقدتها أوفر يسيا كثيرا والتى عاقت الاستثمارات الأجنبية بها خوفا من ضعف الخدمات .

و برغم هذه الإنجازات الهائلة فان الحكومة لم تسلم من لسان المعارضة السليط . وتصدى الدكتور عبد الله حلمى النديم لذلك و برغم تهافت حجمه فقد استطاع أن ينال من الحكومة ولم يكن ذلك بسبب ذكائه بقدر ما كان بسبب غبائه بعض أفراد الحكومة .

إنتقد الدكتور عبد الله سياسية الصدمات الكهر بية فى إدارة الإقتصاد مدعيا أنها سياسة متخبطة غير مدروسة سوف يترتب عليها أوخم العواقب (كان من الملاحظ أن نسبة استعمال أفعل التفضيل تز يد تدريجيا فى مقالاته) وقد حذّر مثلا من أن هذه السياسة سوف تشوّه مفهوم العمل . سوف تعلى مفهوم الفهلوة على مفهوم الجد والاجتهاد والدأب والكد والدراسة واكتساب الخبره

والمعرفة . وأن الفارق الهائل فى قدر ما يمكن اكتسابه من نقود دون عمل و بين قدر النقود التى يمكن اكتسابها بالعمل سوف تقضى على العمل كقيمة . وقرّر أن المِهن التى تسمحُ بالكسب السر يع دون جهد أصبحت تتمتع بجاذبية كبيرة . ولمّا كانت هذه المهن غير مطروحة للكل وانما يتم إقتناصها عن طر يق علاقات معقدة ومتشابكة مع السلطة فان كل ذلك سيؤدى إلى بروز ظواهر قبيحة مثل تفشى النفاق والتزلفُ للمسئولين وأن كل ذلك سوف يؤدى فى النهاية الى انزهار السلوك المرضى اللاأخلاقى ليس عند أر باب هذه المهن فقط بل وعند المسئولين الذين يتعاملون معهم أيضا .

وفى مقال آخر حذر الدكتور عبد الله حلمى النديم (والذى كان من كبار المحامين) من عملية استقطاب خطيرة تحدث فى المجتمع . فقد أصبح هناك « نمط » حلّ محلّ المثل الأعلى . نمطٌ يحاول الجميع تقليده . نمط يستنزف الثروة القومية للوطن فى شراء سلع الوجاهة والأبّهة . حتى أن عظمة المسئول وأهميته لم تعد تُقاس إلاّ باتساع مكتبه وفخامة أثاثه وموديل سياراته وعدد ما تخصصه الدولة له من سيارات بل وعدد ما يستطيع هو أن يخصصه لنفسه من سيارات فوق ما تخصصه الحكومة . أصبحت قُوّة المسئُول لا تَتحدّدُ بقدر تطبيقه للقانون بل بقدرته على خرق القانون دون أن يسائله أحد . . . إنّ هذا الوز ير يقلد نمطاً لا أحد يعرف من جعله نمطاً . و يأتى الوز ير الجديد ليقلّد القديم و ينتشر الو باء إلى الطبقات التى دون الوز ير والتى تعتبر بدورها الوز ير نمطاً ومثلا أعلى . . إن وكيل الوزارة يقلد الوز ير والمدير يقلد الوكيل . . والموظف القديم يقلد المدير والموظف الجديد يقلد الموظف القديم . ويحاول الجميع أن ينسلخ من الطبقة الدنيا التى لا تملك حتى حق الحلم . أما من يستطيع أن الدنيا التى لا تملك حتى حق الحلم . أما من يستطيع أن ينسلخ عن هذه الطبقة . . فإنّ النمط ــ من المثل الأعلى ــ يتلقفه كى يضعه فى دائرته الجهنمية ليصبح موظفا صغيرا يرتبط فى سلسله كسلاسل العبيد القدامى ــ لكنها غير مرتبة ــ الى الوز ير فى النهاية . والوز ير نفسه مر بوط بنفس السلسلة إلى نمط أعلى . وهكذا يصبح الأمل الوحيد للمسحوقين وهو الانتقال إلى فئة السارقين وللضحايا أن يتحولوا الى جلادين . . وأنّ هذا النظام الهرمى الذى يتسلل من النمط فى قمة الهرم إلى أدنى مواطن أوفر يسى يقضى تماما على القيم المجردة والمثل الأعلى . . فالكلّ مرتبط بالنمط والنمط هو كلّ شئ . . وما عداه هباء . حتى الدّين والعلم والفن والتمدن الذى قد يتسم به بعض الأفراد يتحول فى وسط هذه البيئة إلى مجرد قشرة سطحية ما تلبث أن تتساقط . لكنهم يخلعونه فى معظم الأوقات . كحلة الردنجوت . لا تلبس إلا فى الاحتفالات الرسمية .

كان الإمبرائيس يغضب كثيرا من مثل هذه المقالات للدكتور حلمى وأمثاله . وكان غضبه يمتزج بالدهشة والاستنكار . فماذا ينقص هؤلاء الأفندية وهم يتمتعون بكلّ ما يتمتع به أفراد الطبقة الراقية دون أن يقوموا بأىّ عمل حقيقى يُرجى من خلفه أى نفع . إنهم يَمْلِكون السيارات الفارهة والشقق الأنيقة والاحترام من المجتمع . . ماذا ير يدون أكثر من ذلك ؟ كانت وظيفة الفكر والفن فى رأى موسى الدهان عن الناس بعد عناء يوم عمل . أما كلام هذا الشر ير حلمى النديم فهو يشعل الحرائق فى كل

مكان . إنه لا يهتم به ولا بأمثاله . لكنه يخشى من خطورة ما يكتبونه على أجيال غضة من الشباب قد تنقد العقل فتصدق الخزعبلات والأوهام التى يحشرون بها أذهانهم . كان لدى مفكرى أوفر يسيا طبيعة يفهمها الإمبرائيس تماما وكانت تطمئنه دائما . هى أن هؤلاء المفكرين يرتعدون رعبا من الإهانة المعنوية أو التعذيب الجسدى . لذلك كانوا يضعون أمام أنفسهم دائما خطاً لا يتجاوزونه . خط يضعهم بعيدا عن النقطة الخطرة التى يُعتقل من يتجاوزها و برغم ارتياحه لخوفهم فقد كان هذا يدفعه فى نفس الوقت لاحتقارهم وقد أصدر تعليماته أن يتعرض مثل هؤلاء المفكرين الجاحدين للمهانة دائما . أن يفقدوا مكانتهم الواحد تلو الآخر . أن تظلّ كرامتهم مهددة . وأن يكون قدر الكرامة المتاح لهم بقدر أدبهم . بقدر خضوعهم لسلطانه وأن يسخر باقى الكتاب الملتزمين منهم فليسوا سوى عقول مخصيّة تخرج منها خرافات ذهنية تَنْصبُّ فى وجدان شباب طائش لا يعرف الخوف مثل مُلَقِّنيه ، فينفجر فى اضطرابات ومظاهرات إجرامية تحطم كلّ شئ . إن الامبرائيس لم ينس بعد كيف أتى الى الحكم . وكيف تحول الرعاع أيامها من الاستسلام الكامل الى التهور الأحمق . وكيف استطاعوا فعلا أن يهددوا أمن أوفر يسيا واستقرارها لولا تدخله فى الوقت المناسب . وإن الامبرائيس يعلم جيدا دوافع المفكرين الخسيسة للكتابة . إنهم يعلمون جيدا أنهم أعجز من القيام بتغيير بأنفسهم . لذلك فهم يدفعون بكتاباتهم شباب أوفر يسيا إلى الجنون والثورة . إنهم يفعلون ذلك بإجرام مع سبق الأصرار ثم يهاجمون السلطة عندما تواجه الشَّغَبَ الذى كانوا هم نُواته وشرارته .... لكم ودّ أن يسحقهم جميعا . لكن هؤلاء السفلة لم يكتفوا بخداع شباب أوفر يسيا الحمقى فقط . بل تمكنوا أيضا من خداع العالم كلّه ، وإنه لا ينسى ما حدث عندما أمر باعتقال أحدهم . كان كلبا تجرأ عليه . وبمجرد اعتقاله أخذت أجهزة الإذاعة والتليفزيون فى العالم كله تذيع النبأ . وأصبح موقف الإذاعة والتليفزيون فى أوفر يسيا حرجا جدا أمام الناس ، ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل إن منظّمات عالمية أخذت تندد وتشجب وترفض .

وتناشد الى آخر هذه الكلمات التى لا تساوى ثمن الحبر الذى تكتب به . و برغم ذلك فقد .

اضطر الإمبرائيس فى النهاية أمام ضغوط عالمية أن يأمر بالإفراج عنه ... ومن يومها وهو يحاذر أن يقع فى نفس الورطة مرة أخرى برغم أنه لم يكن هناك تفسير لما حدث سوى أنهم عملاء لدول أجنبية يقبضون منها ثمن معارضهم وإلاّ فأىّ منطق يشرح له كيف يعرِّضون حياتهم للخطر . ما هو الثمن . إنه لم يقصّر فى حقهم . لقد عرض على معظمهم وظائف كبيرة كان يمكن أن تدر عليهم مثل ما يتقاضونه من الخارج . لكن نفوسهم الخسيسة كانت تأبى الا أن تحقِّر نظافة وتسخر من حكوماته . لماذا لا يفعلون مثل ونيس الخربوطلى . إنه أعظم منهم جميعا ، وهو أيضا أغزرهم انتاجا ، إن له فى المكتبات مائة كتاب ، حقيقة أن أغلبها قد كتبه صغار الصحفيين تحت اشرافه الصورى لكن الكتب صدرت فى النهاية باسمه . ألا يرون ماذا فعل معه . لقد عيّنه رئيسا لتحرير صحيفة أبريل . ألم يلاحظوا كرَمَه عندما خسرت الصحيفة كلّ رأسمالها فعوّضه له كله من الميزانية . ألم يلاحظوا سماحة نفسه وطيبة قلبه فى هذا التصرف وحده برغم أنه كان يمكن أن

يفعل العكس تماما ، كانت أمامه التقارير جاهزة تقرّر أنّ رئيس الحزب بوطلي نفسه قد اختلس لنفسه معظم إيردادات الإعلانات وأن بدلات السفر التى مُنحت له ولأتباعه بالعملة الصعبة كانت السبب الرئيسي لانهيار الصحيفة . كان يمكن أن يسجنه و يلوّث شرفه . لكنه تقديرا منه لكرامة الصحافة والصحفيّين دارى عليه وأعانه ، فلينظروا كيف يكتب وكيف يلتهم الناس ما ما يكتبه التهاما . إنّه كاتب حقيقي ، يعطى الناس بخيالة الخصب سعادة الأحلام بقصصه عن الكون والسحر والخرافات والنساء عبر التاريخ . ولماذا لا يفعلون مثل بوخليل المسعودى أومثل أعظمهم جميعا خنفس بوللى . كان يمكن أن يكون خنفس بوللى واحدا من أعدائه . لكنه كان ذكيّا منذ اليوم الأول . لقد كان واحدا من أقوى المناصرين للإمبرائيس السابق . كان يدافع عنه بضراوة . وعندما أدرك أنه أصيب بخلل عقلى تحوّل فورا إلى تأييد الإمبرائيس الجديد . كان يفهم جيدا حقيقة الأوضاع . لم يكن مثل السفلة الأغبياء والآخرين الذين لم يفهموا بعد أن السلطة مجرد فرصة للحكم . فرصة قد لا تستمر . وأنّ كل من يتمكن من الحكم سيسلك النهج نفسه . لأن ذلك هوما يحدث فى أوفر يسيا وما سيحدث فيها دائما . ولأنه هو ما يحدث فى كل حكومات العالم . هذا هو القانون الحقيقى الذى يحكم الدنيا فكيف لا يفهمه هؤلاء الأغبياء . إنهم يتحدثون عن الإلتزام تجاه الآخرين . . فماذا إذن عن الإلتزام تجاه الإمبرائيس . هو الذى يعطيهم و يرزقهم و يبقى عليهم أحياء . كيف لا يفهمون أنهم جزء من السلطة . وأن واجبهم حمايتها لا إثارة الغوغاء عليها ، أىّ جحود وأىّ خسه فى أن يعرّضوا به وطعام موائدهم من فيض خيره ، وها هو ذا عبد الله حلمى يُخّرف و يدور ثم يعود يدور ليتحدث عن النمط . لقد قرأ المقالة ، لكنه كان مشغولا فلم يدرك ما يقصده بكلمة النمط ، أو أنه لم يتخيل أن يصل الجحود وسوء الأدب بالكاتب أن يقصد أكثر من اللفظ الذى يعنى رمزا غامضا لا معنى له . لكن خنفس بوللى جاءه غاضبا مستشارا وكلمات الإعتذار والأسف تسبقه . إعتذاره لأنه ينتمى إلى مهنة الصحافة التى تضم أمثاله عبد الله حلمى النديم . وأسفه لأن الامبرائيس لم يسحقهم بعد بحذائه . ونبه خنفس بوللى الامبرائيس الى أن هذا الجاحد يقصده شخصيا بكلمة « النمط » وأنه يتحدث عنه كقمة لهرم ينساب منه الفساد والمثل السئ كى ينتشر فى أوفر يسيا . وأضمر الإمبرائيس فى نفسه شرا مستطيرا لعبد الله حلمى النديم . لكنّ اللّعين فاجأهم بأقسى ضرباته . لقد اتهم نائب رئيس الوزراء للشئون الإقتصادية شخصيا بالحصول على خمسة وأربعين أوفر يس كرشوة فى مشروعات التليفونات الكبرى مقابل إرسائه على شركة « ت . ت . ت » ولم يكتف بذلك بل أعلن رقم الحساب وإسم البنك وفَضَحَ الوسطاء الذين قاموا بإبرام الإتفاق . وطلب عبد الله حلمى النديم من وزير العدل والنائب العام التحقيق فى الأمر مُبْدِياً إستعداده لتقديم المستندات الدالة على صحة ما يدّعيه .

كاد الإمبرائيس يُجَنّ

هذا الوغد الخسيس

هذا الخائن المجرم الجبان الكذاب .

سيقيله فورا . . وسيودعه السجن وسيرغمه أن يعيد المبلغ كلّه لنْ يَدَعَ له حتّى حقّه المُتفق عليه مسبقاً وهو خمسة ملايين أوفر يس . نائب رئيس الوزراء يخون الإمبرائيس فيالها من خيانة . نسي الإمبرائيس ـ مؤقّتا ـ وقاحة عبد الله حلمي النديم إزاء ما كشفه له من غدر نائب رئيس وزرائه . كان مشروع التليفونات يتكلف في الواقع مليار أوفر يس وقد تم إسناده الى شركة « ت . ت . ت . » مقابل ثلاثة مليارات أوفر يس . كان مليارا منها لخدمة ديون القرض الذى سَيُحْصَل عليه لتمويل المشروع . وخمسمائة مليون أوفر يس دفعت كعمولات في الخارج للحصول على القروض . وثلاثمائة مليون أوفر يس دفعت الى الشركات المنافسة كي تغلق فمها . وكان الباقي لتوزيعه كعمولة ، مائتي مليون أوفر يس فقط ، يخصُّ الإمبرائيس منها خمسين مليونا و يُوزّع الباقي على مئات الأشخاص . وكان نصيب نائب رئيس الوزراء خمسة ملايين . الآن ينكشف أمر هذا اللص . لقد أخذ عمولته في الداخل خمسة ملايين حوّلها إلى حسابه في الخارج لكنه أخذ أيضا عمولة من الشركة خمسة وأربعين مليون أوفر يس كي يُسَهِّل لها عملياتها أثناء التنفيذ ، ولقد أكتشف عبد الله حلمي النديم ما حصل عليه في الخارج فالحمد لله أنه لم يكتشف الخمسة ملايين التي حصل عليها داخل أوفر يسيا وإلا لمثّلت له خيطا كان يمكن به أن يصل إلى الإمبرائيس نفسه .

أصدر الإمبرائيس قرارا امبرائيسيا بإحالة نائب رئيس الوزراء إلى التَّحقيق الفوري . وفي فورة انفعاله نسي أنّه لا يوجد في أوفر يسيا قانون لمحاكمة الوزراء أورئيس الوزارة . ونبّهَهُ المستشار القانوني لذلك . فصرخ فيه غاضبا :

إذن يصدر اليوم قانون لمحاكمة الوزراء .

لكن المستشار أجَابه بأن إصدار مِثْل هذا القانون يستغرق شهورا عديدة كي يَمَر بالخطوات التي حدّدَها الدّستور .

وصرخ الامبرائيس بصوت كالرعد :

الدّستور . . هه . . ما هو الدّستور . . أنا الدّستور . وتدخّل أحد أصدقاء الإمبرائيس وكان الحوار ليهدئ الإمبرائيس مشيرا عليه بأن يُقيل نائب رئيس الوزراء ثم يحوله للتحقيق بعد ذلك كمواطن عادي بلا حصانة .

والتقط المستشار القانوني الخيط الذى ينقذه من غضب الإمبرائيس فاقترح أن يصدر قرار الإقالة منوّها بحرص الإمبرائيس على ألاّ يتولى العمل العام من تحوم حوله أيّة شُبهه أومن تلوك الألسن سمعته . وأضاف صديق الإمبرائيس أنه يجب أن يصحب ذلك حملة إعلامية كبرى تشرح لشعب أوفر يسيا مدى حرص الإمبرائيس على نزاهة مؤسسة الحكم .

وأُعد القرار فعلا . والواقع أن المستشار القانونى كان بليغا وكان أغلب ما ورد فى البيان إشادة بالإمبرائيس .

عِلمَ المايسترو بما حدث فقد كان يتابعه مند البداية .. بل قبل البداية ، إتصل بالإمبرائيس راجياً إياه أن يُؤجِّل إصدار القرار حتى يلقاه . رفض الامبرائيس فى إباء غاضب فرجاه المايسترو أن يُؤجِّل القرار ساعة واحدة . سيصل قبل نهايتها اليه .

لم يكن الامبرائيس يرد للمايسترو طلباً فقد جرَّبَ دائما صواب رأيه وصدق مشورته . ولأنه كان لا يطيق انتظارا فقد أرسل له طائرته الهليوكبتر لتنقله الى قصره فقد قدر أن حضوره بسيارته فى وسط فوضى المرور فى شوارع أوفر يسيا سيستغرق عدة ساعات .

جلس المايسترو ينتظر طائرة الإمبرائيس .. لم يحاول إ خفاء ابتسامة النشوة الطاغية على شفتيه . إنّ خطّته تنجح بصورة ترفعه عن مصاف البشر ، وكأنه يقول للشئ كنْ فيكون ...... وإنه ليسترجع أحداث صفقة التليفونات الكبرى وكيف لعبت أصابعه بمهارة حتى أنّ العالم كان مسرح عرائسه الكبير ، وكانت الخيوط مِلْكَ يديْه . لقد حرَّكَ كلَّ شئ فتحرّك كلُّ شئ كما يريد تماما دون أن يدرك حتى أقرب المقرّبين أنّه هو مُحرِّك العملية كلها . علاقاته الدولية أصبحت راسخة ومؤثرة كقوانين الطبيعة .

لم يكن المشروع يبدأ أو يستمر لولا وساطته لإبرام القرض .... ثم تعليماته بعد ذلك أثناء التنفيذ بالتجاوز عن بعض بنود الإ تفاق لصالح شركة ت .ت .ت . بل كان المشروع كله فى البداية ثمرة لخُطّة طويلة بدأها رجاله بالنَّشر فى الصحف تعليقا على مقالة معاويه زغلول عن هروب الإستثمارات الأجنبية من أوفريسيا بسبب سوء حالة الإ تصالات . و بعد الحملة الصحفية الضارية التى خَيَّلت لشعب أوفريسيا أنهم لن يجدوا الخبز فى اليوم التالى إن لم يبدأ مشروع التليفونات تقدّمت هيئات عديدة ــ كان معظمها يتبعه ــ بدراسات جدوى أوضحت أهمية المشروع وجدواه الإقتصادية . بل وأكّدت أيضا أنّ تأخَر تنفيذ هذا المشروع إلى الآن نوع من العار القومى الذى يجب أن يُمحى . ووسط طوفان النّشر والبرامج الإذاعية والتلفز يونية أسقط فى يد المعارضة بعد أن أصبح أى نقد للمشروع خيانة وطنية . ولقد واجه الجميع باحتقار شديد تلك الآراء التى رأت أن هناك أولو يات يجبُ أن تسبق مشروع التليفونات . وصدرت فتوى خبيثة من الجماعات الدينية المتطرفة أنه لا يحل لأحد تركيب تليفون بينما يوجد فى الأوفريسيين جائع . وقال آخر أن مشاريع الزراعة والمياه أولى بالاستثمار وأنه لا يحق بناء مشاريع مكلفة إلا من إنتاج أوفريسيا وليس بالقروض . لكن أخطر الاعتراضات جاء من توَصُّل بعض فئات المعارضة إلى ما يّدعونَ أنّه جزء من تقرير الشهيد العظيم اللواء محمد بدوى حيث ادّعوا أنّه ورد بالتقرير أن جهاز الإشارة فى الجيش قادر على تنفيذ المشروع كله بما لا يتجاوز مائتين وخمسين مليون أوفريس .

والخطير أنّ الملاعبن قدّموا مستندات رسمية عن سوابق أعمال لجهّاز الخدمة المدنيّة فى الجيش وأثبتوا بما لا يدع مجالا للشكّ صِدق وجهة نظرهم وصحّة حساباتهم .

والحقيقة أنّ ردّ الأجهزة الرسمية على كل هذه الاعتراضات كان بليغا . فبالنسبة للأولويات حذر كبار الصحفيين من حالة التردى العقلى والتخلف للقومى الذى تعيشه أوفر يسيا مترددة خلف كل مشروع حتى كادت تصبح مثل الحمار الجائع العطشان الذى وجد كلأً وماءً فأخذ يذهب إلى الماء فيتذكر انه جائع فيتركه و يذهب إلى الكلأ فيتذكر أنه عطشان .. وظلّ يفعل هذا حتى مات .. و بالنسبة لفتوى الجماعات الدينية المتطرفة فقد صدرت فتوى منْ شيخ جامع أوفر يسْيا الكبير أن هذه الجماعات تحرم ما أحل الله وأنّها لذلك جماعات كافرة .

وصدر بعد ذلك بيان رسمي من قيادة الجيش أن الشهيد العظيم اللواء محمد بدوى لم يكتب أى تقرير طوال حياته عن التليفونات ولا عن غيرها . وأن مطلق هذه الشائعات المغرضة يستخفون بعقول الجماهير . وكأن الشهيد العظيم كان يملك الوقت لكتابة مثل هذه التقار ير بين مهامه الجسام . وتحدّى التقرير صُحف المعارضة الكاذبة أن تقدم أىّ دليل صدقها . وكتب الصحفى الكبير بوخليل المسعودى مقالة رائعة بعنوان « هؤلاء المجرمون » ركّز فيه على تلك الشائعة الخبيثة حول ما يسمى « بتقرير اللواء محمد بدوى » والذى أصبح دون أى أساس أسطورة يضيف إليها كل من يسمعها شيئا من عنده كى يخلقوا فى النهاية كائنا أسطوريا من لا شئ . وأكّد بوخليل السعودى أن الشهيد العظيم كان صديقا شخصيا له . وأنّه كان يولى فى مشاريع الجيش أهمّيةً خاصّة لمشاريع الإتصالات مدركاً أنّها ثورة عظيمة فى العصر الحديث وأنه لا توجد دولة تستطيع اللحاق بركب العصر دون أن تحقق هذه الثورة . وكشف بوخليل السعودى سرا خطيرا وهو يناقش ما قدّمته صحف المعارضة من مستندات حول عملية التليفونات التى قامت بها هيئة الخدمات المدنية بالجيش .. فأكد أن المستندات التى نشرتها هذه الصحف صحيحة .. لكنها حقٌ يراد به باطل .. لقد قالوا أن هذا المشروع قد تكلّف خمسة ملايين أوفر يس بينما وصلت العروض العالمية فى المناقصات لإنشائه إلى خمسة وستين مليون أوفر يس .. وهذا كلّه حقيقى .. لكن هذه الصحف الكاذبة لا تعلم أن هذا المشروع الآن جثّة هامدة لكثرة الأعطال فيه ... وفي حرارة بالغة أشهد الله — لأنه لم يكن هناك شهود آخرون — أن الشهيد العظيم محمد بدوى قد أبدى أشد درجات الندم على هذا المشروع .. وأنه قال له شخصيا هذا الكلام قبل موته بأيام معدودة .. وانتقل بعد ذلك الى طُرق المعارضة المخرّبة فى تحميل كل أكاذيبها على أساطر واهية مؤكدا أن هذه المعارضة لو كانت تنطلق من أساس وطنى سليم لما اهتمّها آن تَسنِد أقوالّها المرسلة الى آخرين تستمد منهم القوة والدليل . وانتقد بعنف شائعات الرعاع التى لا تستطيع تبرئة المعارضة منها وإن كانت لم تجرؤ على النطق بها صراحة حول استشهاد اللواء العظيم .. وقال

بوخليل المسعودى بمرارة أنهم لم يتركوا شيئا شريفا الا لوثوه ولا حادثة عارضة إلاّ حاولوا أن ينصبوا حولها الأقاويل. ثم أكّد أنّ الشهيد العظيم كان معه صبيحة اغتياله حين قرّر فجأة الإنضمام إلى فريق التفتيش فى الطائرة المشئومة والذى لم يكن من المتوقع أصلا اشتراكه فيه بعد هذه الحملة المكثفة تمّت الموافقة على مشروع التليفونات الهائل. واعتمد مجلس الأعيان المشروع فى خمس دقائق. كانت ملفات المشروع تزيد على خمسة آلاف صفحة وقد سُلّمت للمجلس صباح يوم المناقشة. وكان معظمها بلغات أجنبية لايعرفها أعضاء المجلس الموقر.

وتم بعد ذلك تنفيذ المشروع العظيم الذى كان بحق مفخرة لأوفريسيا كما أنه مفيدا للجميع. خاصة أولئك الذين حققوا استفادات مباشرة. وكان المايسترو خلف كل شئ..

سرب أعوان المايسترو فى الخارج إلى موظف فى أحد البنوك الأجنبية أسرار العمولة ومستنداتها. ودُفِعَ هذا الموظف بتوجيه نفسى دقيق إلى الاتصال بأحد معارف الكاتب عبد الله حلمى النديم. وفى نفس الوقت تكفّل طرف آخر بإشعال حماس الكاتب للحصول على هذه المستندات.. وهكذا انفجرت المشكلة.

وصلت الطائرة واستقلّها المايسترو فى طريقه إلى الإمبرائيس وفى الطريق استمر يفكر.

كان نائب رئيس الوزراء من ذلك الصنف الأحمق الذى لا يرى أبعد من أرنبة أنفه. لم يكن من المُقَنّعين وإن كان واحداً مِمّن تم تجنيدهم. وكانت هذه الفئة مِمّن يمكن التضحية بهم فى لعبة السلطة. كان فى تخطيط المايسترو أنّ شَغْل ذهن الامبرائيس بالفضائح فى مؤسسة الرّئاسة أمرٌ هام. إذ يجب أن يظلّ دائما يدور حول نفسه شاكّا فى كلّ من حوله. كذلك كانت فكرة المايسترو قد تَضَجّتْ لإنجاز أمرين: أولها أنه أوشك على استنفاد اغراضه من موسى الدهان وعليه أن يُعِدّ لخَلَفِه، لكنّ الأمر الهام والأخير الذى يجب على موسى الدهان أداؤه هو إنشاء «مركز التحكم والسيطرة» تلك الفكرة التى كانت نواة علاقة المايسترو بالإمبرائيس والتى دفع له فيها عشرة ملايين أوفريس لم يفاتحه بشأنها منذ ذلك اليوم.

عندما وصل إلى الإمبرائيس وجده مازال يتميز غيظا. قصّ عليه الحكاية بتفاصيلها فسمعها المايسترو بشغف من يعرفها لأول مرة. بعد أن انتهى الإمبرائيس من حكايته صرخ فيه:

— والآن ما رأيك؟ هل مازلت مصرّا على عدم إذاعة القرار؟

علت وجه المايسترو ابتسامة تقطر رقة وهو يقول:

— لا يؤلمنى فى الحكاية كلّها سِوَى انفعالك الآن. أنت تعلم أنّ صحتك ليست مهمّة لأصدقائك الذين يحبونك فقط بل لأوفريسيا كلها.

رقّت ملامح الإمبرائيس بارتواء عواطفه ،ولانت نبرات صوته وهو يقول :

— لكنك توافقنى بالطبع على أنْ يلقى هذا الكلب المجرم جزاءه قال المايسترو بلهجة خبير يلاطف طفلا .

— أوافقك ؟.. من البداية من يجرؤ على عدم الموافقة على أمر أصدرته . أنت القائد .. ونحن مجرد أدوات للتنفيذ فى يديك .. لكنّ هذه الأداة قد تكون مصباحا يضئ للإمبرائيس ركنا مظلما .

تحولت ثورة الإمبرائيس إلى استرخاء نشوان يستجدى المزيد من تدليك مشاعره .. فقال بهدوء :

— ماذا تقصد

أدرك المايسترو أنه سيطر عليه تماما ...

— أقصد أننى أوافقك على عقابه لكننى لا أوافقك على تحويله إلى بطل .

تساءل الامبرائيس فى استنكار من يتلذذ بالحوار:

— بطل ؟

فأجاب المايسترو:

— أنت تعلم أكثر منا جميعا طبيعة الرعاع فى أوفريسيا ، ما أن تحيله إلى المحاكمة حتى ينقسم الناس بشأنه . قسم سوف يبدأ بالعطف عليه ثم يلبسونه ثوب البطولة بعد ذلك ناسجين حوله أساطير وخرافات مثلما فعلوا مع الشهيد محمد بدوى .. وقسم آخر سوف ينظر إلى السلطة كلها بشماته .. فليس فى النهاية سوى أحد أفراد السلطة .. وإذا أمكن عمليا أن يكون أحد أفرع السلطة لصّا ، فلماذا لا تفترض الجماهير الحمقاء أنّ السرقة تتسلل من الجذور، من قلب السلطة وفى كل من الحالين نحن الخاسرون ..

اكتسى وجه الامبراثيس بملامح طفل أدرك أنه أوشك أن يتسبب فى كارثه .. فأردف المايسترو:

ـ أوافقك على عقابه . لكننى لا أتعجل هذا العقاب فهو ليس إلا فأرا جبانا بين أيدينا ويمكننا سحقه بأحذيتنا فى أىّ وقت . المهم الآن أن ندافع عن شرف السلطة وكرامتها ، فمها حدث يجب أن لا ننسى أن أهمية السلطة كلّ لا يتجزأ . وأنه اذا سمحنا نحن اليوم للرعاع والمعارضة أن تتناول بألسنتها نائبا لرئيس الوزراء فما هو الضمان الذى لا يجعل أولئك السفلة يهاجمون غدا رئيس الوزراء .. ومن يعلم من يهاجمون بعد غد .

همس الإمبراتيس :

ـ الحمد لله أننى انتظرتك .

كاد أن يعترف بأنه وقع فى خطأ جسيم لكن كبر ياءه كإمبراثيس صدّه عن الاعتراف فواصل :

ـ لكن كيف نعالج المشكلة الآن ؟

ـ أوّل شئ أن تأمر سيادتكم بسحب قراركم بإقالته وإحالته للتحقيق .

ـ ثم ماذا ؟

ـ ثم تتكاتف السلطة كلها لمساندته والدفاع عنه .

اختلجت يد الامبراثيس فيما يشبه حركة اعتراض مجهضة تراجَع عنها سر يعا تراجُع من يخشى الاتهام بالغباء بسبب عدم قدرته على الفهم .
وواصل المايسترو حديثه :

ـ يجب أن تتكتل أجهزة الدولة كلها للدفاع عنه . إنّ ذلك لن يقلل حجم إدانة الناس له ، بل سيزيد سخطهم وغضبهم عليه . لكنّ هذا الغضب سيكون غضباً أعمى و بلا

اتجـاه لو ثبت أمامهم بالدليل أنّه لص فلن يوجهوا غضبهم نحوه لأنه سيكون فى السجن . عـندئذ سيوجهون غضبهم لنا نحن .. للطّبقة العليا التى لم يكفّوا أبدا عن الحقد عليها ... أمّا لـو ساندناه حتى يثبت بالمستندات أمام الناس أنه برئ فسوف نزلزل اليقين داخل نـفـوسهم سوف ندفعهم إلى حالة البين بين .... سينتابهم احساس وجدانى بأنه لص . لـكـن الأدلّة العقلية والمستندات سوف تثبت لهم أنه برئ . وهذه الحالة من البين بين هى ما يجب أن نحرص عليها دائما بالنسبة للرعاع ... أن ندفعهم للشك بعد أن يصلوا إلى اليقين .. ثم ندفعهم من اليقين إلى شك آخر ثم إلى يقين يثبت أنه كاذب .. وأن يتبلور هـذا إلى احـسـاس بـرفـض الـشـك والـيـقـين معا .. بمرحلة من التذبذب والتردد تنهش كـالـسرطـان فى إرادتهم .. وقـد يـدرك بـعـضـهـم حـقـيقة اللّعبة لكنّهم برغم ذلك لن يـسـتـطـيـعـوا فـكـاكـا .. وسوف يظلّون مترنّحين اعياء بين يأس لا يدفع إلى ثورة ورجاء لا يجـاب . مـن أجـل ذلك كلّه يجب أن تُتّخذ الإجراءات القانونية لتحويل نائب رئيس الوزراء إلى المحاكمة .. لا يوجد قانون لمحاكمة الوزراء .. فليصدر .. سيستغرق شهورا .. فـلـيـستغرق .. ولنترك هذه الحيوانات الجائعة تتلمظ إنتظارا للفريسة .. لكنها فى النهاية لـن تجـد فـريسة تلتهمها بل حكما بالبراءة .. وفى أوفر يسيا لا يستطيع أحد أن يطعن فى نـزاهـة الـقـضـاء .. سوف يكون لنا نحن بعد ذلك أن نفترسه كما نريد أو أن نحوله بعد كـشفه إلى مجرد خادم حقير ينفّذ لنا كل ما نأمره به بمنتهى المذلة والمسكنة .. ولن يقتصر الأمـر على ذلـك فـقـط . بل سيتجاوزه إلى تحطيم ذلك الكاتب المغرور الذى تجاوز قدره ودوره والمسمى بعبد الله حلمى النديم . إن الرعاع جميعا وصحف المعارضة كلّها تنظر الآن اليه بانبهار وكأنه القى على السلطة قنبلة ما تلبث أن تنفجر .. يجب أن تثبت لهم أن صاروخه الـنـووى لـيـس الاّ صـاروخ أطـفـال مما يستعمل فى الكرنفالات والأعياد . ويجب أن نثبت لأولئك الحمقى الذين يعبدونه أنه كاذب .. وبحكم قضائى .

كـان الإمبـراثيس قد انكمش فى مقعده تماما بينما تضخمت أمامه صورة المايسترو حتى أصبح تـمـثـالا من تماثيل آلهة الحكمة القديمة ..... كان يدرك أن أى حديث له الآن مجرد لغزو وعبث أطفال ... لكنه حاول أن يغطى على احساسه بالعجز بأن يقرن نفسه بالمايسترو فقال :

— الحـقـيـقة أننى أشعر أنك أنت وحدك العقل الكامل الذى يتجاوب مع عقلى . الباقون جميعا أغبياء .

و بـرغـم أن الـكـلـمة كانت تمثل تكريما كبيرا من الإمبراثيس للمايسترو إلا أنه كبح بعنف

غضبا هائلا اجتاحه . فى لحظة خاطفة سقطت عن الامبرائيس كلّ هالات السلطة والعظمة وسنوات الزمن ليعود إلى ذلك الشخص التافه الذى طالما احتقر قديما .. **موسى الدهان ..**
سيطر المايسترو على انفعالاته بأعصاب فولاذية وهو يرد على تحية الامبرائيس :

— **لسنا جميعا الا جنودا لك .**

تملكت روح المزايدة **موسى الدهان** . كان يشعر أنه منبهر بالمايسترو وأراد أن يقلب الوضع **فيبهر المايسترو:**

هل تعلم أن هناك فكرة عظيمة تراودنى منذ زمن .. سوف تكون مفاجأة لك لكن هذا هو أوانها .... سوف أنحّى نائبى الحالى وأعينك نائبا لى مكانه .

امتلأت عيناه بنشوة الإنتصار وهو يرمق ملامح المايسترو مترقبا علامات الإنبهار على وجه .. وكان المايسترو و يغالب مرّة أخرى إحساسا جارفا بالغضب .. كما لو أن عاهره طالبته بالزواج **بعد ليلة متعة التزم المايسترو بالصمت فواصل الإمبرائيس :**

أعلم أن الأمر مفاجئ لكننى فى الواقع لن أجد أفضل منك . أنت الوحيد فى كل من يحيطوننى العازف عن السلطة ، ولم تطلب لنفسك شيئا أبدا . سوف أصدر هذا القرار اليوم .

هتف المايسترو بارتياع :

— **لا ..**

أفلتت الكلمة منه كصرخة لم يذبها عقله قبل انطلاقها . وذُهل الإمبرائيس إزاء ردّ فعل المايسترو الذى التقط أنفاسه وواصل :

— أنت تعلم مدى حبى لك . وهذا الحب لم ينشأ من فراغ .. وإنما ينبنى على أساس راسخ من الصراحة والصدق والقدرة على التفاهم دون كلمات .... ولقد تعودنا دائما أن لانصل إلى قرار دون أن نمحصه عقليا بصورة مجردة تُستعمل فيها الكلمات بمدلولها الحقيقى وليس بالمدلول الكاذب بين الناس .. جمدت ملامح الامبرائيس **وهو يقول :**

— هات ماعندك.

إعتدل المايسترو فى جلسته واكتست ملامحه بتلك السحنة الرهيبة التى لاتتكرر إلاّ عند مناقشة أمر جادّ و بصورة عميقة :

— يجب أن نحدد أولا ماهيه الإمبرائيس .. صفاته .. وظيفته الغرض منه .. مسئولياته ثم أخيرا مدى أهميته للنظام.

رد الملك فى جفاء الغاضب من رفض مكرمته

— تلك كلها أشياء يحددها الدستور..

رد المايسترو:

— الدستور ليس إلا عقدا شرعيا لعلاقة غير شرعية. يجب أن نعترف بهذا. كعقد عرفى لزواج متعة، وثيقة تُمكّن الرجل أن يستمتع فى الوقت الذى يريده دون تحمل أى مسئولية. وسيادة الإمبرائيس يعلم أنه فى كل الدنيا يستخدم الحاكم من مواد الدستور مايفيده و يقمع مايقيده. الدستور فى النهاية ليس إلا مخالب وأسنان ننشبها فى جسد من يحاول التمرد. إنه لعبتنا التى نسيطر بها على الجماهير العمياء فيجب أن لانخدع نحن الآخرون به. الدستور سلاح كأى سلاح آخر.. لايستفيد منه إلاّ من يملكه... إلتزم الإمبرائيس الصمت والحيرة تعلو وجهه فواصل الامبرائيس :

— فلنعد إلى موضوعنا .. ماهى وظيفة نائب الإمبرائيس .. أن يظل فى كواليس الحكم أعواما يتدرب فيها على أصول الحكم وفنونه .. مجرد تلميذ ليس من حقه أن يتخذ قرارا أو أن يبدى رأيا ....

إبتسم المايسترو وهو يدرك مدى توتّر الإمبرائيس محاولا تخفيف حدته قائلا :

— النائب الطيب كالماء الجيد عديم اللون والطعم والرائحة.

الا أننا لو اقتصرنا على هذا لكان بحثنا للأمر تبسيطا مُخلاّ معقّد .. إننا ننظر للنائب كما نراه

نحن .. لكننا لكى نفهم الأمر فهما حقيقيا يجب أن نكمل الصورة بأن ننظر إليه كما يرى هو نفسه ..

تساءل الامبرائيس فى مزيج من السخرية المغلفة بالملل :

ــ وكيف يرى نفسه ؟

واصل المايسترو كما لو كان لم يسمع الإمبرائيس :

ــ إن هدوء نائب الامبرئيس وصمته ورقته و وداعته أو حتى عنفه ليست جميعا صفاته الأصلية . إنه يمحو و يذيب ذاته في ذات الامبرائيس كى يكون محل ثقته ، إنه يكون هادئا عندما ير يد منه الامبرائيس آن يهدأ .. و يصمت حين لا ير يد الامبرائيس آنه يسمع صوته .. ثم هو لا يثور بناء على تفاعلات داخل نفسه .. بل يثور و يعنف عندما ير يد منه الامبرائيس أن يفعل ذلك .. حتى بدون أن يعرف لماذا يثور ولماذا يعنف .. وإن ذلك السكون الظاهرى ليس إلاّ البذرة الكامنة لعنف سينفجر ذات يوم . ذلك وجه من وجوه النائب ..

تساءل الامبرائيس وقد بدأ الاهتمام يحل محل الضّجر :

ــ وهل هناك وجوه أخرى ؟

أجاب المايسترو:

ــ أجل .. فليس لشئ فى الدنيا وجه واحد .

ــ ماهى ..زدنا ..

ــ هناك الوجه الآخر لعلاقة النائب بالإمبرائيس .. الوجه الآخر للسمع والطاعة والخنوع والاقتناع الكامل بكلّ شئ والإحترام حتى التقديس .. إن هذه المشاعر والأحاسيس كلها مجرد تعبير مقلوب عن إحساس النائب الحقيقى .. إنه يكره الإمبرائيس بنفس

الدرجة التي يدعي أنه يحبه بها . ويحتقره بنفس الحجم الذى يدعى احترامه به وهو يتمنى له الموت كلما دعى له بطول البقاء .. إن كل يوم جديد فى حياة الإمبرائيس هو يوم مخصوم من حياة نائبه ، خاصة فى نظام كنظام أوفريسيا درجت العادة فيه أن يخلف النائب الامبرائيس فى الحكم .. وإن النائب بحكم موقعه هو أقرب الناس للإمبرائيس .. هو الوحيد الذى يرى صفاته البشرية أكثر من أى انسان آخر .. انه يراه بملابس النوم أو حتى بلا ملابس عندما يتناقش معه الامبرائيس فى شئون الدولة والمدلك يدلك جسده العارى .

بدت من الامبرائيس انتفاضة عند سماعه الجملة الأخيرة فقال المايسترو:

— أعذرنى إن كنت أتجاوز حدود اللياقة لكننا نناقش أمرا من أهم أمور الحكم .. إنه يرى غضبك وهدؤك .. سخطك ورضاك .. يأسك وأملك .. تفاؤلك وتشاؤمك .. وهو بحكم موقعه أيضا يرى الميزات الهائلة التى يستحقها منصبك .. لكنه داخل نفسه يشك دائما فى مدى جدارتك بهذه الامتيازات لأنه يرى نفسه أولى بها . إنه يرى أنك عشت أكثر مما يجب .. واستمتعت أكثر مما يجب .. وأن دوره قد حان .. وأن كل يوم جديد تقضيه فى الحكم هو اغتصاب لحق أصيل له ... إنه عندما يسألك عن أحوالك لا يتمنى لك إلا السوء .. وعندما يسألك عن صحتك لا يتمنى لك إلا الموت ... إلا أنه لا يستطيع إلا الإدعاء بأن روحه ودمه ليست فداء لك فقط بل فداء لقلامه ظفرك . ثم هو بعد ذلك كله يضخم عيوبك و يبخس مزاياك ، وفى الوقت نفسه يلغى عيوب نفسه و يضخم مزاياها . وهذا التناقض العنيف بين مايبطنه النائب ومايظهره يجعله قابلا للانفجار فى أى وقت .. هذا وجه آخر من أوجه النائب .

كان الذهول قد استبد الامبرائيس فقال :

— إن الأشياء تبدو أحيانا بلا وجود حتى تتكلم أنت فيها فإذا هى الوجود الوحيد .

رد المايسترو بلهجة أستاذ :

— إنها موجودة دائما لكنها فقط تنتظر العقل الذى يحللها إلى عناصرها الأصلية .

غطى الإمبرائيس على ذهوله متصنعا المرح :

— إذا كانت الأعمال بالنيات فإن كل نائب يستحق الإعداد على نواياه

رد المايسترو:

— وهذا هو الوجه الثالث الذى أريد أن أناقشك فيه ... لقد تعود الإمبرائيس منى الصراحة المطلقة .. ولقد حرصت دائما أن أكون بعيدا عن المناصب رغم أنك تمنعها عني . وكان هدفى من ذلك أن يظل إخلاصى لك نقيا لاتشوبه شائبة .

قال الإمبرائيس مسلّما :

— أعترف لك بهذا .

واصل المايسترو:

— إذن فليسمح لى الامبرائيس أن أقرر أن طريقة اختيار النائب خاطئة تماما .. لقد لاحظت أن أساس إختيار النائب طوال الأعوام الماضية تعتمد أساسا على صفة واحدة : أن لا يكون له دخل بالسياسة العامة للبلاد .. أن يكون هادئا ومطيعا ودمث الخلق ومؤدبا ..

انفجر الملك مقهقها فى دهشة وهو يقول :

— هل تريدنا أن نختاره شرسا أو وحشا ..؟

أجاب المايسترو فى هدوء :

— الحكمة تجرى على لسانك . هذا هو ما ينبغى أن يكون النائب عليه بالضبط .

كانت حيرة الإمبرائيس أعظم من أن يخفيها فهتف :

— الواقع أنى لا أفهمك .

—

إننا جميعا لا نفهم الأشياء عندما ننظر إلى ظاهرها :

—

أوضح :

—

يعلم الإمبرائيس أن مجتمعنا فى أوفر يسيامجتمع غير متجانس . إننى أعترف أن الغالبية العظمى تحب الإمبرائيس .. لكننا ينبغي أن لا نهمل البقية . تلك الشراذم المتناثرة فى المعارضة وفى الشارع . بل والأكثر من ذلك أن بعض هذه الشراذم قد نجحت فى التسلل إلى صفوف السلطة . فى الجيش والشرطة مثلا . إن هذه الشراذم الخائنة لاترضى بحكم الإمبرائيس . وهى تبحث عن بديل آخر فما هو البديل المتاح أمامها .. البديل القوىّ الذى يملك علاقات متشعبة بالطبقة الحاكمة تجعله مؤهّلا لقيادتها . إن أهم المؤهلين هو نائب الإمبرائيس .. إنه يتمتع بوضع مثالى شديد الخطورة ... لأن من يحبونك يحبونه هو أيضا لأنه نائبك .. وإيمانهم به جزء من إيمانهم بك لأنك أنت الذى اخترته . والمعارضون لك أيضا يراهنون عليه .. على التناقض بينك و بينه وعلى فهم لحقيقة شعوره نحوك . فَهُمْ يحبّونه لأنّهم يكرهونك .. ولأنهم يرونه البديل الوحيد المتاح عنك .

هتف الإمبرائيس وقد لاح له أنه كان على شفا حفرة كاد أن يهوى فيها :

—

إنه بهذا يتحول الى زعيم مؤكد لمشروع انقلاب قد يحدث فى أى وقت .

أجاب المايسترو:

هذا هو الواقع

قال الامبراثيس فى لهجة حاسمة :

—

يجب أن يلغى هذا المنصب فورا ..

فأجابه المايسترو:

—

تلك نقطة جديرة بالدراسة والبحث . إن الأدلة المنطقية تؤيد ذلك .. لكن ما يبدو أحيانا هو أن الحل الوحيد يكون أسوأ الحلول .

هتف الإمبراثيس وقد بدأ يتضايق من إحساسه أن المايسترو يتلاعب بعقله :

—

كيف إذن .. لقد حيّرتنى .. قل ما عندك دفعة واحدة ..

—

لا يمكن يا جلالة الإمبراثيس أن نقول ما عندنا دفعة واحدة ..

الكلمات كالبناء .. وأنت لا تستطيع أن تبنى الدور الأخير من ناطحة سحاب قبل أن تبدأ من الأساس .

هتف الامبراثيس فى ضيق :

—

تكلم .

صمت المايسترو قليلا كأنما يستجمع أفكاره التى شتتها ثم قال :

—

سواء وُجد نائب للامبراثيس أو لم يوجد فسوف يكون هناك دائما الرجل الثانى فى

الإمبرائيسية .. سوف يكون هناك دائما أقوى رجل بعد الإمبرائيس .. تلك هى سنة الطبيعة .. وإن الجهد الخلاّق الذى يجب أن يبذله ليس فى محاربة سنن الطبيعة وانما فى ترويضها لاستغلالها لمصالحنا . لعلك معى الآن فى أن جوهر نائب الإمبرائيس عداوة خطيرة ، وليس مساعدة للإمبرائيس وتأهيلا للحكم من بعده . إلاّ أن الغاء هذا المنصب يحوّل العدوّ الظاهر إلى عدوّ خفىّ .. إنه الآن أمامك و بين يديك .. تستطيع أن تحصى عليه سكناته وحركاته .. بل وتستطيع أن تعد عليه حتى أنفاسه .. وهو برغم كل شئ يعرف دائما أنه يستمد قوّته من رضائك عنه ... فاذا الغيت هذا المنصب سيكون هناك عشرات يتنافسون عليه .. ليس على المنصب نفسه وانما على مركز الرجل الثانى فى أوفريسيا .. سيجد بعضهم دعما ورعاية منك ، لكن آخرين سيبحثون عن مصدر القوة من جهات أخرى فى الداخل والخارج . وبهذا لن يكون مركز الرجل الثانى جامدا .. بل سيتغير كل حين وآخر معتمدا على مئات العوامل التى نستطيع جميعا حصرها أو معرفة كل أبعادها المتشابكة والمعقدة .. و بذلك قد نفاجأ ذات يوم بوضع لم نحسب له حسابا . كذلك فإن الصراع للفوز بمكان الرجل الثانى لن يقتصر على الوصول فقط .. بل إلى محاولة الإحتفاظ به بعد الوصول إليه . وفى محاولة الإحتفاظ له بوضعه .. أىّ فعل .. وذلك قد يكون خطيرا جدا .. فقد يكون مايهدد احتفاظ مثل هذا الرجل بوضعه منافس آخر .. سيسحقه .. وقد يأتى مثل هذا التهديد من عدم تأييدك له .. سوف تكون المعركة بالنسبة له معركة حياة أو موت .. وفى معارك الحياة أو الموت تتوقف المشاعر والأفعال عن التبدى بعكس حقيقتها .. مثل هذا الرجل هو الذى يحمل خطورة الإنقلاب عليك ..

صمت المايسترو.. وصمت الامبرائيس بعد أن بدا عقله مثل محرك سيارة جف زيته ونفد وقوده . وكان المايسترو يدرك أنه غاضب لأن عقله أجهد بعد هذه الجولة الطويلة التى لم يتعود الإمبرائيس عليها . وكان من الضرورى أن يكتسب رضاه فقال :

—

إن المشكلة تبدو كما لو كانت بلا حل . فان وجود نائب لك أمر خطير لكن عدم وجوده أشد خطوره .. لكنك ياسيادة الإمبرائيس بعبقريتك قد وجدت الحل منذ قليل .

إستجاب الإمبرائيس بسرعه للتمديح وارتوى به بعد أن جف حلقه .. تساءل فى بهجة :

— أى حل بالتحديد .

أجاب المايسترو:

— أن تختاره شرسا .. أو وحشا .. أن يخافه الجميع .. المواطنون والمعارضة والحكومة .. أن يروا فيه الشيطان نفسه بينا تكون أنت ملاكهم الحارس . أن تكون سلطاته بلا حدود إلاّ حدودك أنت ، أن يصبح بالنسبة للآخرين خطرا ماحقا لا ملاذ منه إلاّ اللجوء إليك أن يكون مكروها من الجميع .. بل أن يكون سفاحا إذا أمكن .. فذلك ، وذلك فقط هو الذى يدفع الجميع .. رجال السلطة والرعاع والمعارضة الى أن يحافظوا عليك و يتمنوا استمرار حكمك خوفا من أن تذهب أنت فيجئ هو.... وإذا استعرنا تعبيرات الأفندية لابسى النظارات فإنه يجب أن يكون السواد الخالص والشر الكامل الذى يبدو بجانبه كلّ لون أبيضا وكل شر خيرا .. يجب أن تترك له دائما القرارات التى يستاء لها الرعاع .. أن يكون عصاتك التى تؤدّب بها من تر يد .. دعهم جميعا يأتون إليك متوسلين برحمتك من قسوته ... برضاك من غضبه .. بجنتك من جحيمه ، وليكن موقفك عندئذ ماتمليه عليك مصلحة أوفريسيا .. تستطيع أن تصمت اذا كنت تر يد لبطشه أن يستمر .. وساعتها سيكون على الصحف أن تفسر صمتك للناس .. فجلالة الإمبرائيس وسط مشاغله العليا بمصالح الوطن القومية والمصير ية لا يستطيع أن يتابع كل كبيرة وصغيرة وعليهم أن يثبتوا أن النائب أخطأ حتى يتدخل الإمبرائيس .... ولما كانوا لن يستطيعوا أبدا اثبات ذلك فسوف تكون الكرة دائما فى ملعبك تقذفها حين تشاء ... وعندما تتدخل صحافة المعارضة بالتشهير فإننا نستطيع استغلال أخطائها فى كذب بعض ماتنشره لندمغ بالكذب كلّ ماتنشره .. أن نُسفِّهها ونحقِّرها .. وأن نجعل الرأى العام نفسه يرفض أن يتنازل الإمبرائيس لقراءة هذه الصحف الحقيرة .

إن الاذاعة والتلفز يون والكتلة الرئيسية للصحافة فى أيدينا .. ولن يستطيع أحد أن يثبت فيها إلا ماتر يده أنت أن يثبت ... إنك ستعرف ماتر يد أن تعرفه .. أما مالا تر يد أن تعرفه فلن يستطيع أحد إثبات أنك عرفته . هذا من ناحية .. أما الناحية الأخرى فهى أنك ستتدخل أحيانا كى تقلّم أظافره عندما يعتدى على رجالك . سوف تقمعه وتُلغى أوامره وتُصدر عكسها . وستقوم الصحف والإذاعة والتلفز يون ساعتها بإبراز مدى ديمقراطية وعدالة الإمبرائيس الذى لم يرضى عن ظلم اتصل بعلمه .. وأنه لم يَدَعْ أى مسئول فى أوفر يسيا مهما كان حجمه فوق المساءلة ..

ذابت كل أحاسيس الإمبرائيس المتناقضة فى إعجاب هائل بالمايسترو وهو يقول له :

— أنت رائع .. ورهيب ..

اكتسى وجه المايسترو بملامح الخجل وهو يواصل :

— إنك بهذا تكون قد وضعت النائب فى مصيدة .. إنه سيتحمل كل أوزار الحكم .. ولن ينال من ثماره إلا ماتتعطف أنت عليه .. وسيكون الحكم على صفاتك دائما ليس حكما مطلقا وإنما حكما يقارنك به ... فكلما كان هو أسواء كنت أنت أفضل ... ثم إنك إن أبقيت عليه فهذا هو حقك الدستورى الذى لاينازعك أحد عليه .. أما إن قررت عزلة فان قرارك سيصادف هوى جماعيا من الحكومة والمعارضة والشعب ..

إسترخى الإمبرائيس وأسند على ظهره مقعده مغمضا عينيه وهو يتمتم :

— أنت مهندس عبقرى فى بناء أنظمة الحكم . إنك جدير بأن تكون الإمبرائيس من بعدى .

لم يطل استرخاء الإمبرائيس فجأة وهو يتساءل فى شك :

— إننى أتساءل .. هل أنت مخلص لى حقا .. ولماذا ؟

جفل المايسترو للسؤال الذى يكن يتوقعه .

ارتعدت أعماقه بخوف مفاجئ من طفرات الذكاء الحقيقى التى تنبثق أحيانا من ذكاء الإمبرائيس المنحط .. حصى الصحراء والجبال أحيانا لايخلو من الماس الحُرّ . كان عليه أن يقدم له اجابة تقنعه . أعمل فكره بسرعة ضحكة واثقة وهو يقول يقول مالا يؤمن به قط :

— ثمة أشياء تبدو لفرط وجودها غير محتاجه لدليل .. أنا لم أفكر فى إجابة عن هذا السؤال أبدا .. لكن لاأحد ينكر جهودك فى ارساء الاستقرار فى أوفريسيا . أن هذا الاستقرار فى جوهره ليس مجرد استقرار النظام ولا ثبات الطبقات فى المجتمع فقط . إن وحدانية الحاكم ووحدانية الله ووحدانية الأب هى الأساس لأى أستقرار نفسى ، ليس لكل مفكر فقط بل لكل مواطن أيا كانت درجة ثقافته . وهكذا ترى أن الايمان بك والاخلاص لك شئ لايزيدك أنت بقدر مايلاسخ توازننا النفسى .

و برغم أنه لم يبدو على الإمبرائيس أنه فهم الا أنه أظهر الأقتناع .

أصدر الإمبرائيس قرار بسحب القرار الخاص بإقالة نائب رئيس الوزراء والغاء تحويله للمحاكمة. وأرجأ إصدار أوامره التليفونية لرؤساء تحرير الصحف الحكومية بالدفاع عن نائب رئيس الوزراء إلى المساء.

عندما أستأذن المايسترو للإنصراف كان واثقا أن الإمبرائيس لن يسمح له وأنه سيستبقيه للعشاء، إلا أنه أراد باستئذانه أن تبدو بقية اقتراحاته كأنما جاءت عفو الخاطر.

تحدثنا فى شئون البلاد كثيرا. كان المايسترو مترفعا كطبيعة دائما إذاء سوقيه موسى الدهان وهو يروى له فضائح رجال السلطة، و برغم إستهجانة لوضاعته فقد ضحك كثيرا.
إستداراك الإمبرائيس فجأة وكأنما وأوشك أن ينسى أمرا هاما:

— من ترشح ليكون نائبا لى كى يطابق مواصفتك كان المايسترو هذا السؤال وكان يعرف من سيُعَيَّنُ أخيرا لكنه كان حريصا أن يكون الاختيار فى ظاهرة اختيار لإمبرائيس فأجاب:

— نحن جميعا رهن إشارتك.. ولقد قمت بواجبى تجاهك وتجاه الوطن فى طرح الأسس النظرية.. نحن علينا أن نفكر فقط.. أما القرار والإختيار فهما لك وحدك.

أطرق الإمبرائيس طويلا وهو يفكر ثم أشرقت ملامحه فجأة وهو يهتف:

— لقد وجدته.. لن يخطر لأحد على بال.. لن يتخيل أحد أن أفعل ذلك.. حتى أنت بذكائك لن تتخيل..!!

تساءل المايسترو متصنعا الفضول:

— هل من حقى أن أعرف ؟

أجاب الإمبرائيس بنبرة انتصار:

— وزير الشرطة.

— هتف المايسترو متصنعا الدهشة

- وزير الشرطة .

ضحك الإمبرائيس وهو يفرك يديه قائلا :

- ستكون ضربة مذهلة للجميع .. إن الجميع ينتظرون بفارغ الصبر أن أنقله إلى وزارة المحليات .. بل أن معظمهم يتمنى أن يراه فى السجن .. كم سيكون ممتعا موقف المعارضة وهى ترى أعدى أعدائها نائبا للرئيس . إننى عندما أضع نظرياتك موضع التطبيق أكتشف أن ذكاءك فوق المستوى البشرى ..

إبتسم المايسترو فى خجل لاطراء الإمبرائيس له و برغم ذلك فقد حاول أن يبدو غير مؤيد تماما لأختياره ....، إلا إنه سابق حججه بطريقة تزيد الإمبرائيس تصميما .. فأخذ يحذّر من خطورة ردّ الفعل المتوقّع من الشعب والمعارضة والحكومة .. كان يدرك أنه ستفزّ الإمبرائيس الذى صاح :

- الشعب .. هل تسمى تلك الحيوانات الضالة شعبا ... لقد تعودوا خلال آلاف الأعوام أن يساقوا بالسياط ... أمّا المعارضة فهى الأخرى حيوانات لكنها أشد شراسة .. ومعظمهم إن لم يكن كلهم لم ينضم للمعارضة إلاّ لأنه لم يجد مكانا فى لعبة السلطة . يكتشف الواحد منهم اننى لا أسمع صوته كمؤيد ، فيحاول أن يجعلنى أسمعه كمعارض .. أنت لا تفهمهم مثلى .. جميعهم إن لم يكونوا جميعا يبحثون عن المال والسلطة ولنظرة رضاء منّى .. لقد مارست ـ لمجرد التسلية ـ أن أشير بمجرد إشارة لأعلاهم صوتا فى المعارضة .. أن ألمح لهم بمقعد فى السلطة أو مجلس الأعيان فإذا بلعابهم يسيل فى شبق كمراهق وجد ضالته .... هذا عن المعارضة .. أما عن رجالنا فليسوا إلاّ خدماً لى .. وهكذا ترى أن الشعب والحكومة والمعارضة ليسوا إلاّ صفرا كبيرا بلا قيمة .

واصل المايسترو وخطته فقال :

- الحقيقة أن برغم إعجابى بشجاعتك وتقدير لقدراتك إلاّ أننى لا أنكر خوفى .

وأطلق الإمبرائيس ضحكة ساخرة منتشية .. وسلّم المايسترو للإمبرائيس ونظرة اعجاب واكبار تنزلق من عينيه .

تطرق الحديث بعد ذلك الى شئون شتى .. وفجأة ضرب المايسترو وجهته بكفّه كما لو كان قد تذكر أمر هاما ..

وجه حديثه للإمبرائيس .

— برغم إعجابى بقدراتك إلاّ أننى تذكرت شيئا هاما .. فبرغم كل شئ يشكل منصب نائبك منصبا خطيرا .. كما أنّ صحفياً مثل عبد الله حلمى النديم يشكل قوة لايستهان بها .. ليس فى حجمه فى حد ذاته بل فى رعونة من يمكن أن يتأثر به فى مجتمع يعشق البطولة بصورة صبيانية . يجب أن يكون للإمبرائيس جهازه الخاص الذى يجعله يتحكم فى النائب والحكومة والمعارضة والشعب .. أنْ يكونوا جميعا مهدّدين . أن يحاولوا تلمّس السلامة بالابتعاد عن كل شبهة للإخلال بالنّظام .

ضحك الإمبرائيس فى حبور وهو يقول :

— أنت متألق اليوم كما لم تكن أبدا .. هات ماعندك .

أخذ المايسترو يتحدث ببطء كما لو كانت الفكرة مازالت تنبت فى رأسه :

— أفكر فى شئ .. يمكنك من السيطرة على الجميع .. مركز .. مؤسسة هيئة .. يكون ولاؤها لك وحدك .. كمبيوتر هائل للمعلومات لا يغادر صغير ولا كبير إلاّ احصاها ... مركز .. أجل .. مركز للتحكم والسيطرة .

استعاد الامبرائيس جلاله وتساءل بصوت فخم :

— مركز للتحكم والسيطرة .. يعجبنى الاسم لكن ما هى وظيفة هذا المركز

أجاب المايسترو:

— يمكن تلخيص وظيفة هذا المركز فى جملتين :
« جريمة لكل مواطن .. وثغرة لكل قانون »

علّق الإمبرائيس ضاحكاً :

— شعار جميل .. لكن ما هو الهدف .

أجاب المايسترو :

— لقد لاحظت أن مجهود السلطة يقتصر على مواجهة المعارضة أو الرعاع بعد أن تحدث الكارثة فعلا . وهذا خطأ فادح وقعنا فيه طويلا مما جعل المعارضة تكسب صفوفا جديدة من الرعاع كل يوم .. يجب أن نصل الى جذور المشكلة كي نستطيع حلها .. كيف تتبلور المعارضة .. زعيم حزبى خبيث يبثّ أفكاره عن طريق صحيفته ومؤتمرات حزبه .. إنه فى حد ذاته بلا خطر ولا قيمة .. لكن العشرات من الشباب الطائش يستمعون له و ينبهرون به .. و يفرخ العشرات مئات وتفرخ المئات ألوفا .... كل واحد منهم عبارة عن كيان أجوف تقرع فيه طبول مدوّية تناديه لبطولة حمقاء .. كل واحد منهم يتخيل نفسه فى يوم من الايام زعيما لحزبه .. يلقى عشرات الخطب فى نفسه و يتخيل آلاف الأيدى تصفق له وآلاف الحناجر تهتف بحياته .. عندما يفرغ وجدان الإنسان ووجوده من كل محتوى إلاّ هذا الوهم فإنه يكون مستعدا لأن يفعل أى شئ .. مستعد أن يتظاهر وأن يقاوم السلطة وأن ينضم الى التنظيمات المتطرفة وأن يقاتل مع المنظمات السرية وأن يشارك فى عمليات القرصنة والإغتيال والإرهاب . وهؤلاء الشباب هم ضالّتنا .. فى قاع الأحزاب يجب أن نبحث وليس فى زعماء المعارضة فقط ... يجب أن يكون لكل مواطن جريمة .... نقطة ضعف لكل إنسان يرُعِبهْ أن يكتشفها الآخرون عنه . خطأ فى ملف الخدمة .. تأخر فى إستخراج رخصة .. موافقة على طلب .. تهرّبُ من الضرائب .. عدم دفع أقساط التأمينات .. مخالفة لقانون .. ويجب أن يكون لدينا عددا هائلا من القوانين بحيث يكون من السهل بتطبيق القانون أن يكون أى مواطن مجرما .. وأن تكون لدينا القدرة عن طريق وسائل الإعلام لدينا أن نضّخمَ من هذه الجريمة بحيث نقضى معنويا على هذا المواطن تماما .. أن نمحق تماما قدرته على التأثير على الآخرين فكيف يتقبله الآخرون وهو لصّ .. وفى نفس الوقت وبنفس القوانين يجب أن يكون لكل قانون ثغرة بحيث يمكننا تبرئة هذا المواطن والرّفع من شأنه إذا ما رجع عن ضلاله وانضم إلى حزب السلطة القومى .... إننا بهذا نقطع جذور أحزاب المعارضة .. وعندما نقطع الجذور سوف تذبل الفروع وتسقط الأوراق .

كان الإمبرائيس يستمع فى اهتمام شديد ولم يتمالك نفسه فعلق قائلا :

ـ يالك من داهية .

وواصل المايسترو :

ـ الا أن قيمة مركز التحكم والسيطرة هذا لن تقتصر على فئات الشعب المختلفة والمعارضة .. بل ستكون أهميّته الرئيسية فى قِمّةِ الحكم .. الوزراء والمحافظون وقواد الجيش والشرطة ومجلس الأعيان .. يجب أن يكون فى يدك ماتستطيع أن توجّه أى واحد منهم كما تشاء تماما فاذا أبى سحقْته .

هز الامبرائيس رأسه موافقا فى إعجاب .. ولاحظ المايسترو فجأة نظرة قلق لاحت فى عينيه أعقبها تأوه من الامبرائيس .

ـ أوه .. هل تتصوّر أننى نسيت تماما ذلك المشروع القديم الذى عرضته علىّ قبل ذلك بانشاء جهاز للرقابة ... لقد نسيت تماما أنك اودعت باسمى عشرة ملايين أوفر يس تحت حساب هذا المشروع .

أدرك المايسترو أن الإمبرائيس يختبره بصورة غبية لكنه لم يتلعثم فأجاب على الفور:

ـ أرجوك أن تبقى هذا المبلغ كما هو الآن فستحتاج إليه فيما بعد .. تساءل الامبرائيس

ـ وكيف نموّل إذن مركز التحكّم والسيطرة ؟

أجاب المايسترو محاولاً أنْ يُزيل كلّ أثر للقلق فى نفس الإمبرائيس :

ـ إن مصادر التمويل متعددة .. ولن ينكص الامبرائيس عن مشروع جوهرى كهذا بسبب مصادر التمويل ..

ثم واصل المايسترو كأنه تذكر فجأة

— لقد قرأت فى مجلة أجنبية لعلها مجلة الاقتصاد العالمى التى تصدر فى دولة الغرب تقريرا يتحدث عن عجز الهيكل الإدارى فى أوفريسيا عن استخدام القروض التى أبرمتها الدولة .. ولقد حدد تقرير هذه المجلة القروض التى لم تستخدم بأكثر من خمسة مليارات أوفريس .

تساءل الإمبرائيس :

— لكن هذه القروض أُبرمت لإنشاء مشروعات أخرى كالزراعة والصناعة ومشاريع الرى .

أجاب المايسترو فى ثقة :

— أولا : إن البنية الأساسية للاقتصاد فى أوفريسيا عاجزة عن الإستفادة بهذه المشروعات فلا يوجد تمويل محلى ولا عمالة أوفريسية تستطيع القيام بها الآن .. وثانيا : كيف نُفكّر فى هذه المشروعات قبل أن نؤمّن نظام الحكم كله ... السؤال الآن هو هل نبنى هذه المشروعات ونترك نظام الحكم ينهار — لا قدر الله — نؤسس نظاماً محكما لحماية الحُكْم كَىْ يكون قادرا بعد ذلك أن ينشئ أى مشروعات يريدها فى دولة يسودها الأمن والأمان .

أطرق الإمبرائيس طويلا ثم رفع رأسه فجأة وهو يقول للمايسترو :

— بغض النظر عن أى شئ وكل شئ فإن هذه الجلسة بينى وبينك بداية تاريخ جديد لأوفريسيا ..

مدت موائد طعام العشاء .. وكان هناك مدعوين آخرين من النخبة الحاكمة كان من بينهم وزير الشرطة .

تصاعدت الضحكات والقفشات .. وبدا الامبرائيس متألقا مجاملا وكريما .. وأخذ يداعب هذا ويحدث ذاك . ثم التفت إلى وزير الشرطة قائلا :

— ما هى احوال المعارضة اليوم .

أجاب الوزير فى لهجة يختلط فيها الحنق بالمزاح بالسوقية

— كلاب أبناء كلاب ياريّس .. لوتركتنى لخيّرتهم جميعا بين أن أخصيهم أو أن يأتوا أمام جلالتكم ساجدين .

وأغرق الامبرائيس فى ضحك عريض .

— ١٦ —

كانت الشهور التالية دليلا حيا على عبقرية المايسترو. كان كفنان عظيم يبدعُ رسمَ لوحةٍ ثم ينفخُ فيها من روحه فتستحيل مناظرها إلى حياة صاخبة .. وكانت الأفكار عنده مشروعا للخلق .. للإبداع ولإعادة التكوين .

تم كل شئ كما فكّر فيه تماما . وتم بجهد خرافى إنشاء مركز التحكم والسيطرة . كان رئيسه أحد الأعوان الخمسة . وكان تركيب هيكله المتشعب فى الداخل والخارج يَخْضَعُ لنظام دقيق صارم يَحرمُ حتى الإمبرائيس من أى سيطرة حقيقية عليه بل يمنعهُ حتى دون أن يدرى الإطلاع على أسراره .. وإمعاناً فى السرّية كان الكمبيوتر الرئيسى الذى يحتوى على معلومات المركز موجودا فى الخارج . كانت المعلومات مبرمجة به على عدة مستويات :

المستوى « ١ » وهو يحتوى على المعلومات كاملة ولم يكن من حق أحد الاطلاع عليها سوى المايسترو ورئيس المنظمة . والمستوى « ب » وهو يحتوى على معلومات خطيرة لكنها غير كاملة وكان من حق الامبرائيس وأعوانه الإطلاع عليها . والمستوى « ج » وكان يحتوى على المعلومات التى يمكن تبادلها مع أجهزة الأمن الأخرى فى الداخل والخارج وكان هذا هو الجزء الرئيسى الذى يتاح للعاملين فى المركز الإطلاّع عليه .

وإزاء ثورة الاتصالات فقد كان يمكن للمايسترو عن طريق تليفون مزود بشاشة تليفزيونية أن يحصل على المعولمات التى يريدها باستعمال الشفرة الخاصة .

إطمان الامبرائيس أن المنظمة فى أيد أمينة يقتصر ولاؤها عليه وانتماؤها إليه . كان عروفا عن بذل جهد حقيقى فى المتابعة .. فليس جديرا به كإمبرائيس أن يولى الأمور التكتيكية اهتمامه الذى كان يليق به أن يقتصر على الأمور الاستراتيجية فقط .

وفى خلال عام واحد طوّر الجهاز من نفسه تطويرا عظيما بإبداع العاملين فيه .... فلم يقتصر

شعار « لكل مواطن جريمة » على بحث الجرائم الحقيقية التى يرتكبها المواطنون فقط بل تعدّى ذلك إلى دراسة كاملة لكلّ شخصية من جوانبها النفسية والإجتماعية والإقتصادية والوظيفية والبيئية بحيث أصبح الأمر يتجاوز الجريمة المرتكبة إلى الجريمة المحتملة التى يمكن أن يدفع المواطن لارتكابها إذا تعرض لظروف معينة . ثم أُضيف قسم ثالث بعد ذلك فى نفس هذا البند عن الجريمة التى يمكن أن تُلفق لهذا المواطن فيصدقها الناس .. كان إبداعا خارقا للعادة ..

أما شعار « ثغرة لكل قانون » فقد تم تطويره هو الآخر الى درجات متعددة . ففى الدرجة الأولى كان يوجد الثغرات العادية الموجودة فى كلّ قانون والتى يمكن للمتمرسين من المحامين استغلالها . وفى الدرجة التالية كان يتم استغلال قوانين منسيّة لم يتم الغاؤها رسميا وإن كانت المحاكم قد كفّتْ عن العمل بها حتى نُسيتْ وبدأ الابداع الحقيقى فى المرحلة الثالثة وهى النفاذ الى القضاء . دراسة تركيبه الدوائر المختلفة . استقطاب الأشخاص المؤثّرين . عمليات غسيل المخ التى تجرى بدون أن يُدرك الضحيّة . فنّ التأثير عن بعد . إستغلال شعار: لكل مواطن جريمة بالنسبة لبعض الدوائر وتهديد قضاتها بصورة مستمرة كمستند أو شريط فيديو أو عرض رشوة أو الإغراء بمنصب . فقد كان القاضى الذى يتوافق مع ماتريده المنظمة يصعد إلى منصب قيادى أو وزارى . لكن الإبداع الأعظم الذى أنجزه هذا القسم كان انشاء « إدارة تفصيل القوانين » والذى كان يضم صفوة مختارة تدرس قوانين الماضى والحاضر واحتمالات المستقبل . كانت هذه الإدارة تتنبأ بظروف معيّنة ستُستجدّ بعد عام مثلا .. فتسن قانونا يبدو فى ظاهره بريئا ولا تدرك المعارضة ولا الرعاع خطورته .. و يقدّم هذا القانون إلى مجلس الأعيان فيوافق عليه دون ضجيج .. وتمرّ الأيام حتى يفاجأ الجميع بوضع مفاجئ لهم فقط يطبّق فيه القانون. وقد استلزم ذلك أن يكون هناك فى مجلس الأعيان أعضاء جاهزون باستمرار لتلقّى الأوامر لعرض قوانين جديدة يوافق مجلس الأعيان على الفور. كان دليل نجاح المايسترو الباهر أنه لم يُسجّل فى تاريخ مجلس الأعيان أنه رفض قانونا واحدا عُرض عليه من قِبَله .

بالإضافة إلى ذلك كله كان هناك قسم رئيسّى فى منظّمة التحكم والسيطرة هدفه جمع كل أنواع المعلومات العلنية والسرية وإخضاعها لتحليل علمى دقيق لا يخضع الماضى والحاضر فقط بل و يسيطر على المستقبل أيضا.

و بعد إتمام إنشاء هذا الجهاز أصبح موسى الدهان مجرد دمية تتحرك من بعيد بالريموت كنترول .

وكانت نشوة المايسترو العارمة أن يرى الإمبرائيس وهو يتخيل أنه مازال صاحب القرار والأمر.

— ١٧ —

أخذت قضية الرشوة الكبرى ــ كما سمتْها صُحف المعارضة ــ دورها الطبيعي الذى ترسمه سيادة القانون. وتقدم نائب رئيس الوزراء بشكوى إلى النائب العام ضدّ الكاتب عبد الله حلمي النديم يتهمه فيه بالقذف والتشهير وكانت الصحف الحكومية والتلفزيون والإذاعة تركز على استدعاء الكاتب للتحقيق معه أمام النيابة فيما نُسِبَ إليه من اتهامات. وإزاء جماهير الدهماء العمياء والتى تعودت أن تكون الحقيقة بالنسبة لها هو ما تنشره الصحف الحكومية فقط بدأت واقعة الرشوة نفسها تتضاءل إزاء الاتهام الموجه إلى الكاتب الكبير بالكذب. ولما كانت هذه الجماهير الغبية لا تحاول أبدا مقارنة ما نُشِرَ بالأمس بما ينشر اليوم فقد كانت الحملة الاعلامية الضخمة ناجحة تماما. تحول التساؤل هل كذب الكاتب. وقد أدرك الكاتب الكبير الفخ الذى ينصب له فتقدم ببلاغ الى النائب العام يطلب فيه التحقيق فى كل الاتهامات التى حوتها مقالاته ضد نائب رئيس الوزراء وليس فقط فى البنود التى احتوى عليها البلاغ الأخير ضده. كان هذا البلاغ يقتصر على ادعاء الكاتب أن نائب رئيس الوزراء قد تدخل لتسلم تجهيزات مخالفة للمواصفات ومسئوليته عن التنازل عن ملايين الأوفريسيات كانت مستحقة لأوفريسيا من الشركة. وتجاهل البلاغ تماما ما أثاره الكاتب فى مقالاته عن موضوع الرشوة.

وفى الصحافة لعب خنفس بوللى دورا عظيما فى القاء مزيد من الأضواء الكاشفة على القضية الخطيرة. كان ذكيا كعادته. وتجنب الاشارة الى موضوع الرشوة مكتفيا بجملة « المعلومات التى حصل عليها الكاتب من جهات أجنبية » وكانت هذه الجملة تحمل إيحاء خطيرا كان خنفس بوللى يثق أنّ قرّاءه سيفهمون مغزاه، وبرغم ثقته تلك فإنه فى آخر مقالاته عن هذه القضية أشاد بروح التسامح فى أوفريسيا تحت قيادة الإمبرائيس العظيم وصرّح خنفس بوللى بأنه لا يذيع سرّا عندما يكْشِف للمواطنين أنّ بعض التقارير رفعت من مؤسسات رسمية تطالب بالتحقيق مع الكاتب عبد الله حلمى النديم لعلاقته المشبوهه بدول أجنبية مكّنته من الحصول على مستندات منها. و بغضّ

النظر عن هذه المستندات مزوّرة فإنّ واقعة حصول الكاتب عليها من الخارج ثابتة باعترافه هو والاعتراف سيّد الأدلّة .. وبرغم توقف خنفس بوللى عن حملته فقد التقط منه الخيط الكاتب الكبير ونيس الخربوطلي والذى أبدى حزنه العميق أن ينتهى الكاتب الكبير عبد الله حلمى النديم هذه النهاية بعد أن عاش عمرا كاملا يحترمه و يقدره برغم خلافه فى الرأى معه ــ فخلاف الرأى فى أوفريسيا لا يفسد للود قضية ــ إلا أنّه فى هذه القضية بالذات لا يستطيع أن يستمر على احترامه لهذا الكاتب بعد أن سقط هذه السقطة بالتعامل مع جهات أجنبية .. وأضاف أن الجميع فى أوفريسيا يعرفون الكثير عن شبكات تزييف المعلومات فى الخارج والتى لا تتورّع فى سبيل ذلك عن استعمال المال والنساء والمخدرات . واستدرك ونيس الخربوطلى قائلا أنه مايزال يحسن الظن بالكاتب الذى كان كبيرا وأنه لا يظن أنه قد تدنى الى هذا الحد من التورط لكنه واثق أن ذكاءه قد خانه فوقع ضحية لعصابة من الخونة فى الخارج تحاول الإساءة إلى أوفريسيا .. وختم ونيس الخربوطلى مقاله النارى بكلمة مؤثّرة قال فيها :

« إننى واثق أن عبد الله حلمى النديم لم يصل إلى حد الخيانة .. لكنه أخطأ خطأ جسيما .. وبعض أنواع الخطأ أشد سوءاً من الخيانة » ثم أضاف فى كلمة تظهر نبل مقاصده : « وبرغم كل شئ فإننى أعتقد أن ماضى عبد الله حلمى النديم .. وإن لم يكن كافيا لأن يجعلنا نغفر له .. إلا أنه يشفع له عند السلطة الا يقدم إلى المحاكمة بتهمة التخابر مع دولة أجنبية فإنه لا أحد فى أوفريسيا يرضى أن ينتهى هذه النهاية المحزنة .. وإذا كان هو لم يحفظ لنفسه قيمتها فلنكن نحن أكثر وفاءً وتقديراً للمسئولية منه .. ولنحفظ له نحن قيمته »

شارك فى الحملة أيضا بوخليل المسعودى وركّز فى مقاله عن الوجه الحضارى لمشروع التليفونات وأنّ عواء الكلاب لن يمنع القافلة من السير.

أما أقسى هجوم فقد جاء من الكاتب الكبير محمد أحمد رئيس تحرير مجلة « أحداث الأسبوع » والذى تحول فى خلال خمس سنوات من أحد كتاب المعارضة إلى نقيب للصحفيين وواحد من أهم كتاب الصحف الحكومية . كان منحرفا مثل الجميع . وتم تصويره بالفيديو والتسجيل له بالصوت وهو يتقاضى رشوة ضخمة من رئيس إحدى الهيئات كَىْ يسلّمه المستندات التى فى حوزته عن انحراف هيئته . وكان وزير الشرطة يريد أن يجعل من هذه القضية فرقعة إعلامية ضخمة ضد المعارَضة . لكن فيروز العسال أشار عليه بأن يساومه . فقد كان يستحقّ المساومة . كان يمتلك أسلوبا بليغا وثقافة واسعة وتأثيرا عميقا فى القُرّاء . كان ضبطه وسجنه سيسئ إلى المعارضة فعلا .. لكن كم كان يستمر فى ذلك .. عاما .. عامين ، ثم ينسى الناس .. فى الجانب الآخر كان الأثر الأشد والأكثر تحطيما للمعارضة أن ينضم هذا الكاتب إلى الحكومة ضد المعارضة .. وأن يستعمل قلمه المعطاء فى هدم أقاويل المعارضة وأكاذيبها . ولما كان منهم فقد كان

أقدر على اقتحام الشغرات التى تهدّم هذا وكانت شروط المساومة بسيطة جدا .. أن تغمض الدولة عينيها عن تصرّفاته مقابل أن يكتب فى صحف الحكومة . كانت هذه الصفقة إنقاذا له من الفضيحة . وكان على درجة من الخلق جعلته لاينسى هذه المكرمة من السلطة أبدا .. فأصبح من أشد الألسنة حدة ضد المعارضة .. وكان وفاؤه جديرا بالخيرات التى انهالت عليه فأصبح فى خلال هذه الاعوام الخمسة مليونيرا .

فجر محمد أحمد فضيحة كبرى عندما كشف عن أحد أقرباء عبد الله حلمى النديم كان من كبار المهندسين فى المشروع وأنه أُبعد عنه حيث لم يكن سلوكه فوق مستوى الشبهات ، وأنه تلكأ عمدا فى استلام ما أُنجز منه معرّضا مصالح أوفر يسيا القومية للخطر. وأن هذا التلكؤ ليس له إلا معنى واحد .. هو أنه كان يريد ثمن توقيعه . وتباكى الأستاذ محمد أحمد على القيم التى تنهار والشرف الذى يوأد . وتحدى عبد الله النديم أن يكذب هذه الواقعة والتى تكشف بملابستها كلّ شئ .. فليس خلف الحملة التى يقودها عبد الله حلمى النديم سوى أغراض شخصية ودنيئة .

وبالرغم من هجوم الصحافة الحكومية الساحق إلا أنّ صحافة المعارضة لم تكفّ عن النشر فى صفحات طوال وموضوعات مثيرة وصور لمستندات تؤكد ادعاءات النديم . أما ما أثاره الصحفى محمد أحمد فقد كان سقطة صحفية سيئة لأنه فتح موضوعا ما كان له أن يُفتح ، فقد نشرت صحافة المعارضة صوره لمذكرة رسمية قدمها المهندس قريب النديم تُوضح أسباب رفضه استلام التجهيزات التى تمت فى مشروع التليفونات موضحا بأدقّ التفاصيل العلمية لأسباب رفضه للاستلام الذى سيهدر ملايين الأوفريسيات . وبعد تقديمه لهذه المذكرة مباشرة أبعد عن المشروع . كان محمد أحمد كالدب الذى قتل صاحبه .. إلا أنه مما خفف من وطأة خطئه أن صحافة المعارضة محدودة الإنتشار ولايقرؤها إلا السفلة . وأن صحافة الحكومة لم تشر إلى هذه المذكرة قط .

لم يكن عبد الله حلمى النديم سهلا .. فقد واصل كتابه مقالات نارية يؤكد فيها اتهامه لنائب رئيس الوزراء كاشفا فى كل مقاله ما إدعى أنّه كارثة جديدة .

وكان موقف السلطة حكيما عندما تكاتفت كلها لتدعيم رجلها . بل إن الاعبرائيس نفسه قد تنازل لتدعيمه بزياره المشاريع الاقتصادية التى أشرف عليها مشيدا بمجهوداته العظيمة فيها .

وكاد عبد الله حلمى النديم يقع فى المحظور عندما فاقت ثورته كل حدود فقال فى مقاله نارية أن حدود القضية قد اتسعت من انحراف مسئول كبير الى انحراف النظام كله .. وأنه لم يكن من الممكن لهذا المسئول أن ينحرف دون أن تكون قمة النظام تحميه وتتستر عليه .

كان النديم يقصد بقمة النظام الإمبرائيسى ذاته . وأكّدت الكاتبه « نعيمة الكبير » هذا المعنى عندما صرخت فى إحدى مقالاتها .

« ليتنا كنا شعبا بلا حكومة .. فشعب بلا حكومة خير من شعب تحمى حكومته اللصوص »

والحقيقة أن استفزاز متعمدا كان يسلط على عبد الله النديم وأشباهه لدفعهم دفعا إلى مهاجمة الإمبراثيس مباشرة .. وكان الجميع يتحرقون شوقا إلى وقوعهم فى هذا الخطأ الذى سيترتب عليه إغلاق ملف القضية الأساسية تماما لفتح ملف قضية جديدة هى « العيب فى ذات الإمبراثيس » وكان القانون صريحا وحازما فى هذه النقطة بالذات . وكان التلبّس بهذه الجريمة يعنى السجن الوجوبى . لكن كتاب المعارضة الخبثاء المنافقين كانوا يتجنبون هذه النقطة دائما . وكانت كتابتهم مليئة بتلميح يتوقف عند حدود التصريح فى هجوم سافل على جلالة الإمبراثيس الذى أصبح فى كتابات هؤلاء السفلة اللص الكبير خلف كل لص . والمزوّر الكبير خلف كل مزور والخائن الكبير خلف كل خائن والغبى الكبير خلف كل غبى .. ولقد تَحتَّ صحافة المعارضة هذا النحو ذاته فى قضية الرشوة الكبرى .

والحقيقة أن الحكومة لاحظت ارتفاع توزيع صحف المعارضة فى هذه الفترة . فقد كان الرعاع فى شوق ملهوف الى تلويث سمعة كل مسئول كبير ..... وكان النشر بهذه الطريقة بين صحف الحكومة وصحف المعارضة يمثل بلبلة للرأى العام يهدد الأمن القومى لأوفريسيا فصدر قرار من النائب العام بحظر النشر فى القضية .

كان الجميع فى أوفريسيا يحترمون قرارات النائب العام . وتوقف النشر فعلا فى تفاصيل القضية . إلا ما عكر الصفو المنتظر أمران . كان الأمر الأول هو أن الدكتور عبد الله حلمى النديم وإن كان قد توقف عن النشر فى قضية الرشوة الكبرى إلاّ أنه واصل كتابته فيما أسماه بقضية الفساد والتى تشمل كل أوفريسيا . كان قلمه يتشنج وكلماته تصرخ — كعادة المثقفين — وهو يؤكد أن الوطن لا يستباح فقط بل إنه يُباع . وفجّر قضايا عدّة كان أبطالها نائب رئيس الوزراء ومسئولين آخرين . تحدث عن مشاريع بالمليارات تنشأ بلا دراسة ولا سبب إلاّ العمولة التى يحصل عليها المسئولون فى إبرام القروض ثم فى إرساء العطاءات ثم فى استلام المشروعات غير مطابقة للمواصفات . و برغم أن معلوماته كانت بالغة الدقة الاّ أن السلطة كانت أقوى من أن يؤثر فيها شئ . واندفع هو بتهور ليقول أن السلطة التى تُغلق أبواب المنطق للإقناع والاقتناع إنما تفتح فى نفس الوقت أوسع الأبواب لأسلوب العنف .. كان الخبيث يمثل هذه الكلمات يشجع حركات العنف المنتشرة فى أوفريسيا . كان يقدم لها المبرر المنطقى والأخلاقى بل والدينى أيضا .

أما الأمر الثانى الذى عكر من صفو السلطة هو أن صحافة المعارضة وإن كانت قد امتثلت لقرار النائب العام بحظر النشر فى قضية الرشوة الكبرى الا أنها تلقفت موضوعا أخر سخيفا يوضّحُ

الى أي مدى كانت هذه الصحافة مازالت تعانى من حالة المراهقة الفكرية التى تغرقها فى أفكار مثالية لاقيمة لها ولاجدوى منها ـ لقد شنّت هذه الصحافة حملة كبرى كى يَسنّ مجلس الأعيان قانونا لمحاكمة الوزرله . بل و بلغت الجرأة والوقاحة بهذه الصحافة أن تؤكد أن خلف كل السرقات الكبرى تقبع أصابع الوزير المختص .

والحقيقة أن الحكومة قد قبلت التحدى فورا وطرح المشروع للمناقشة كان صراخ الأقلية المعارضة فى المجلس عاليا لكن الأغلبية سحقتهم بعد أن أوضحت أن هذه المعارضة العميلة تحركها قوى أجنبية لزلزلة الاستقرار فى أوفريسيا ولإفزاع رؤوس الأموال الأجنبية من الإستثمار وأخذ أعضاء الأغلبية يتبارون فى اظهار مهارتهم اللغوية والقانونية والصوتية ضاربين الأمثلة على ماتمثله النيابة من سيف مصلت على اعناق الجادين من كبار المسئولين الذين يحطمون الروتين و ينسفونه نسفا من أجل ازدهار اقتصاد أوفريسيا .

وانتهت المناقشة برفض الأغلبية للمشروع الذى تقدمته المعارضة وقام العضو الكبير فتحى عبد الآخر ليصرخ فيهم موتوا بغيظكم . ولم يكتف بهذا فقط بل إنه نجح بإقتدار فى أن يكمل الخطة كما لو كانت استجابة منطقية للحماس الجارف لأعضاء الأغلبية فطرح مشروعا بعدم جواز إحالة المرؤوسين إلى النيابة دون إذن من الرئيس المختص . وكانت إحدى المرات القليلة التى لا ينفذ فيها الإمبرائيس مشورة المايسترو الذى لم يأبه لذلك فلم يكن الأمر على أية حال جوهريا .

وأسقط فى يد المعارضة التى كانت تظن أن أقصى فشل ستمنى به هو أن يرفض مشروعها .. فإذا بها تفاجأ لا بفشل مشروعها فقط .. بل بمكسب جديد تحرزه الأغلبية عليها إذ أدرج الاقتراح فى مضبطة المجلس وفى غضون أيام كان قانونا ساريا . وكان هذا القانون يقضى على التسيب الموجود فى الهيكل الإدارى بأوفريسيا إذْما يكاد يختلف مرؤوس مع رئيسه حتى يسارع بإبلاغ النيابة ضده . ولما كان الكل متورطا بصورة أو بأخرى فقد كان لايمكن للعمل أن يسير وسيف النيابة مصلت على أعناق الجميع فى كل وقت .

عندما استدعى الدكتور عبد الله حلمى النديم ليدلى بأقواله فيما هو منسوب اليه فوجئ بتهجم رئيس النيابة القائم بالتحقيق . كان كمعظم الكتاب والمثقفين يعانى من إحساس بتضخم الذات وأنه مهم . ولم يكن يتخيل أبدا أن يظل فى قاعة الانتظار الرثة ساعات طويلة منتظرا الإذن له بالمثول أمام النيابة . وعندما مثل أخيرا بعد أن جُرحَ غروره وكبرياؤه ــ فوجئ بتهجم رئيس النيابة . كانت النيابة فى أوفريسيا صرحا شامخا للعدالة وكان الجميع أمامها سواء . لكن الدكتور حلمى عبد الله النديم لم يكن يستطيع أن يدرك هذا وأخذ يُعزّى نفسه بأن الأمر كله تمثيلية مدبرة للنيل منه وكسر شوكته خاصة لأنه طبقا للقانون كان يحضر التحقيق عضو من نقابة المحامين . لكن عبد الله النديم كان يفسر كل شئ على هواه أقنع نفسه أنهم أنتدبوا واحد من

أعدى أعدائه كى يحضر التحقيق ثم يشهر بعد ذلك به وسأله رئيس النيابة ذلك السؤال التقليدى فى البداية :

— ماقولك فيا هو منسوب اليك (أفهمناه) وأفاض فى الرد . وكان كل حين وأخر يبرز مستندا يأمر رئيس النيابة كاتب التحقيق بإثباته فى محضر الجلسة .

والحقيقة أن رئيس النيابة لم يحاول التأثير من قريب أو بعيد على أقوال الدكتور النديم فتركه يقدّم كلّ المستندات التى أراد أن يقدمها .

و بعد خمسة ساعات طويلة وجه اليه السؤال التالى .

— ماقولك فيا هو منسوب إليك من الإدعاء كذبا على نائب رئيس الوزراء أنه أمر بتسلم تجهيزات مشروع التليفونات الكبرى وهى غير مطابقة للمواصفات .

وبرغم مايدّعية النديم لنفسه من ثقافة وخبرة فقد أحس بالذهول لما ظنه من جمود فى رئيس النيابة . كان يخيل لنفسه أنه نجح تماما فى إقناعه بوجهة نظره . بل كان يتخيل آنه سيتبناها بنفسه . و برغم أنه فى الأصل محام إلا أنه كان يؤكد لنفسه أن الصلاحيات المطلقة الممنوحة —نظريا على الأقل— لأعضاء النيابة العامة كفيلة بأن تدفع رئيس النيابة لوضع هذه الصلاحيات النظرية محل التطبيق العملى وأن حماسه وإخلاصه فى عرض القضية كفيلان بإثارة انفعال رئيس النيابة حتى لو كان تلقى أوامر أخرى من رؤسائه . الآن يشعر النديم أن هذا الماثل أمامه كرئيس نيابة ليس بشرا يفكر و يقتنع ويحس و ينفعل بل هو كائن مُبرمج . لم يستطع النديم أن يكون موضوعيا ليدرك أن رئيس النيابة مُلزم بنصوص فى القانون لايستطيع أن يتجاوزها . ولأنه لم يفهم ذلك كله فقد رد بثورة :

— إن أمامك عشرات المستندات التى تؤيد صدق قولى .

وطالبه رئيس النيابة أن يبدى دفاعا موضوعيا وألا يتجاوز حدود الإتهام المُوجه إليه فى الرد . ولم يعجبه هذا الكلام فرد بثورة :

— إن القضية كل لايتجزأ . و بند الرشوة لاينفصل عمّا بعده من أجزاء كما أن هذه

الأجزاء لاتنفصل عن باقى مانشرتُه فى مقالاتى عن أنحرافات أخرى لهذا المسئول ومسئولين آخرين .

كعادة كل المثقفين كان النديم يخلط بين الأمور. إنه يظن أن رئيس النيابة الجالس أمامه قادر على محاكمة النظام !! حتى لو صحت أقواله ومستنداته . و برغم ادعائه — كباقى المثقفين — إيمانه بالحرية والديمقراطية فلم يكن قادرا على احترام قرار الأغلبية الذى صدر من مجلس الأعيان والذى لايعطى له ولاحتى النيابة حق التحقيق مع نائب رئيس الوزراء حتى لو ثبت أنه لص .

كان رئيس النيابة جامدا تماما وهويملى على كاتب التحقيق ملخصا لأقوال المتهم . وهنا ثار النديم ثورة عنيفة قائلا أن كلامه لايُلَخّص وأنّه يعنى كل حرف يقوله وليس من حق رئيس النيابة أن يُحوِّر و يعدِّلَ فى كلماته بحجة تلخيصها .

نظر اليه رئيس النيابة فى استهانة زادت من ثورته فواصل :

— ثم أن ماتمليه أنت ملئ بأخطاء لغوية لايصح أن تُنسب إلىّ بعد ذلك أمام التاريخ .

كان رئيس النيابة حكيما فأمر السكرتير أن يدّون مايقوله النديم تماما فواصل وقد أفقدته الثورة كل حكمة :

— أجل .. سوف يأتى زمان غير هذا الزمان الردئ والقمئ سوف تُفتح فيه كلّ هذه الملفات .. وسوف ينظرها بشر عادلون وليس آلات تتحرك بالريموت كنترول .

كان وجه رئيس النيابة محايدا تماما كما هو جدير بمن فى مثل منصبه وسأل فى هدوء :

— هل لديك أقوال أخرى .

وانطلق النديم مرة أخرى فى خطبة طويلة عصماء مما يصلح أن يستثير الرعاع والدهماء والمعارضة وليس رئيس نيابة محترم . ودوّن سكرتير التحقيق كل ماقيل . و بعد أن انتهى النديم من ثورته العارمة التى لم يكن هناك مايبررها على الإطلاق وجه رئيس النيابة اتهامات متعددة :

— أنت متهم بالقذف والتشهير بنائب رئيس الوزراء .

التزم النديم بالصمت تماما فأملى رئيس النيابة الاجابة نيابة عنه :

ـ لم يحدث

وواصل رئيس النيابة اتهاماته

ـ كما أنك متهم بنشر أخبار كاذبة تعرّض النظام الاجتماعى للخطر وآجاب رئيس النيابة أيضا :

ـ لم يحدث .

وواصل رئيس النيابة :

ـ كما أنك متهم بتزوير مستندات للإساءة الى كبار المسئولين فى أوفريسيا رغم علمك بتزويرها .

ورد رئيس النيابة :

ـ لم يحدث وجميع المستندات صحيحة .

وواصل رئيس النيابة

ـ كما أنك متهم بالتحايل على خرق قرار السيد الأستاذ المستشار النائب العام بمواصلة النشر فى قضية معروضة أمام النيابة .

وأجاب رئيس النيابة :

لم يحدث وما نشره لا يتعلق بما هو معروض أمام النيابة .

وواصل رئيس النيابه :

— كما أنك متهم بالتطاول على النيابة أثناء التحقيق معك فيما هو منسوب اليك .

كان النديم قد وصل الى أقصى حالة من الإعياء النفسي والذهني والجسماني . كان قد فقد القدرة على التواصل الإنساني والحوار والسؤال والجواب . وكان قد سيطر عليه خيال مريض بأنه لايواجه رئيس نيابة بل إنسانا آليا . وشغلته هذه الفكرة حتى عن سماع مايدور بين رئيس النيابة وسكرتير الجلسة .. أقنع نفسه بأن مايحدث ليس إهانة له كشخص بل إهانة للعدالة فى رمزها السامى الذى توارثته البشرية عبر أجيال طويلة .. كما أنه إنكار يصل لحد الكفر لتراث القرون من الفكر والفلسفة والحكمة . وأفاق من خيالاته على رئيس النيابة يطلب منه التوقيع على أقواله وسارع بالتوقيع فقد كان الاحساس الذى يكتنفه باهظا حتى أنه نسى القضية برمتها . نسى الفساد والرشوة والتستر وجود رئيس النيابة كان يشعر أنه يختنق وأنه ليس ماثلا الآن فى قصر للعدالة وإنما فى قصر تُذبح فيه العدالة . ووسط طوفان الأوهام التى تكتنفه تساءل .

— كما لو كان انسانا آخر — هل يمكنه الانصراف .

وطلب رئيس النيابة — فى رقة لأول مرة — أن ينتظر فى الاستراحة دقائق حتى يقفل المحضر .

جلس فى الاستراحة منهكا تماما وقد فرغ عقله كما تفرغ بطارية سيارة بسبب تلامس أسلاك مكشوفة . حاول أن يجمع شتات نفسه لكنه أحس أن نفسه ممزقة إلى سبعين قطعة .. لماذا سبعون .. إنه لايدرى على وجه اليقين .. لكن قطعة من السبعين طارت من بعيد إلى أوفريسيا التى ليست هى أوفريسيا حيث يحكُم حكام غير لصوص ويحاكِم قضاة غير مبرمجين و يتفاهم الناس بمنطق تترجمه الكلمات .

كأنما من خلف لوح زجاج غطاه الضباب شاهد سكرتير الجلسة متوجها نحوه . تناهض متثاقلا فقد كانت قدماه لاتقويان على حمله .. آن الأوان كى يخرج فيستنشق هواء غير هذا الهواء السام .

وفوجىء بسكرتير التحقيق يقول له .

— المتهم عبد الله حلمى النديم : أمرت النيابة بحبسك على ذمة التحقيق خمسة عشر يوما .

وسقط فاقد الوعى .

ـ ١٨ ـ

نشرت الصحف الحكومية بيانا مقتضبا من النائب العام أشار فيه الى حبس المتهم عبد الله النديم لمدة خمسة عشر يوم لأسباب لا تتعلق بالشكوى المقدمة ضده من نائب رئيس الوزراء. وحذر سيادته من أن قرار حظر النشر ما يزال ساريا وأن التحقيقات تجرى على قدم وساق للتصرف في القضية.

ارتجت أركان أوفريسيا للخبر. هؤلاء الأفاقون الذين يزايدون بما يسمونه الدفاع عن مصالح الجماهير قد استطاعوا فعلا خداع تلك الجماهير الغبية وتجنيبها من خلفها. واندلعت بعض المظاهرات هنا وهناك. واندفع بعض الرعاع يحطمون ويخربون. كانوا حيوانات بشرية، كائنات منحطة خلقت وستظل كذلك.. ليسوا جديرين بالحياة إلا كخدم كعبيد.. كأنصاف بشر.. أو كمسوخ بشريه.

وقابلت السلطة مظاهرات الرعاع بما تستحقه من حزم فسحقتها سحقا. إلا أنها كانت كالنباتات الشيطانية تقطع في مكان فينبت العشرات في أماكن أخرى.

وبرغم أن صحافة المعارضة لم تجرؤ على خرق قرار حظر النشر الا أنها وقعت في الفخ واشتعلت نارا. ونشرت صحيفة الناس مقالا ناريا عن السلطة التي لا تعرف سوى أسلوب الارهاب والقمع والاخضاع والتضليل والكذب دون حدود. وأن هذه السلطة لا تريد مواطنين بل أتباعا.. وأنه لا يوجد توازن إنساني بين السلطة والشعب. وأن السلطة ليست عازفة عن التفاهم مع الشعب فقط بل إنها ترتعد رعبا من حدوث هذا التفاهم.. لأن هذا التفاهم سيعنى اعترافا متبادلا بين السلطة والشعب. إقرار بآدمية الشعب وحقوقه.. والسلطة تخشى هذا التفاهم لأنه سيسلبها امتيازاتها.. إن السلطة لا تعترف بالشعب والشعب أيضا لا يعترف بالسلطة.. لكن السلطة لا يهمها اعتراف الشعب بها ما دام يعترف بالسياط ويخشى قوات الأمن. ولخصت الصحيفة الوضع في النهاية بأن

السلطة قد اغلقت الأبواب تماما امام أى حل سلمى وان المواطن المقهور الذى ظلوا يتعاملون معه على أنه لايفهم سوى أسلوب القسوة والعنف عليه أن يحزم الآن أمره . عليه أن يستعمل نفس اللّغة التى تستعملها السلطة ضده .. وانفجر كاتب المقال صارخا : لا تثقوا إلا بالوسائل العنيفة فالسلطة لاتفهم سواها .

وفى مكان آخر نشرت الصحيفة :

« لقد أصبح الشعب فى أوفريسيا ضحية عنف مزمن ومنظم ومستمر .. إنهم يطلبون منا أن نكون مهذبين وودعاء .. وهم يلوموننا على همجيتنا وخشونتنا و بعدنا عن السلوك الحضارى .. وفى الحقيقة أن مايطلب منا ليس أن نكون مواطنين صالحين .. بل أن نرضخ للعبودية . إن السلطة لاتبنى المواطن الصالح وانما تشجع قيم الرضوخ والسمع والطاعة وتجرم قيم التحرر والتصدى والثورة من أجل الخلاص » .

واضافت الصحيفة :

« ان الأتباع فقط هم المواطنون الصالحون .. أما الآخرون فهم مجرمون شياطين كفرة وهم أعداء يستحقون الرجم » .

وفى باب الكاريكاتير نشرت الصحيفة مربعا أسودا بلا رسم . وكان تحت المربع تعليق :

— من الأخطاء الشائعة أن شر البلية مايضحك .. رسامنا لم يعد يستطيع أن يضحك ..

أما العمود اليومى فقد تركت الصحيفة مكانه خاليا و به تعليق من الكاتب :

« أعتذر للقراء عن كتابة مقالى منذ اليوم .. فقد أدركت أن الوسيلة الوحيدة المأمونة للمعارضة هى أن أجلس فى بيتى أنتظر أمام التليفزيون ... حتى يظهر المسئول الذى أريد انتقاده فأبصق فى وجهه دون أن يرانى أحد »

كانت سفالة الصحيفة قد تجاوزت كل حد ممكن .. وكانت خطورتها أنها ستشجع صحفا أخرى سافلة على انتهاج نفس النهج .

وصدر الأمر فورا بالتحفظ على نسخ الصحيفة قبل التوزيع . وعُرض الأمر على القاضى فى الصباح فأمر بمصادرة العدد وإغلاق الصحيفة لمدة ستة أشهر. وقبل نهاية الشهور الستة كان هذا القاضى العظيم قد عين وزيرا للعدل تقديرا من السلطة لفكرة الفذ وعدالته الصارمة .

لكن السلطة لم تكن سعيدة وهي تصدر القرار.. فهي بين أمرين أحلاهما مر. إنهم يدركون جيدا أن التصرف اللفظي لعدوانية الرعاع والمعارضة كلما زاد مثّل صمام أمان ينحسر إزاء خطر تصريف هذه الانفعالات في مظاهرات وإرهاب وتدمير وتخريب أو في ثورة .. ولقد كان هذا الفهم هو الذي حال دائما دون الرغبة الملحة العميقة لدى بعض أفراد السلطة لاغلاق صحف المعارضة كلها . كانت السلطة تدرك أنها صمام أمان... لكن صمام الأمان لدى كُتّاب حقي يتحول إلى كير ينفخ في اللهيب .. إنها تتحول من وظيفتها لامتصاص الغضب إلى عكس وظيفتها تماما .

كان الواجب الملقى على صحافة الحكومة ضخما وتبارى الكتاب في الدفاع عن حكومتهم .. وبرغم الحملة الضارية فقد كان الإمبرائيس غاضبا لأن بعض كتاب الأعمدة لم يشاركوا في الحملة . كانوا يتمتعون بقدر من الاحترام القومي دفعهم الى النأى بأنفسهم عن هذه المعركة . إلا أن ابتعادهم هذا كان نوعا من الخيانة .. إنهم جبناء ويخافون الدهماء . فإذا كان الدهماء يخيفونهم أفليس الامبرائيس أحق بالخوف . كانت نظرة الإمبرائيس الى الصحافة أنها سلطة من سلطات الدولة لها مالها وعليها وماعليها وأن الكاتب كالجندي عليه أن يطيع الأوامر. أن تتسلسل الاختصاصات من أعلى الى أسفل بحيث يكون واجب الأعلى أن يأمر و يوجّه وواجب الأسفل أن يطيع و يبرّر.. وأخذ الامبرائيس يتساءل ساخرا بين أتباعه :

ـ تخيلوا جيشا يتصرف فيه كل جندي بمقتضى تفكيره ووجهة نظره دون اهتمام بأوامر القائد . وفي اجتماع عقده الامبرائيس لكبار الصحفيين أخذ صوته يدوى كالرعد : « انه لايكفي أن يكون ٩٠٪ من كتاب الصحف الحكومية معنا .. ولا حتى ٩٩٪ .. لأن ال ١٪ الباقي سيمثل جرثومة و باء مهلك تنتقل للباقين »

و بعد هذا الاجتماع ازدادت صحافة الحكومة ضراوة . وحاول كتاب الأعمدة المتخلفين مداراة موقفهم بالحديث حول أساسيات عامة .. فهم ضد الكذب وهم يستنكرون العنف وهم ينادون بمجتمع طهارة اليد واللسان كما أنهم يناشدون شعب أوفريسيا التكاتف خلف الإمبرائيس لتحقيق المصالح القومية لأوفريسيا . لكن بعضهم استمر على خنوعه وجبنه فأخذ واحد منهم يكتب قصص الحيوانات وأخذ الآخر يتحدث عن الفن التشكيلي ومعارض اللوحات . وازاء الجوّ المشتعل نارا فقد كانت كتاباتهم مرفوضة فهم إما أن يكونوا مع أوضد .. أما ذلك الرقص على السلم فهو ككل أنصاف الحلول دليل النوايا السيئة ..

وفجر الكاتب الكبير محمد أحمد قنبلة صحفية كبرى عندما نشر حقيقة ادعاءات عبد الله حلمي النديم كما تكشفها الأوراق والمستندات . ونشر تحت مانشيتات ضخمة تقريرا من لجنة هندسية على مستوى عال تفيد أن جميع الإنجازات فى مشروع التليفونات قد تمت بنسبة ١٢٠٪ من المستهدف وأن ال ٢٠٪ الزائد هو منحة لا ترد من الشركات التى نفذت المشروع تقديرا لما لمسوه من تفانى المسئولين فى أوفريسيا فى خدمة وطنهم .

وأضاف قنبلة أخرى حين اكتشف أنه توجه بنفسه حيث قابل الدكتور عبد الله حلمي النديم فى السجن بنفسه وواجهه بشهادة معتمدة من مجمع البنوك فى مجموعة الدول التى مولت المشروع يؤكد سلامة حسابات المشروع ، كما واجهه بخطاب من البنك ردا على السلطات المسئولة فى أوفريسيا يفيد بأن قانون البنك يمنع تماما إصدار أى شهادات بأرصدة العملاء وأن أى بيانات من هذا النوع تعتبر جريمة إفشاء معلومات بغرض الإضرار بمركز البنك .

وقرر محمد أحمد أن الدكتور عبد الله حلمي النديم كان منهارا تماما قد أدرك انكشاف لعبته وانهيار الرصيد الذى كان له فى قلوب الأوفريسيين بعد اكتشافهم أن كل هجومه على السلطة كان كذبا .. وأن تحقيقات النيابة ستشمل فى الأيام التالية بحث الدوافع الخفية خلف تصرفه وما إذا كان له علاقة بدول أجنبية .

وفى مساء نفس اليوم كان الإمبرائيس يلقى خطبة بمناسبة العيد القومى لأوفريسيا .

كان صوت الامبرائيس يجلجل كالرعد و يقرع كالسياط و يعصف كالرياح .. كان يسعى لجعل صوته ضخما غليظا أجشا ممتلئا بالرجولة والفحولة ... وكان القسم الفنى للإذاعة والتلفزيون مكلفا بأن يضبط نغمه الأجهزة بحيث تعطى صوت الامبرائيس هذا الرنين الفخيم الذى يستولى على أفئدة شعبه .

وعندما وصل فى خطابه الى ذكر عبدالله حلمي النديم ارتفعت حدة نبراته وازداد هياجه وهو يقول :

— « لقد أراد هذا الخائن أن ينال منكم .. من أمنكم .. من مشاريعكم القومية .. من آمال المستقبل .. من عمل مثمر نحاول أن نتركه عملاقا لأجيال تأتى من بعدكم .. كان الخائن يريد أن يعود بكم إلى الفقر والجوع والقهر والخيانة والتسلط .. لكننا كنا له بالمرصاد . سوف نسحقه ونسحق أمثاله ... لن نرحم .. سنمحقهم محقا .. سنفرمهم كى يكونوا عبرة للحمقى والمتطاولين أمثالهم .. وها هو الآن مرمى فى السجن كالكلب .

وأنهى الامبرائيس كلمته بعبارات مؤثرة رد فيها عن أولئك السفلة الذين يتهمون نظام الحكم بالفساد مؤكدا أن الإنسان لن يأخذ معه من الدنيا سوى عمله الصالح لأن الكفن ليس له جيوب .

كان المايسترو يشاهد الإمبرائيس فى التليفزيون فى قصره فقد تعود ألا يحضر أبدا تلك الاحتفالات . كان فيروز العسال مع المايسترو.. غمز له بعينه ضاحكا وهو يقول :

— الكفن ليس له جيوب لكن الحلة لها جيوب عديدة . وشكرا لخزائن البنوك .

وراحت الاذاعة والتليفزيون تكرر خطاب الامبرائيس كالعادة بلا ملل نظرا لما فى الخطاب من فوائد جمة لصالح المواطنين وتذكيرا لهم وتعليما وتنبيها وإرشادا أو تحذيرا وتفضلا من الامبرائيس عليهم .. و برغم أن خطاب الامبرائيس كان كالعادة طويلا فلم تكن كل أجهزة الإعلام تتوانى عن اذاعته وتكرار إذاعته وعلى ذلك فقد كان الوقت الذى يستهلكه الزعيم من أجهزة الإعلام وقتا طويلا جدا .. هذا فضلا على أن الصحف تنشر المقال وتعيد نشره وتلخيصه ومناقشته كما يناقشه أيضا مجلس الأعيان والمجالس القومية المتخصصة . كما يصدر خطاب الإمبرائيس فى طبعات أنيقة إتماما للفائدة نظرا لأهمية محتوى خطاب سيادته اجتماعيا و وطنيا وقوميا وعالميا بل وعلى مستوى الجنس البشرى كله .

و بالرغم من جهود الصحافة وقوات الأمن وخطب الإمبرائيس والمسئولين إلا أن الرعاع لم يهدأوا . كان واضحا أن ثمة قوى خفية تحرك هؤلاء الأوغاد وكانت المصيبة الكبرى عندما نجحت بعض فرق العصابات التى شكلها هؤلاء الاوغاد من ارتكاب جريمة شنعاء هزت ارجاء أوفريسيا هزا عميقا فقد تم اختطاف الصحفى الكبير محمد أحمد وفشلت محاولة اختطاف الصحفى العظيم خنفس بوللى . وكانت لطمةً هائلة لهيبة الحكم فى أوفريسيا . وكثفت أجهزة الأمن من جهودها بصورة مسعورة وتم القبض على الآلاف . واستُعملت كل الوسائل الممكنة للحصول على اعترافات من هذه الكلاب المسعورة التى لاتحترم امبرائيسا ولاتعترف بسلطة . وفى أسبوع واحد سقط عشرة من القتلى .. كانوا أغبياء ولم يدركوا قط أن تعذيبهم سيستمر حتى الموت ان لم يعترفوا . كان موقف أجهزة الأمن سيظل حرجا وكانت هيبة الدولة مجروحة طالما بقى الصحفى محمد أحمد أسيرا لدى الكلاب . وأخيرا اعترف واحد من المعتقلين بأنه رئيس العصابة التى اختطفت الصحفى الكبير لكنه ظل مصرا على عدم الادلاء ببيانات أخرى صحيحة . كان يضلل المحققين فقد ذكر أكثر من مكان ادّعى أنهم أخفوا فيه الصحفى وثبت كذب جميع بياناته .. لكنه على أى حال قدم لجهاز الأمن خدمة كبرى باعترافه ، إذْ خفّف من وطأة الحرج الذى يعانيه جهاز الأمن وعلى رأسه وزير الشرطة .

كانت صحف المعارضة تستصرخ النائب العام ووزير العدل والإمبرائيس التدخل لوقف ما سموه بالتعذيب الهمجي فى المعتقلات.

كانت صحفا غبية حمقاء.. وكان كتابها غير قادرين أبدا على فهم تركيبة السلطة.. كانوا جديرين بالسخرية والاحتقار.. ألم يعلموا بعد أن النائب العام ووزير العدل جزء من السلطة وأن التعذيب كان يتم بمباركة الإمبرائيس ورضاه.. لكن تعذيب من؟ هل أخذت السلطة انسانا سويا لتعذيبه.. فليأتوا لنا بدليل واحد.. طالما بقى المواطن يحترم قوانين البلاد فلا خوف عليه.. أما تلك الكلاب التي تتحدى السلطة فليست بشرا.. وعلى هذا فقد كانت بيانات السلطة التي تنكر تعذيب أى أنسان بيانات صادقة.

ــ ١٩ ــ

كان العقيد أحمد راشد أحد المُقنّعين برتبة عقيد فى الشرطة يعمل فى السجن المركزى . كان ذو أهمية خاصة فقد كان مصدر معلومات لا تنفذ لكل اعترافات المعتقلين . كان فى الأصل قاتلا محترفا فى الجنوب . كان شديد الذكاء ولم تتمكن السلطة منه قط . وقد اختاره بعض أعوان المايسترو فأثبت جدارة فائقة رفعته درجات عديدة فأصبح يشغل الصف الثالث . كان الصف الأول مكوّنا من الأعوان الخمسة . وكان الصف الثانى مكونا من خمسة وعشرين مقسمين الى خمسة مجموعات كل مجموعة منها تتبع أحد أعضاء الصف الأول ولا تعرف سواه . وكانت المجموعة الثالثة مكونة أيضا من خمسة وعشرين شخصا كل منهم يعرف واحد فقط من أعضاء المجموعة الثالثة . وكانت باقى المجموعة تماثل المجموعة الثالثة ، وكان عدد المجموعات كلها مائة مجموعة فى البداية ثم اختصر إلى سبعين مجموعة فقط بعد التخلص من الباقين . كان هذا التنظيم فى رأى المايسترو هو التنظيم المثالى للحفاظ على السرية المطلقة بالنسبة للتنظيم .

كان العقيد أحمد راشد أحد أعضاء المجموعة الثالثة . وقد ذهب ذات يوم الى رئيسه المباشر من المجموعة الثانية دون استدعاء وكان هذا لا يحدث إلا فى ظروف شاذة طبقا لبروتوكولات التنظيم . دهش الرئيس وهو يراه . صرخ فيه بغضب :

ــ لماذا جئت دون طلب ؟

أجاب العقيد أحمد راشد :

ــ سيدى : يجب أن يعلم الرجل الكبير ما يحدث فى السجون ..

— ماذا تقصد.

— سيدى : أنت تعلم مدى صلابتى .. ولقد نجحت فى كل الاختبارات بتفوق .. لكن مايحدث هناك لا يمكن أن يحتمله بشر..

أجاب الرئيس بصوت رهيب :

— هذه بوادر انهيار.. وأنت تعرف عواقبه ..

أجاب العقيد فى ضراعة :

— سيدى : أنت تقول هذا لأنك لاتعرف تفاصيل مايحدث .. لو عرفته لكان موقفك كموقفى ..

أوشك الرئيس على مقاطعته لكنه هتف :

— سيدى : أرجوك أن تسمعنى .. إننى لست من أولئك الأفندية الحمقى الذين يتشدقون بكلمات غير مفهومة ... أنت تعلم كل شئ عن تاريخى السابق

أشار الرئيس اليه أن يصمت . لكن تيار الانفعال الجارف لديه جعله يصرخ :

— لايمكن أن أسكت .. لابد أن تعرف أنت أو دعنى أتوسل اليك أقابل الرجل الكبير كى أقول له أن مايحدث هناك يتجاوز كل قدرة الشر الكامنة فى البشر.. انى كما تعرف قاتل .. قاتل محترف ..

امتدت يد الرئيس بسرعة الى جهاز بجواره ، كان هذا الجهاز يصدر شوشرة يستحيل معها على أى أجهزة حديثة أن تسجل مايحدث . وكان من أجهزة التأمين الضرورية .

وواصل العقيد :

— قاتل محترف .. ليس هناك جريمة لم ارتكبها .. وليس هناك شئ جبنت أمامه ولا فعل

ندمت عليه .. لكن مايحدث هناك شئ آخر .. إنهم اكثر اجراما منا بكثير ياسيادة الرئيس .. نحن بالنسبة لهم أطفال أبرياء .. أنا نفسي مارست التعذيب أحيانا .. بضع صفعات أو ركلات أو شتائم .. لكن مايحدث الآن .. شئ رهيب مفزع حتى الحيوانات الضارية في الغابة لاتفعل مثل هذا .. هل تعلم ماذا يفعلون بهم .. يدخل السجين فيخلعون ملابسه تماما .. يضربونه بالسياط والعصي والشوم حتى يدمى جسده .. ثم يرشون الملح على جسمه و يضربونه من جديد حتى يغمى عليه ثم يلقونه في زنزانة كومة من العظام واللحم .. وفي الليل يستدعونه للتحقيق .. في معظم الأحوال يكون لايعرف شيئا .. وليس عضوا في أي تنظيم و يكون مستعدا للتوقيع على أي أقوال واعترافات يريدون نسبتها إليه .. لكنهم يواصلون تعذيبه ... فالتعذيب هناك لايتم بقصد الحصول على الاعترافات .. بل لأن حيوانات بشرية مجرمة شيطانية لم تعد من البشر وأصبحت متعتها في التعذيب . التعذيب نشوتهم وشبقهم .. يمسكون الضحية المسكينة .. يربطون يده بقضبان نافذة حديدية .. و يربطون اليد الأخرى بمقبض باب يفتحونه تدريجيا بحيث تتمزق معه عضلات اليدين والكتفين ... وتصرخ الضحية وتصرخ .. حتى تصاب بالاغماء مرة أخرى .. يتركونه حتى يفيق .... يأمرونه بالانصراف .. يقوم متهالكا يستند على المقاعد والجدران وبمجرد أن يضع يده على اطار الباب يغلقون الباب بعنف مدرب حتى تتحطم عظام يديه .. يسقط مغشيا عليه مرة أخرى .. يحملونه الى الزنزانة كومة من العظام واللحم و يأتون به في ليلة أخرى ثم يطلقون الكلاب عليه .. أقول الكلاب مجازا لأنها في الواقع في حجم الأسد المتوسط .. تهجم الكلاب على الضحية تمزق جسده .. ثم تقلبه على بطنه كما لو كانت ستغتصبه .. كل هذا والجنود يمسكون بالسياط يضربونه بها كلما أسقطته الكلاب أرضا كي ينهض من جديد ..

بدا نوع من الانفعال على وجه الرئيس وهو يهتف به :

ـ يكفي هذا ..

قاطعه العقيد وقد تحول صوته الى صراخ :

ـ لم أنته بعد .. لم تسمع مايحدث حتى النهاية يجب أن تسمعه .. فعندما تسمعه كله فقط تستطيع أن تلتمس العذر لي .. كيف وصلت إلى هذا الحال ... إنهم بعد ذلك يأتون بالضحية في يوم آخر .. يتفننون في طرق تعليقه كالذبائح في متجر

الجزار.. مرة يعلقونه من يديه والقيود فى قدميه ومرة أخرى يعلقونه من قدميه والقيود فى يديه وفى كل مرة يضعون أثقالا فى الطرف المنخفض بحيث تتمزق عضلات الجسد.. وعندما ينزلونه بعد أن يفقد الوعى لا يلقونه حتى على الأرض وانما على نوع من السجاجيد المطاطية المحشوة بالمسامير.. وعندما يفيق يطفئون سجائرهم فى جروحه المتقيحة.. ويوصلون أسلاك الكهرباء الى أذنيه وأنفه وصدره وقضيبه وخصيتيه وشرجه.. يطلقون الكهرباء.. فيتشنج المعذب وهو يطلق صرخات ألم لا يوصف.. ثم يذهبون به إلى زنزانته كومة من العظام واللحم.. لكنهم يأتون به فى يوم آخر.. يقيدون يديه وقدميه وهو منبطح على بطنه.. يدخلون قطعا من الخشب فى فتحة شرجه...... ثم يقلبونه على ظهره.. يأتون بأنبوبة من البلاستيك (تكون عادة أنبوبة لقلم حبر جاف) يضعونها فى مجرى البول فى الجزء الأمامى من القضيب.. ثم يشعلون النار فى طرفها البعيد، ويتركون النار تسرى فى الأنبوبة والضحية المسكينة تحاول أن تطفأ النار بالفخذين العاريتين فتلسعه النار فيبعدهما.. ثم يحاول من جديد وتظل النار تسرى ببطء حتى تحرق مجرى بوله..

صرخ الرئيس:

— كفى

وصرخ هو بصوت أعلى:

— لم أنته بعد.. لأن وسائل التعذيب لم تنته.. عندما يتحول المعتقل إلى حطام بشرى يأتون إليه بأقاربه.. بزوجته وأمه وأبيه.. يهددونه بأنهم سيفعلون بهم مثلما فعلوا به.... أنت لا تتخيل مناظرهم فى هذه اللحظات... عندما يرون ابنهم هذا الكائن المحطم الممسوخ الذى تغيرت معالمه وسحنته.. ولا تتخيل منظره عندما يتخيل أنهم سيفعلون بهم مثلما فعلوا به.. هل تتخيل.. ثم هل تتخيل أكثر أن الأمر لا يقتصر على التهديد.. بل انه أحيانا يحدث فعلا.. أن تغتصب الزوجة أمام زوجها وأن تغتصب الأم أمام ابنها.. لقد كنت مثلك ياسيادة الرئيس.. أعتقد أن صحافة المعارضة كاذبة وحقيرة وسافلة وأنها تنشر أخبارا كاذبة.. كم أدرك الآن أننى كنت أحمق.. انهم لا يعرفون شيئا.. وحتى لو عرفوا بعض التفاصيل ونشروها.. فهل تعبر تلك السطور

المنزلة الباهتة عما حدث فعلا .. مرحى أطفأوا فى جسدهم السجائر.. سطر من أربع كلمات لكن ماذا يعنى ذلك .. وكيف يصوّر حال ذلك المسكين .. كيف ينقل إلى الناس صرخاته وألمه وعذابه .. « إنهم يعتدون عليهم جنسيا » سطر آخر باهت .. قد يسقط سهوا فى المطبعة .. وحتى إذا لم يسقط .. فماذا سينقل هذا السطر لقارئه .. هل سينقل له ذلك الانسحاق البشرى .. وهل سيصوّر له حيوانية من يفعلون ذلك .. إننى استعمل كلمة حيوانية لأننا تعودنا أن الحيوانات أحط المخلوقات .. ولو وجد شئ أحط من ذلك لشبهتهم به .

صمت العقيد أحمد راشد طويلا وهو يغالب انفعالا جياشا فى صدره .. ثم واصل بعد صمته :

— وبعد كل هذا أو أثناء أو حتى قبله .. يوقع لهم المعتقل على أى شئ يريدونه التوقيع عليه بل و يوقع أيضا على أوراق بيضاء يمكن للسلطات أن تستعملها فى أى وقت بعد ملئها بالإعترافات التى تريدها لإسناد أىّ نوع من الاتهام إلى هؤلاء الضحايا . وبالنسبة لمن ترى سلطات التحقيق أنهم يمثلون خطورة خاصة عندما يطلق سراحهم تقوم السلطة نحوهم بعمل رهيب .. إنهم يقدمون لهم المخدرات خفية حتى يدمنوا عليها .. وليس مهمّا بعد ذلك أن يستمروا عليها بعد الافراج أو أن يقلعوا عنها .. المهم أن خلايا عقولهم ستكون قد دمرت .

كان الرئيس قد التزم الصمت تماما .. فقد علمته حنكة السنين وتجربة العمر أن العقيد أحمد راشد فى حالة غير طبيعية ، وأن عليه أن يمتصّ انفعاله كله .. وكان يدرك أن الأمر أخطر من أن يتصرف فيه وحده . وأنه لابد أن يرفعه الى معاون الصف الأول .

تحشرجت الكلمات فى حنجرة أحمد راشد فتناول كوبا من عصير الليمون وكان الانفعال قد هدّه فواصل فى صوت مشروخ :

— هل تعرف لماذا أتيت لك اليوم .. لقد سألتنى هذا السؤال فى البداية الآن أجيبك عنه ..

مساء الأمس أغرقت إدارة السجن زنازين المساجين بمياه المجارى . وكان معظم المساجين يعانون من جروح متقيحة بسبب التعذيب . كوت المياه العفنة جروحهم .. تصاعدت صرخاتهم طول الليل .. ومات فى هذه الليلة وحدها ثلاثة آخرون غير العشرة الذين ماتوا قبل ذلك .. فى

الصباح ثار المعتقلون .. فأتت كتيبة من الأمن بقيادة العميد محمد الشافعي والعميد ربيع محمد .. انطلق الجنود بالهروات والسياط على المساجين .. واختاروا عددا منهم لإرهاب الباقين وسحلوهم في السجن.. أوقف المساجين جميعا في طابور ذنب بعد أن قيُدت أيديهم وأرجلهم ، فتحوا عليهم خراطيم مياه من مياه المجاري مرة أخرى .. كنت أجلس في مكتبي من بعيد أراقب فقد ابتعدت عن هذه المذابح البشرية منذ بدأت ... هددهم العميد ربيع محمد بالإعتداء الجنسي عليهم . تصاعدت من التعساء همهمة اعتراض .. فتصاعد غضب العميد ربيع محمد وأقسم أن يتم اغتصابهم .. إختار واحد منهم كيفما اتفق .. وأمر الجنود فبطحوه على مقعد خشبي معد خصيصا لذلك . أبعدوا ما بين فخذيه .. وأمر الجندي بادخال قطعة من الخشب في دبره ... ثم أمر الجندي بالإعتداء الجنسي عليه .. رفض الجندي .. فهدده العميد أنّه هو نفسه معرض للإغتصاب .. إنهار الجندي مجهشا بالبكاء ، فأمر العميد زملاءه بجلده بالسياط وتحويله إلى التحقيق متوعدا بأنه سيناله ما ينال المعتقلين .. ثم جاءوا بالعسكري فرج المشهور بقدرته الفائقة على هذا الفعل علنا .. قاوم المعتقل المقيد بشراسة فأطلقوا عليه غازا مخدرا حتى فقد وعيه وتم اغتصابه أمام الباقين .. وكرر نفس الفعل مع الجميع ..وعندما تعب العسكري فرج كان باقي الجنود قد تشجعوا ليمارسوا نفس الشئ و يواصلوا الاعتداء الجنسي على باقي المساجين فردا فردا ..(١)

لم استطع أن أحتمل .. ولهذا جئتك ..

رد الرئيس في هدوء :

— ان ما تقوله خطير جدا وسوف يبحث فورا .

تنهد العقيد في ارتياح .. ثم واصل وكأنه يحدث نفسه :

— هل تتخيل ياسيدي أن زملاء هؤلاء الضباط والجنود هم الذين كانوا يطاردوني باعتباري مجرما ..

إبتسم الرئيس في صمت فواصل العقيد :

---

(١) سوف يخدع نفسه بنفس الطريقة التي تعودنا جميعا أن نخدع بها أنفسنا ولكي يقلل من احساسه بجرعة صمته عما يحدث لهؤلاء التعساء سوف يقنع نفسه بأن المكتوب مجرد خيال روائي .. لكنه ليس كذلك .. بل هو المنشور بالنص تقريبا في صحف عديدة كما ينشر في تقارير منظمة حقوق الانسان وقد كان يحدث في أوفر يسيا مثلما يحدث في كل الدول .

ــ شئ خرافى .. أن يتحول بعض رجال الشرطة إلى أعتى وأحط أنواع المجرمين . أن يكون انحرافهم أشد من كل انحراف آخر .. أن تتجاوز وحشيتهم وهمجيتهم حتى أقصى مايمكن أن يصل الخيال اليه ..

نظر الرئيس إليه نظرة تشجيع ليواصل فقال :

ــ عندما كنت واقفا أراقب مايحدث من نافذة مكتبى انهار كل شئ فى داخلى . كدت أفقد عقلى .. فأصرخ « يسقط الامبرائيس » .. إذ أن عقلى قد رفض تصديق أنه لا يعرف ما حدث ..

شعر الرئيس بأنه قدر خطورة الأمر تقديرا صحيحا منذ البداية فواصل تشجيع العقيد كى يتكلم .. بدا عليه التردد قليلا لكن شجاعة مفاجئة حسمت تردده فواصل فى لهجة أشبه بالاعتراف :

ــ الحقيقة أن شكّى لم يقتصر على الإمبرائيس فقط .. بل تعدّى ذلك إلى منظمتنا أيضا .

إبتسم الرئيس وهويقول فى هدوء

ــ أنت مخطئ فى هذا .

هتف العقيد فى عذاب :

ــ أمعقول أن الرجل الكبير لايعلم ؟

ورد الرئيس :

ــ إن المعلومات موجودة دائما .. لكنها أحيانا لاتكون دقيقة وأحيانا أخرى لاتكون كاملة . هذا فضلا عما يحدث أحيانا من خلل فى توصيل هذه المعلومات .

غرق الرئيس فى التفكير العميق ثم قال :

— تصرف كأن شيئا لم يحدث قط . وسوف أرفع الأمر حتى يصل للرجل الكبير .
وسأستدعيك . لكن حتى يحدث ذلك لاتفتح فمك بكلمة

قام الرئيس بارسال أخطر اشارة إلى رئيسه المباشر من صف الأعوان الخمسة كانت هذه الاشارة تعنى أن أحد المقنعين قد احترق . وأنه يجب التخلّص منه فورا وكان هذا النوع من الرسائل يعرض فورا على المايسترو بمذكرة تفصيلية .

صدرت تعليمات المايسترو بالموافقة لكنه أمر أولا بأن يقوم العقيد أحمد راشد بتسجيل شريط فيديو كامل بالصوت والصورة عما يحدث داخل السجن متضمنا كل تفاصيل التعذيب .

كانت رتبته كعقيد تجعله فوق مستوى الشبهات . وكان تقدم أجهزة التصوير والتسجيل يجعل الامر سهلا .

وبعد أسبوع تعرض العقيد أحمد راشد لحادث طريق مؤسف راح ضحيته عندما صدمت سيارة مجهولة سيارته فى منحنى على اوتوستراد تيفولى الجبل .

وشيعت جنازة العقيد أحمد راشد عسكريا ونوّهت الصحف الحكومية بإنجازاته وإخلاصه لأوفريسيا . وقد لمحت بعض الصحف الى أن موت الشهيد أحمد راشد ليس بعيدا عن تحركات عصابات الإرهاب المجرمة التى تحركها المعارضة ـ وردّت صحف المعارضة بأن العقيد أحمد راشد كان أحد الجلادين الذين مارسوا أبشع أنواع التعذيب ضد المعتقلين وأن موته ليس إلاّ قصاصا إلهيا عادلا .

وفى مؤتمر صحفى لوزير الشرطة سخر كثيرا من أكاذيب المعارضة الفجّة وادعاءاتها الساذجة ، مستنكرا فى اشمئزاز شماتتهم فى موت الشهيد أحمد راشد ، ناعيا عليهم فى الوقت نفسه مايثيرونه من ضجة كلما مات أحد المساجين أو المعتقلين فى السجن ، كأنما ينكرون أن أى إنسان يمكن أن يتوفى وفاة طبيعية فى أى مكان وأى زمان .

— ٢٠ —

لم تكف عصابات الارهاب المجرمة عن احراجها للسلطة .. وقد أرسلت الى وكالات الأنباء شريط فيديو للصحفي الكبير محمد أحمد وهو منهار تماما وقد وجه حديثه ليس إلى الإمبرائيس كما ينبغي ولا إلى السلطات المسئولة ولا حتى إلى العالم الخارجي .. كان كل ما قاله أن مختطفيه خيّروه بين أمرين إما أن يموت كما يموت المعتقلون فى السجون واما أن يدلى باعتراف كامل عن خبايا السياسة والصحافة فى أوفريسيا . وقرر محمد أحمد أنه سيعترف .. بل وناشد المسئولين أن يكفوا عن البحث عنه لأن أى محاولة لإنقاذه ستؤدى الى قتله .. وناشد المسئولين أن يكفوا عن تلفيق الاتهامات لمتهمين جدد .. وصرح أنه رأى فى صحف الحكومة صورة المتهم الذى اعترف بخطفه .. وأكد أنه ليس من مختطفيه ..

كانت فضيحة مهينة ترددت فى أرجاء العالم لكن تعليمات صارمة صدرت بألاّ تنشر الصحف الحكومية شيئا . و بقيت المشكلة فى صحافة المعارضة . وكان المتهم قد حُوِّل الى النيابة فعلا للتحقيق بعد اعترافه أمام أجهزة الأمن بأنه زعيم عصابة المختطفين .. كان الامر بالغ الإحراج بالنسبة للجميع وتمت اتصالات مكثفة على أعلى المستويات لمعالجة هذا الوضع الخطير . وترتب على هذه الا تصالات صدور قرار من النائب العام بمنع النشر فى القضية وتخلصت السلطة من أحد أوجه الحرج . وبقى الوجه الثاني فى ذلك المتهم المجرم الذى ذهب إلى النيابة فى اليوم الأول للتحقيق ليدلى باعترافات تفصيلية ليس فقط عن ارتكابه لجريمة خطف الصحفى الكبير محمد أحمد بل ليعترف بعشرات الجرائم الأخرى التى توجه له الشرطة اتهاما بها وعندما سأله المحقق فى النيابة إن كان لديه أقوال اخرى قال أنه يطالب لنفسه بالإعدام بأقصى سرعة حتى يتخلص من التعذيب .

كان اعترافه مشكلة فقد كان يتطلب من أجهزة الشرطة أن تعثر على قرائن اتهامه وأدوات

الجريمة بل وجسم الجريمة نفسها . وكان إنكاره كارثة بعد أن أصبحت القضية ممتازة على مستوى العالم بعد شريط الفيديو الذى نشرته تليفز يونات العالم .

وتكفّل القدر بحل المشكلة . إذْ وُجد هذا المتهم فى الصباح التالى مشنوقا فى شباك زنزانته .. وصدر بيان من إدارة السجن وتقرير من الطب الشرعى بأن المتهم قد انتحر . وامتلأت الصحف الحكومية بآراء خبراء الطب النفسى التى تؤكد من دراستها لأقوال المتهم أنه مصاب بجنون الإكتئاب ووسواس الاضطهاد وأن هذا المرض يدفع المصابين إلى الانتحار فى النهاية . وطالبت صحف المعارضة باعادة تشريح الجثة لكنه كان طلبا حقيرا سافلا لأنه كان يعنى الشك فى نزاهة السلطة الشرعية فى أوفريسيا . وكان الشك فى هذه الحالة بالذات مغزى بالغ الخطورة .. اذ أنه كان يعنى إمكانية أن تكون السلطة قد فاقت فى الاجرام كل أنواع الاجرام الأخرى والمفترض أن تكبحها السلطة . ولم يقتصر الأمر على الشك فقط بل إن صحافة المعارضة الساقطة أخذت تؤكد هذا المعنى بكل طريقة ممكنة . ورسم أحد رسامى الكاريكاتير السفلة صورة جندى يفرّ مذعورا أمام اللصوص وهم يطاردونه لإمساكه وضبطه . كان رسم الكاريكاتير- كما فى الواقع دائما- يغنى عن مقالة كاملة وكان يعنى أن المدافعين عن الأمن الحقيقى مطاردين وأن اللصوص يحكمون .

وقد نادت بعض الصحف الحكومية بأن يخضع هؤلاء السفلة للقانون الجنائى .. بل وطالب أحد أعضاء مجلس الأعيان أن يكون الحبس وجوبيا بالنسبة للصحفى المتهم بالجرأة على أسياده .. لكن الديمقراطية الرائعة التى كانت تحكم أوفريسيا عن طريق دولة المؤسسات وقفت حائلا دون تطبيق القانون على هؤلاء السفلة .

وفجأة ظهرت مجموعة كاملة من شرائط الفيديو كان بطلها الرئيس هو الصحفى الكبير محمد أحمد . وكان البطل الثانى والأخير هو مجرد صوت لم تظهر له صورة .

وتبين من مجموعة الشرائط المرتبة زمنيا أن الشريط الذى أذيع قبل ذلك لم يكن الشريط الأول الذى تم تسجيله بل هو الشريط السابع . وكانت المجموعة كلّها مكونة من ثلاثين شريطا .

فى الشرائط الأولى كانت أقوال الصحفى الكبير تكرارا لما كان يكتبه طوال السنوات الماضية . وبدا منها أنه لا يحب الامبرائيس فقط بل ويقدسه تقديسا . كان يحاول تبرير كل شئ والإشادة بعنصر الأمان والرخاء الذى يسود أوفريسيا . وكان يدلل على عظمة العصر بالسماح لصحافة المعارضة بالكتابة وظهرت فى الشريط يد شخص آخر لم يظهر وجهه وإن سُمع صوته وهو يقدم للصحفى الكبير مجموعة من الأوراق يطلب رأيه فيها .

وفى الشريط الثانى والثالث اقتصرت المناظر على الصحفى الكبير وهو يقرأ بصوته تلك التقارير . كانت تقاريرا سوداوية تلطّخ بالوحل كل شئ فى أوفريسيا . فالاقتصاد ينهار والصناعة

تخرّب والحكام يتسترون على اللصوص مقابل إتاوات ضخمة وكبار الضباط هم الذين يروجون المخدرات والمناصب كلها أصبحت بالثمن لكل منصب ثمن ويختلف الثمن من مسئول لمسئول ومن منصب لمنصب .

كان الذعر مرتسما على ملامح الصحفى الكبير وهو يقرأ .. وكان واضحا ان ثمة تهديدا له أن يواصل القراءة بالرّغم منه . وكان يمكن لمن يشاهد الفيلم أن يتخيل مثلا أن هناك فى الطرف الآخر من الحجرة بعيدا عن عدسة الكاميرا شخصا يصوّب له فوّهة مسدسه . كان مافى التقارير رهيبا فعلا .. إنخفاض الدخل القومى . تدهور مستوى المعيشة .. إنخفاض مايحصل عليه الفرد فى أوفريسيا من سعرات حرارية .. أكثر من مليونين فى أوفريسيا بلا مأوى ..

عمليات التخريب المتعمدة فى الاقتصاد القومى .. تهريب الثروة القومية خارج البلاد . مقاومة محاولات الاصلاح بمنتهى القسوة والعنف . عمليات التعذيب السياسية . سحق المواطن العادى بمشكلات الحياة اليومية كى لا يفكر فى شئ آخر .

فى الشريط الرابع والخامس بدا الهزال على وجه الصحفى الكبير وطالت لحيته فى إيحاء جازم بأن المجرمين الذين اختطفوه لم يكونوا يعاملونه كما يليق به . كان مايزال يحاول تفسير التناقض بين كتاباته السابقة وما ورد فى التقارير . وأكّد أنّ هذه التقارير كلها من تدبيج كتاب المعارضة الحاقدين السفلة والذين يحصلون على أموال من الخارج لقلب نظام الحكم وفى نهاية الشريط واجهه الصوت الخفى بمفاجأة مذهلة وهى أن جميع ماعرض عليه من تقارير هى تقارير رسمية عن منظمة « عصبة الأمم المتحدة العالمية » والتى تصدر تقارير دورية محايدة عن أحوال كل دول العالم .

ركزت الكاميرا طويلا على ملامح الذهول الجامدة على وجه الكاتب الكبير محمد أحمد .

وكان الشريط السابع شديد الإثارة . كان يبدو من تغير سحنة الكاتب الكبير أنه تعرض لسوء التغذية والمعاملة . وقد حفل بحوار طويل بينه وبين الصوت الخفى . وكان الواضح أنه هُزم من داخله وانهارت مقاومته فوعد أنه سيتكلم بصراحة فى الشرائط التالية .

كان تسلسل الشرائط بهذا الشكل يدل على أن المجرمين الذين قاموا باختطاف الصحفى الكبير مجموعة مدربة على أعلى مستوى . كانوا محترفين لا هواة . ويبدو أنهم كانوا يمارسون أحدث الأساليب العلمية فى استجواب الصحفى المسكين .

فى الشريط السابع كانت بداية الانهيار .. ومن الشريط الثامن بدأ الطوفان .. مجموعة هائلة من الأقاويل الحقيرة .. أكياس قمامة مليئة بالقاذورات .. لم يكن هذا الصحفى كبيرا بل كان حقيرا ... كيف يجروء أن يرتكب الجريمة الكبرى فيفشى أسرارا عرفها بحكم منصبه بتلك الصورة القذرة . لم يترك شيئا لم يقله . وكان كل ماقاله أكاذيب حقيرة ـــ كما توهمت أجهزة

الاعلام فى أوفر يسيا دون أن تذكر هذه الأكاذيب ــ لقد تحدث فى البداية عن نفسه .. عن واجباته ومهامة كرئيس تحرير .. وقال فى سخرية مريرة أن مقالاته كان يتصدرها كلمة «بقلم محمد أحمد» وكان الأولى أن يكتب بالقلم محمد أحمد «فرئيس التحرير فى الصحف الحكومية ليس سوى ماركة قلم يكتب به الآخرون .. وأن القلم غير مسئول عما يخط وانما المسئول تلك اليد التى تمس القلم وتكتب به .. وواصل محمد أحمد بأسلوبه الساحر والساخر أن ثمة شبه آخر بين القلم و بين رئيس التحرير .. فالأول كلما فرغ من الحبر توقف عن الكتابة حتى يُملأ مرة أخرى .. ورئيس التحرير أيضا كلما فرغت مجموعة المكاسب والأموال التى حصل عليها توقف عن الكتابة حتى يملأ مرة أخرى .... وقال محمد أحمد أن الكاتب الصحفى قد عاد كما كان الكاتب فى العصور القديمة إزاء ملك لايعرف القراءة والكتابة فيملى على الكاتب أفكاره حيث يصوغها فى كلمات مكتوبة .. وأنه على هذا الأساس وحده يجب محاسبة رؤساء التحرير. إن المقالات الهامة كلها كان الإمبرائيس هو الذى يصوغ أفكارها بل ويملى بالنص بعض الجمل فيها .. أما المقالات الأقل أهمية فقد كان يمليها مسئول كبير فى رئاسة الإمبرائيسية أو جهاز الأمن أو الشرطة أو وزير أو أحد الشخصيات الهامة . وأضاف محمد أحمد أن ذلك لم يكن يحدث معه وحده وإنما مع كل رؤساء التحرير بلا إستثناء .

وهنا تدخل الصوت الخفى بسؤاله :

ــ هل يعنى ذلك ان الامبرائيس هو رئيس التحرير الحقيقى لكل الصحف .

وأجاب محمد أحمد

يمكن الاجابة عن هذا السؤال بنعم كما يمكن الاجابة عليه بلا .

ضحك الصوت الخفى وهو يقول :

ــ نحن جميعا نعلم براعتك فى صياغة الكلمات .. ونعلم أيضا أن الكلمات تنزلق على لسانك والقلم مطواع فى يمينك كلننا نريد أن نعرف كيف تكون الاجابة بنعم ولا فى نفس الوقت .

أجاب محمد أحمد :

الإجابة تكون بنعم عندما نقصد أن كل مايُكتب يقوله الإمبرائيس شخصيا بالتليفون أو فى لقاءات شخصية أو عامة .

— الآن فهمنا كيف يكون نعم .. فكيف إذن يكون لا .

أجاب محمد أحمد :

— يكون لا عندما نحاول أن نبحث الأمر بمزيد من التعمق . لأن ما يقوله الإمبرائيس ليس هو وجهة نظره الشخصية فقط ولا نتيجة تفكيره وإنما هو محصلة ضخمة لمئات الآراء والضغوط وهذه تنقسم الى قسمين رئيسيين قسم خارجي وقسم داخلى : والقسم الخارجي ينقسم بدوره إلى عدة أقسام فهناك مواقف يُرغم عليها الإمبرائيس بدافع الخوف من رد فعل الدول الأجنبية .. وهناك آراء عليه فرضا من الخارج .

أجاب محمد أحمد :

— فى دولة كأوفريسيا تفتقد البنية الأساسية لدولة حقيقية يمكن ممارسة الضغط اقتصاديا مثلا .. بالتهديد بمنع القروض أو بالمماطلة فى توريد الغذاء .. أو بأشياء أخرى عديدة يمكن لكم فهمها دون الدخول فى تفصيلاتها .

قال الصوت الخفى :

— سوف نؤجل هذه التفصيلات الآن إلى شرائط أخرى كى لا نقطع عليك حبل أفكارك . أرجو أن تكمل .

وواصل محمد أحمد :

— هناك أيضا أفكار تصدر من الإمبرائيس كمبادرات لكسب ود الدول الأجنبية . إما ليتقى شرّها أو ليخطب ودّها . ثم أيضا لا تنسى تلك الطبيعة البشرية الموجودة عند الامبرائيس كما هى موجودة عند كل شخص آخر .. أن يبهر الآخرين بأن يقدم لهم مالا يتوقعوه .. أن يعطيهم أكثر مما ينتظرون منه . إنه بذلك لا يكسب ثقتهم فقط .. بل هو يبادر ليقدّم مجاملة ما يمكن أن يُفرض عليه غصبا .. وفى هذا الاطار أستطيع أن أقرر أن جزءاً كبيرا من أفكار الإمبرائيس يصنع فى الخارج .
أما عن المؤثرات الداخلية فتشمل معاونى الرئيس ومؤسسة الحكم والشخصيات

الهامة . ان الإمبرائيس يجلس مع هؤلاء جميعا .. وتكون آراؤه محصلة آرائهم وأفكاره ملخص أفكارهم . وكثيرا مايتناقضون .. وعندئذ يلجأ كل مستول إلى كل الوسائل لإقناع الامبرائيس .. ومن المعروف أن مجموعة من المسئولين تمثل مركز قوة أو بالتعبير الدارج « شلة » تحاول أن تساند بعضها .. ولكل شلة رئيس تحرير يدافع عن وجهة نظرها .. وغالبا ماتكون هذه الشلة هى التى وضعت رئيس التحرير فى مكانه .. أو على الأقل تبقيه فيه ..

وأطلق محمد أحمد ضحكة حزينة وهو يقول :

— ما أصعب مهمة رئيس التحرير فى مثل هذه الأحوال . إنه يرقص كالبهلوان على حبل مشدود فى لعبة خطرة . فهو مابين أن يثبت للإمبرائيس أن ولاءه له وحده دون أحد سواه وفى نفس الوقت عليه أن يثبت لشلته أن ولاءه لهم وأنه المدافع الصلب عن وجهة نظرهم وأنه وحده هو الذى يستطيع اقناع الإمبرائيس بأن الرأى العام كله يؤيد مايقوله .

وفى أسلوب مبتذل ساقط قال محمد أحمد :

— كنت أحيانا أضحك وأنا أقرأ صفحة الحوادث فى صحيفتى .. عن تلك المرأة التى تزوجت رجلين .. وكنت أجد نوعا من الشبه بين موقفها وموقفى .. إن عليها أن تثبت لكلٍ من الرجلين أن ولاءها وحبها له بالكامل . وعليها فى نفس الوقت أن تخفى تماما علاقتها بكل منهما عن الآخر.

قاطع الصوت الخفىّ استرسال محمد أحمد :

— فلنعد إلى موضوعنا الرئيسى .

واصل الصحفى :

— هذه المجموعات القوية هى الأخرى ذات تركيب معقد . اذا أردت أن تفهم الشئ فعليك أن تصل الى جذوره .

أن تحلل أجزاءه الكبرى الى أجزاء أصغر وأن تحلل هذه الاجزاء الأصغر إلى وحداتها لأساسية ثم تتخيل كيف كونت هذه الوحدات ذلك البنيان المعقد المعروف بمراكز القوى .
علّق الصوت الخفى قائلا :

— أنت تتحدث الآن بصورة بالغة الأهمية والخطورة . وأسلوبك المنطقى يذكرنا بماضيك منذ عشرين عاما .. قبل أن تدخل فى إطار هذه المراكز ومن الواضح أنك تخلصت نفسيا من تأثيرها الشديد عليك . لذلك نرجو أن تشرح هذه النقطة بمزيد من التفصيل .

— نستطيع القول بقدر من التجاوز أن السلطة فى عمومها تستند إلى ثلاثة أركان رئيسية :
أولا : القوة المسلحة والتى تشمل الجيش والشرطة والحرس الوطنى والميليشيا الشعبية .
وثانيا : قوة طبقة المليونيرات وثالثا قوة رجال الدين .

وقبل أن يواصل الصحفى قاطعه الصوت الخفى قائلا :

— **يبدو أنك تجاهلت قوى أخرى مثل قوة مجلس الأعيان مثلا والرأى العام والسلطة القضائية كما أنك تجاهلت ما هو أهم من ذلك كله : الشعب .**

وأجاب الصحفى :

— لم أتجاهلها ولكننى أنفيها .

هتف الصوت الآخر فى دهشة :

— تنفيها ؟!

— أجل أنفيها .. لو تركتنى أسترسل لوصلت إلى هذه النقطة بالتسلسل المنطقى .....
وبرغم ذلك لا بأس من أن نناقشها سريعا ... فمجلس الأعيان ليس محصّلة آراء الأمة ... وهو ليس مجلس أعيان وإنما مجلس أتباع قطع من الشطرنج تلعب بها مراكز

القوى المتعددة بمهارة . إنك تدفعنى هنا لأن أسبق الأحداث بحقيقة كنت أريد أن أقولها فى مجال آخر.. فلنأخذ كمثال عضوا فى مجلس الأعيان .. كيف وصل إلى منصبه ... هل بالانتخاب الحر المباشر بعد الاحتكاك بالناس كى تعرفه وتعرف أفكاره .

ردّ الصوت الخفى بنبرة لم تخل من سخرية

— على الأقل هذا ما كنت تؤكده فى مجلة أحداث الأسبوع كما كان يؤكّده زملاؤك فى كل الصحف الحكومية .

بدا على ملامح الصحفي توتّر وضيق وهو يرد :

— أنت تقع فى خلط ذهنى خطير ولو واصلت هذه الطريقة لن تفهم الأمر أبدا .. لقد قلت لك أن ما كنت أكتبه لم يكن رأيى وانما مايُملى علىّ ..

وازدادت نبرات صوته حدة وهو يقول :

— أنت لاتريد أن تفهم . سوف أقولها بطريقة أخرى : فى تليفزيون أوفريسيا توجد خمس قنوات تعمل .. إنك بلمسة واحدة على مفاتيح الريموت كنترول تُغَيِّر المحطة الى محطة أخرى و بلمسه ثالثة تُغيِّر إلى محطة ثالثة وهكذا .. فهل يمكنك أن تشاهد جزء من فيلم على القناة الأولى ثم تقلب على القناة الثانية لتشاهد جزء آخر من نفس الفيلم ثم تغير مرة أخرى الى القناة الثالثة لتشاهد نهاية الفيلم ..

قال الصوت الآخر

— لاأفهم ماتعنيه .

— أقصد أننى عندما كنت أكتب للمعارضة قبل ذلك كنت أشبه برنامجا على القناة الأولى .. ثم حدث ماتعرفه وما اعترفت به قبل ذلك .. فأخذت أكتب بموجة بثٍّ أخرى مختلفة تماما .. كما لو كنت تحولتُ إلى القناة الثانية . لاتوجد علاقة مطلقا بين

مايحدث فى القناة الأولى وما يحدث فى القناة الثانية . لاتستطيع أن تصل الى بناء فكرى بمقارنة ما كنت أقوله قبل ذلك بما أقوله الآن .

قال الصوت الآخر:

— لكنك بهذا تجعلنا نشك أنه بلمسة أخرى يمكن أن تتحدث بل أن تفكر بصورة مختلفة تماما . مما يفقد كل كلامك مصداقيته .

أجاب الصحفى فى ضيق :

— أنت تقع الآن فى خلط آخر لن يجعلك تفهم .... إننا أحيانا نضرب أمثلة لنوضّح بها أشياء .. ولكن من الحماقة أن ننسى الشئ الذى أردنا توضيحه لنفرق فى تفاصيل المثل .. وبالرغم من ذلك فإنك يمكن أن تفهم فى إطار نفس المثل .. إننى كنت أحدثك عما يحدث على شاشة التليفزيون .. عن القناة الأولى والثانية .... الآن نحن نترك كل هذا لندخل إلى مبنى التليفزيون نفسه .. إننى أجعلك تشاهد مايحدث على الطبيعة .. أدخلك إلى الأستديوهات وغرف الماكياج والمونتاج والمكاتب الإدارية . أعرفك بالممثلين على حقيقتهم بل وأذهب معك إلى بيوتهم لأزيدك تعريفا بهم . إننى أجعلك ترى الحقيقة كما تحدث فعلا وليس كما تراها على شاشة التليفزيون .. ولشد ماسيصيبك الذهول عندما ترى ليس الفارق فقط بل التناقض الكامل بين مايحدث فعلا وماتراه أنت بعد ذلك . يجب أن تفهم ذلك لأننى أجد صعوبة فى أن أوضحه لك أكثر.. سوف أضرب لك مثلا أخيرا .. تخيل أنك شاهدت فيلما الآن على شاشة التليفزيون . فلتتخيل معى هذه اللعبة المستحيلة .. أن ترجع بالزمن إلى الوراء .. وأن تكون لك عشرات الأعين وعشرات الآذان كى تتابع فى أكثر من مكان فى نفس الوقت .. تخيل ماشاهدته فى الفيلم وقارنه بالواقع .... أن التى سلبت فؤادك فى الفيلم وهى تمثل دور الطاهرة هى فى الواقع عاهرة .. والشحات مليونير .. والذى كان يقوم بدور رجل الدين هو فى الواقع عربيد والضابط الكبير الذى يضع عشرات الشارات على كتفيه وصدره مجرد كومبارس لا قيمة له .. وإن الذى مثل دور البطولة والغناء مجرد أنانى حقير يبحث عن المال بأى وسيلة ..

وهنا قاطعه الصوت الخفىّ مرة أخرى

— إن المثل الذى ضربته الآن يعطى صورة بشعة للصفوة فى أوفريسيا فهل تقصد فعلا أن مَثلَ الطاهرة العاهرة العربيد والشحاذ المليونير يمكن تطبيقها على الواقع فى أوفريسيا

أجاب الصحفى وقد أفلتت أعصابه

— أمازلت تتساءل .. الم تفهم بعد أن من نسميهم الصفوة جميعا ممثلون .. أنهم يقومون بأدوار يمثلونها .. وأن الفرق هائل بين الحقيقة وما مُمثّل ...

أجاب الصوت الآخر فى هدوء

— لعلى فهمت .. لكننى مازلت أريد أن أستوثق إذا كان ماتقوله هو الحقيقة النهائية .. ألا يمكن أن تستعمل قدرتك الفذة على صياغة حقيقة أخرى فى وقت آخر ..

صرخ الصحفى :

— أنتم هددتمونى بالقتل إن لم أذكر الحقيقة . وأنا أعرف أنكم جادّون فى تهديدكم .. وعندما تكون الحياة فى خطر فإن الحقيقة هى التزامى الوحيد .

ردّ الصوت فى مرارة

— عندما تكون الحياة فى خطر فان الحقيقة هى الالتزام الوحيد .. جملة جيدة جديرة بك .. لكن .. ألا تنطبق نفس الجملة على أوفريسيا أيضا .. ألا ترى أنها فى خطر .. وأننا برغم أختلاقنا جميعا أبناؤها وأنّ الحقيقة يجب أن تكون التزامنا جميعا ..

صرخ الصحفى :

— لن تفهم .. لاجدوى منك .. فها أنت ذا تنتقل مرة أخرى من القناة الأولى إلى القناة الثانية كى تكمل نفس الفيلم ..

عند هذه الجملة كان الشريط الثالث عشر قد انتهى . كان المواطنون فى أوفريسيا

يتابعون هذه الشرائط من إذاعات أجنبية معادية وللأسف كان البعض يصدقها .

وقد وعدت محطة الاذاعة المعادية أن توافى الأوفريسيين بباقى الشرائط فى أسابيع قادمة .

استطاع المايسترو بطرس بقبته الخاصه أن يحصل على التفاصيل الواردة فى باقى الشرائط .

وبادر بالاتصال بالإمبرائيس فورا . فقد كان أحد هذه الشرائط يذكر كذبة خطيرة جدا يمكن أن تسبب إثارة قصوى للرعاع .

كان هذا الجزء يتعلق بالكاتب عبدالله حلمى النديم . فقد ذكر محمد أحمد أنه صدر قرار من جهات عليا بألاّ يخرج من السجن حيا . وقدم فى هذا الاطار معلومات مذهلة رغم أنها كانت تفتقر لأى مستندات . وقد زاد الطين بلة عندما قرر أن اتهام الدكتور عبدالله حلمى النديم لنائب رئيس الوزراء ليس صحيحا فقط .. بل إن الكارثة أفدح من ذلك وأعم ... وأن نائب رئيس الوزراء ما هو الا سمسار صغير للكبار . وذكر أن النديم قد تجاوز الحد المسموح به فى النقد عندما ذكر فى أقواله فى النيابة مايدين هؤلاء الكبار وقدم مستندات ووثائق تؤكد اتهاماته . كما أنه أشار فى التحقيق أنه سيقدم وثائق أخرى تكشف المزيد من التفاصيل . عند هذا الحد اتخذ القرار بموت النديم . وأعدت خطة عاجلة للتنفيذ لكنها لم تتم لأسباب لا يعرفها على وجه اليقين وإن كان يستطيع تخيلها .

وكان ملخص ما ذكر محمد أحمد أنه قد تم الاستيلاء على المستندات الصحيحة التى قدمها النديم إلى النيابة . وتم تزوير مستندات أخرى مشابهة بعد اجزاء بعض التغيير فى الأرقام والتوقيعات . وأن هذه المستندات الجديدة كانت متقنة . بحيث لن يستطيع حتى النديم نفسه اكتشافها . ووضعت المستندات الجديدة فى ملف القضية وأرسلت الى أكاديمية البحث الجنائى التى أثبتت أن المستندات مزورة . وفى نفس الوقت أجرى تعديل جوهرى على المستندات الحكومية فى الجهات المختصة بحيث يبدو التناقض بيّناً بين ما إدّعاه النديم والواقع . كما شُكّلت عدة لجان حكومية ولجنة تقص حقائق من مجلس الأعيان أثبتت كلها كذب النديم .

وكانت الخطة بعد ذلك أن تنشر هذه التفاصيل فى دوىّ اعلامى لا يسمح للنديم بالرد . وكان من البديهى أنه لن يسمح للنديم أن يحاكم أمام محكمة عادية ولا حتى عسكرية لأنه والمحامين معه قد يقلبون الوضع كله .... وكانت النية بعد ذلك أن يكثّف الاعلام حملة ضخمة عن انهيار النديم التام فى السجن ثم عن اصابته بجلطة فى القلب ينقل على أثرها الى أحدث مراكز القلب فى أوفريسيا حيث يلقى أعظم رعاية

ممكنة . لكن قسم العمليات الخاصة كان سيبدل المحاليل الدوائية داخل عبوات لعقاقير بصورة تقضى على النديم دون أن يستطيع أبرع الأطباء اكتشاف ماحدث فعلا .

واعترف محمد أحمد أنه عندما نشر مقالته عن حلمى النديم بعد زيارته فى السجن كان قد بدأ فعلا هذه الحملة .

ورجح محمد أحمد أن يكون حادث الانتحار المشئوم الذى حدث للمواطن الذى اتهم باختطافه وراء الغاء أو تأجيل عملية قتل النديم فلم يكن الرأى العام يحتمل الحادثين معا خاصة إزاء الحملة الضارية التى شنتها صحف المعارضة .

كانت صحة النديم فى السجن تتدهور بنفس الطريقة التى تدهورت بها صحة نابليون بونابرت فى منفاه الأخير . وكان موته بعد اعترافات محمد أحمد سيمثل قنبلة رهيبة ستفجر الرعاع ضد الحكومة .

نقل المايسترو إلى الإمبرائيس كل تلك التفاصيل وتم الاتفاق على تغيير الخطة تماما وأن يتم بأسرع مايمكن وقبل موعد إذاعة الشريط الذى يحتوى هذه المعلومات من الإذاعة المعادية .

صدر قرار الإمبرائيس بالعفو الصحى عن الدكتور عبدالله حلمى النديم وعدم تحريك الدعوى الجنائية ضده :

امتلأت الصحف بمقالات كبار الكتاب تشيد بقلب الإمبرائيس الكبير الذى استطاع أن يسع كل خطايا النديم وأن يغفر له اساءته للسلطة وللوطن برغم ما وصلت إليه النيابة من كذب كل ادعاءاته . لكن صحف المعارضة اتخذت موقفا لا يقرّهُ أى منطق حين أصرت على محاكمة النديم مدعية أن الافراج الصحى لا يغسل عن النديم تلك الأوحال التى قذفه بها من يشيدون اليوم بقرار الافراج عنه .

كان المايسترو سعيدا ...

لقد بذل فى البداية جهدا خارقا .. لكنه الآن لا يفعل شيئا إلاّ أن ينتظر .. وإن الدفعة التى أعطاها لأوفريسيا تجعلك الآن تسير بالقصور الذاتى دونما حاجة لجهود إضافى منه .

— ٢٢ —

عـنـدما اذاعت الأذاعة المعادية الشر يط الخاص بالدكتور عبد الله حلمي النديم كانت فرصة هـائـلـة لأجـهـزة الأعـلام فى اوفر يسيا أن تثبت أن كل هذه الشرائط ملفقة وأنه حتى إذا كان الـصـحـفـى محمد احمد قد قالها حقيقة فلا بد انه قد قالها تحت تهديد بالقتل يسلبه كل ارادة وكل مسئولية .

و برغم ذلك فقد واصلت هذه الأذاعة المجرمة إذاعة تفاصيل باقى الشرائط.

وفى مجموعة أخرى من الشرائط واصل الصوت الخفي استجواب الصحفى محمد احمد.

— فى جزء سابق من اقوالك ذكرت انك تنفى أى دور للشعب فى اوفر يسيا كنت تتحدث عن فك الجهاز المركب الى وحداته الأساسية والغوص الى الجذور كى يمكن اكتشاف الحقيقة. إن هذا الجزء هام جدا وأرجو أن تواصل الحديث فيه.
أجاب الصحفى:

— أوافق بشرط أن لا تقاطعنى لأنك تشتت أفكارى بمقاطعتك.

وأجاب الصوت الخفى:

— لك هذا.

كـان واضـحـا أن ذهن الصحفى مشوش وقد بدا عليه التردد طويلا (ذكرت أجهزة الاعلام فى

اوفر يسيا أن الخبراء قرروا أن الجماعة الارهابية التى اختطفت الصحفى تقدم له مواد مخدرة مما أدّى الى تشويش ذهنه وأن مايقوله هو فى الواقع تخريف لا يستحق الرد عليه أوحتى مجرد ذكره)

— تساءل محمد أحمد :

— من أى نقطة بالضبط تريدنى أن استمر.

سُمِعَ فى شريط التسجيل حفيف تقليب اوراق جاء الصوت الخفى بعدها :

— كنت تضرب مثلا عن كيفية وصول عضو مجلس الأعيان الى منصبه.. استدرك محمد احمد كأنما يخشى أن يفقد خيط الحديث مرة أخرى :

— أجل.. أريد فى البداية قبل أن انسى أن أقرر حقيقة هامة هى أن الولاء الكامل لأى انسان هو لمن يمنحه مقومات وجوده.... فالمتطرف الدينى مثلا يعطى كل ولائه لله .والعبد يعطى كل ولائه لسيده والجارية تقصر كل اخلاصها لمالكها.. والطفل يعطى كل ولائه لأبيه وامه.

بَدَتْ همهمة غامضة من الصوت الخفى لكنه كتمها سريعا بعد أن هتف محمد احمد :

— أرجوك ألاّ تقاطعنى ..سوف أصل الى ماتريد..ماهى المقومات الأساسية لعضو مجلس الأعيان.....

صمت قليلا ثم انفجر ضاحكا دون مناسبة وهو يقول :

— سؤال محير. الحقيقة أنه ليست له مقومات أساسية ألاّ أنه عضو فى المجلس .. ولهذا يكون طبيعيا أن يكون كل ولائه لمن جعله عضوا فى المجلس .. والذى جعله عضوا فى المجلس هى مراكز القوة التى حدثتك عنها قبل ذلك. نصل بذلك الى نتيجة منطقية. أنه إذا كان رئيس التحرير مجرد قلم فان عضو المجلس مجرد صوت ..وكلاهما لايعبر عن نفسه وانما يعبر عن القوى التى وضعته فى مكانه..

صمت الصحفى طويلا كأنما يستجمع افكاره ولم يقاطعه الصوت الأخر...

كـنـت تـتـحـدث بـعـد ذلـك عـن الـرأى الـعـام ..والـرأى الـعـام ليس إلا مجموع رأى الأفـراد..ورأى الأفـراد يـتـكـون مما يُـصـبّ فى اذهـانـهـم صـبا عـر الصحف.والإذاعة والـتـلـيـفـز يـون والـكـتـب..إنك تستطيع أن تلخص الأمر كله فى أن الرأى العام ما هو الا محصلة آراء الامبرائيس والصفوة التى تعاونه ومراكز القوى التى تصب اراءها فى وجدان الناس صبا.

ومـن يحـاول أن يخـالـف ذلك سيتهم فورا بالجحود ونكران النعمة وقلة الوفاء والغدر والخيانة والهـجوم على أمـه اوفـر يـسيا...ولن يخلو الأمر من محاولات حمقاء للتمرد كل حين وآخر.ولكن الامـبـرائـيـس والـصـفـوة ونحـن نقوم بحملة تيئيسيه مستمرة.. فلا أمل فى أى تمرّد.. الموت عاقبة كل خـروج على سيادة القانون.. يموت المتمرّد..وبدلا من أن يحرك فى الشعب جذور الثورة يكون هو نفسه دلـيـلا على اسـتـحـالـة الخـلاص مـن خـلال المجابهة. يبقى بعد ذلك ما تسمية الشعب تلك الكائنات الهزيلة المسحوقة.. أنصاف البشر.. الحلقة الباقية من التطور الحيوانى من قرد الى انسان.. فى الزمن البعيد وجد العبيد.. وفى هذا الزمن مازالوا يوجدون.. لقد اختفت السلسلة والطوق. لكنك مازلت تـراهـم محشورين فى الأتوبيسات وعلى أسطح القطارات فى منظر ليس مقطوع الصلة بهم وهم فى بطن سفن نقل العبيد القديمة. الآن نفس الشئ.. أنظر أيضا اليهم وهم يتصارعون على قطعة لحم أوزجاجة زيـت أورطـل مـن الـسـكـر فى المجـمـعـات.. أنـظـر اليهم وهـم يسيرون فى الشوارع نصف غائبين عن الـوعـى.. أنـظـر اليهـم ايضا فى عملهم. عبوديتهم للرئيس واستعبادهم للمرؤوس.. نفاقهم وصفاتهم الـوضـيـعـة.. هـل هـذا هو الشعب الذى تتحدث عنه.. ليسوا سوى صنف أرقى قليلا من الحيوانات وأدنـى كـثـيـرا مـن طـبـقـة الأنـسان الراقى التى نمثلها نحن.فهل تتوقع أن يكون لهؤلاء رأى عام..إن أقصى آمالهم علاوة دورية أومنحة سنوية وأن لا يشتد الرؤساء فى معاقبتهم وأن يقتصر العقاب كلما أمـكـن على الإهـانـة دون الخصم من المرتب. ثم أنت بعد ذلك تجدهم كحيوانات الغابة.. كل منهـم يكره زميله كما لوكان يغتصب حقه فى الحياة منه.. نشوته الكبرى عندما ينجح فى الأيقاع بين زمـيـلـه ورئيسه.. شكره لله أن المصائب تحل بالآخرين وليس به... أليس هذا هو الشعب الـذى تـتـحـدث عـن رأيـه الـعـام.. هل يمكن أن يكون لهذا القطيع رأى عام.. وحتى إن كان له فهل هذا الرأى جدير بأن يُحترم.

لم يستطع الصوت الخفى صبرا فقاطع الصحفى:

إنك تقدم صورة شديدة الاحتقار للشعب. وهذه مجرد وجهة نظرك أوعلى الأحرى وجهة نـظـر الـصـفـوة الـتـى تتحدث أنت بأسمها.. لكن لعلك تدرك أنه بنفس الدرجة وربما أكثر. كما تحـتـقـر الـسـلـطـة والـشـعـب وتـزدر يـه فـإن الـشـعـب يحـتـفـر الـسـلـطـة

ويزدريها ....لا ..ليس بنفس الدرجة بل أكثر بكثير..لأن السلطة قادرة على التنفيس عن الضغط داخلها بقمع الناس.. أما الناس فهم لا حول لهم ولا قوّة.

أجاب الصحفى:

- أنت تشتتنى مرة أخرى.. إننى لم أتكلم حتى الأن ى الجزء الرئيسى الذى بدأته..إننى حتى الأن اتحدث بصورة سلبية.. اننى أنفى ما اعتقدت أنت أنه جدير بأن يشكّل مركز ضغط للتحكم فى سير الأمور فى اوفريسيا..

قال الصوت الخفى:

— على العموم هذا الحديث السلبى هام جدا فن المهم أن نسمع وجهة النظر الحقيقية للسلطة فذلك يعيننا على فهم أفضل للأمور. لقد تحدثت حتى الآن عن مجلس الأعيان والرأى العام والشعب. بقيت فيما أظن نقطتان ثم ننتقل للجزء الرئيسى الذى كنت تتحدث فيه النقطة الأولى: دور السلطة القضائية والنقطة الثانية دور أحزاب المعارضة وصحفها.

أجاب الصحفى:

— لعلك تلاحظ تأكيدنا المستمر على عدالة القضاء وهيبته ونزاهته..ولعلك تدرك أن هذا التأكيد المستمر بالطبيعة يواجه نفيا لانتحدث عنه. إلا إن هذا التنفى ليس كما تصوره المعارضة. فبالنسبة للهيئة القضائية كانت أكثر الهيئات مقاومة للتبديل إلا أن فكرة عبقرية نبتت فجأة فقدمت حلاً شديد السهولة أمام السلطة. إننى أعود إلى ضرب الامثلة: إنك لكى تدخل قلعة حصينة إما أن تدكّ جدرانها دكّا وإما أن تمتلك بعض مفاتيح صغيرة لبعض الأبواب الجانبية وعن طريق هذا التسلل تستطيع السلطة أن تفعل ماتشاء.. خاصة أنه لم يكن فى حسبان السلطة ولارغبتها أيضا أن تستولى على القضاء كله. كان المطلوب كله أحكام بالاعدام على بعض الأبرياء..وأحكام بالبراءة على بعض المدانين..أما فى الغالبية العظمى من القضايا فمازال القضاء حرا فيها. إلا أنه كما تملك السلطة الترغيب بالمناصب فإن الترهيب موجود أيضا.. ولعلك تعلم أنه يوجد الآن فى سجن أوفريسيا الكبير ثلاثة قضاه متهمون بالرشوة. وعلى أى حال فالقضاء جزء من المجتمع يصيبه مايصيبه من أزدهار أو تدهور..

قال الصوت الخفى :

— يكفينا ذلك بالنسبة للقضاء فنحن نعرف عنه الكثير.. تبقى أحزاب المعارضة .

اجاب محمد أحمد :

— **لا توجد أحزاب معارضة. بل توجد قبائل متخلفة عبس وطى وغسان وكلب وبنى تغلب.. الصراع داخل كل حزب منها أكثر من صراعها الخارجي. ثم يتكفل الصراع بين الأحزاب المختلفة كى لايبقى لها قوة حقيقية تؤثر بها. والشئ الذى أؤكده لك. أن أى حزب لوتولى الحكم فلن يختلف فى ممارسته عن الحكم القائم الأن..إن كل حزب منهم يشتعل بالحقد الملتهب تجاه الحزب الآخر. فماذا تتخيل أن يفعلوا عندما يجلسون فى مقاعد السلطة سوى أن يسحقوا أعداءهم سحقا. ان هذا يصل بنا فورا الى النقطة الرئيسية التى بدأت بها الحديث.**

صمت الصحفى قليلا ثم بدت عليه نظرة زهو وهو يقول :

— **الحقيقة أن ميزة الفكر المتكامل أنك تستطيع أن تبدأ من أى نقطة فيه ثم تصل الى نفس النتيجة. لقد قلت قبل ذلك أن القوى المهيمنة فى أوفريسيا تنقسم الى ثلاثة أقسام :** القوة المسلحة وقوة الأعيان وقوة رجال الدين... هذه هى القوى التى يمثل الأمبرائيس قمتها ورمزها. ولنبته أولا من رجال الدين فقد تم تحييدهم منذ مئات السنين ولايوجد فضل للامبرائيس فى هذا التحييد. إنهم هيئة تتبع الأمبرائيس كما كانت تتبع كل الإمبرائيس سابق، كما ستتبع أى امبرائيس يأتى بعد ذلك. إن مذهب الامبرائيس دينهم وافعاله سنتهم، وكل من يقف ضده كافر.. ولأنه كافر فهو لا يستحق الجحيم فى الأخرة فقط بل فى الدنيا أيضا. تبقى بعد ذلك فئة القوة المسلحة ثم الأغنياء. إن أيا من أفراد هذه القوة يبدأ نموه فى دلخل أوفريسيا. لكنه لايكون مركز قوة حقيقى إلا عندما تمتد جذوره للخارج. إن العم للخارج. إن العملية شديدة التعقيد. إنه يبدأ نموه فى البداية بامتصاص القوة من السلطة لكنه سرعان ما يمد جذوره للخارج كى يصبح مركز قوى حقيقى. وإنك تستطيع دون جهد كبير أن تحدد انتماء كلّ مجموعة منهم.. فهذه تتبع دولة الشمال والأخرى مع الجنوب والثالثة مع الشرق والرابعة مع الغرب. و يتحول الوضع فى النهاية إلى أن مايبقى على هذه المراكز ليست رغبة الأمبرائيس وإنما ضغوط الدول فى الخارج وتوازنات السياسة المعقدة. وعند هذه النقطة ينفطمون عن ثدى أوفريسيا.. و يتحول ولاؤهم الى من يحفظ لهم أماكنهم.. يتحول الولاء من الأمبرائيس إلى الخارج.. إن الامبرائيس يمدهم بالقوة فى البداية..ثم يمدونه هم بالقوة فى النهاية لأن وجوده تكريس للاستقرار.. إستقرار كل واحد منهم فى مكانه.

سأل الصوت الخفى فى حزن:

ـ هل ينطبق هذا على المجموعة المسلحة وعلى رجال المال أيضا

أجاب محمد أحمد :

ـ ينطبق على الجميع .

قال الصوت الخفى فى مرارة :

ـ ياللكارثة ..

صرخ الصحفى فى توتر:

ـ أرجوك ألاّتقاطعنى .. إن الفكرة النهائية تكاد تهرب منى ..

بنفس نبرة الحزن قال الصوت الخفى :

ـ إننى أسف .. أرجوك أن تكمل .

قال محمد أحمد والكلمات تتسابق على شفتيه ربما كى يدرك الفكر قبل أن تهرب منه وربما كى يمنع مقاطعة الصوت له :

السؤال الذى يفسر كل شئ ويجيب على كل شئ هو: من يصنع الإمبرائيس ؟ لقد شرحت لك أنه ليس الشعب وليس الرأى العام وليس القضاء وليست أحزاب المعارضة .

تسارعت كلمات الصحفى وهى تتدفق من فمه كبركان طال احتباسه داخله وككارثة كبرى عليه أن يفرغ منها فى أسرع وقت:

ـــ من يصنع الإمبرائيس ؟ الإجابة تصنعه مراكز القوى .. السؤال الثانى : من يصنع مراكز القوى ؟ .. الاجابة : يصنعها الإمبرائيس !!.

التعليق : أعرف بنفسك من يمدهم بالقوة لتعرف لمن يكون ولاؤهم . إن الشجرة تمد جذورها حيث تجد الغذاء كمصدر للنمو والقوة .. فابحث بنفسك أين تمتد جذور هؤلاء جميعا .. من يمدهم بالقوة .. من يعطيهم الإستقرار والإستمرار .. ثمة مفتاح وحيد للعمليّة .. وهذا المفتاح لايوجد داخل أوفر يسيا بل خارجها حيث يتنافس الجميع على الولاء .

صمت محمد أحمد طويلا ثم قال فى حزن :

ـــ لقد انتهيت . لوتركتمونى أنتم فلن يتركونى هم .

ثم ارتجف صوته وهويقول :

ـــ فى البداية .. البداية الأولى قبل أن أنضمّ إلى المعارضة كنت إنسانا عاديا يملؤنى طموح أبله أننى يمكن أن أكون شيئا .. كنت أحلم بالمجد لأوفر يسيا بشرط أن أكون أحد صانعيه .. إنضممت إلى المعارضة كى أحقق حلمى .. إكتشفت أن الأمر مجرد لعبة .. أتقنت قوانين اللّعبة حتى تفوقت فى المعارضة .. بدا أن كل شئ سيضيع عندما كادت السلطة تسحقنى .. تعلّمت قوانين اللعبة الجديدة ثم برعتُ فيها .... كنت أعلم أن مواهبى أعظم من مواهب الصحفى الأكبر خنفس بوللى .. لكننى أقل سفالةً منه .. لذلك كان أكبر منى .. دخلت اللعبة الجديدة بقوانينها القديمة .. وكنت على وشك أن أكون الصحفى الأول لولا أنكم اختطفتمونى .

كانت بقية الشرائط تحوى معلومات مقززة عن رؤساء تحر ير الصحف .. وعن الصحفيين وعن طر يقة رئيس التحر ير فى كل صحيفة فى أن يصنع قالبا فكر يا لصحيفته و يبتر بمنتهى العنف كل خروج على هذا الخط ...... ثم تطرقت الشرائط بعد ذلك الى مواضيع تخدش الحياء العام حول علاقات الصفوة الحاكمة .. و بلغ من بشاعة هذه المعلومات أنه حتى الاذاعة الأجنبية المعادية اضطرت لحذف بعض ماتحو ية الشرائط بحجة أنها تخدش الحياء العام ..

على أية حال كانت الشرائط كاملة لدى المايسترو وقد سمع ورأى فيها كل التفاصيل .. ولم يكن مستريحا .

كـان الـصـحفى محمد أحمد من ضمن مئات الصحفيين المجندين لمنظمته دون أن يعرفوا .. لم يـكـن فى الـواقع يحترمه إلا انه كان يدرك أنه أفضل بكثير من غيره من المجندين وكان فى ترتيب المايستـرو أن يـسـلـط عـليه مزيدا من الأضواء فى السنوات القادمة .. إلا أنه كما قرر بنفسه قد انتهى .

— ٢٣ —

كانت الخطة العبقرية للمايسترو أن يبدو أمام الدهماء أن الحرية فى أوفريسيا مطلقة .. أن يتكلم الجميع وأن يكتب الجميع . لكنه بتحكمه فى منافذ النشر والتوزيع والدعاية والنقد كان يستطيع محاصرة فكر معيّن ونشر فكر آخر .. ولقد استطاع فعلا أن يحاصر مجموعة المثقفين إلى بضعة آلاف لا خطر منهم ولا تأثير لهم .. إنهم يتحولون إلى دائرة مغلقة يكتبون لأنفسهم و يقرأون لبعضهم البعض ليزدادوا اقتناعا بما هم مقتنعون به أصلا .. أما الآخرون من أدعياء الثقافة أو أنصاف المثقفين فسوف يُوَاجهون باستقطاب ثقافى لا يستطيعون مواجهته .. فالكتاب التابعين للمايسترو خاصة وكتاب الحكومة عامة مقالاتهم سهلة وكتبهم مفهومة لأنها تتجنب التعمق فى كل ما يمكن أن يثير مشكلة فكرية تنمى فكر الآخرين . ذلك أنه كان مقتنعا بأن الممارسة الفكرية كحل التمارين الرياضية سبيل لتدريب العقل على التفكير.... ولم تكن مشكلةٌ أن أنصاف المثقفين لا يقبلون هؤلاء الكتاب برغم أنهم يستطيعون فهمهم . لأنهم على الجانب الآخر لم يكونوا يستطيعون فهم آراء من يدعون أنهم كبار الفلاسفة والمثقفين . كان المايسترو يشجع بطرقة الخاصة هؤلاء على أن يزدادوا تعمقا وتخصصا .. لأنهم كلما ازدادوا تعمقا وتخصصا كلما انفصلوا عن مجتمع أوفريسيا المتخلف .. وكلما ازداد انفصالهم عنه كلما قل تأثيرهم فيه .. أنهم ينفطمون عن أفكار مجتمعهم المتخلف كما ينفطم الرضيع عن ثدى أمه .. ولابد لهم من هذا الانفطام كى يستمروا فى النمو .. وكلما زاد نموهم العقلى كلما بعدت الثقة بينهم و بين مجتمعهم .... إلا أن ذلك التأثير لا يسير فى خط مستقيم .. إذا أنهم سرعان ما يفقدون الفهم هم الآخرين .. لا يفهمون مجتمعا لا يفهمهم .... وبهذا يحاصرون أنفسهم و يقتصر تأثيرهم على نظرائهم فى العقل والفكر .. أما أنصاف المثقفين فهم يتوقفون عن تصديق ما يقوله الجميع .. كما يتسرب الشك إليهم فيما عرفوه قبل ذلك عن طريقهم .. وتفضّ الغالبية يدها من الأمر كله كى تنضم إلى قطيع المجتمع .. الذى لا يعرف ولا يفكر .. إلاّ أن أقلية تحاول المقاومة .. لم يعرفوا عن

طريق الكبار شيئا فليحاولوا أن يعرفوا بأنفسهم فليرجعوا إلى المصادر الأصلية وأمّهات الكتب .. لكن معظمهم لايملك الخلفية العلمية والقاعدة الثقافية التى تؤهلهم لذلك .. فتكون النتيجة أن يتشرذموا إلى جماعات متطرفة يمينا و يسارا أو شرقا وغربا .. ولايتوقف الأمر عند ذلك .. لأنّ بعض الخبثاء من المثقفين يدركون هذه الحلقة المفرغة التى يدورون فيها .. لقد بدأوا الكتابة على أمل أن يغيروا الواقع لكن شيئا لايتغير. ولم يكن المايسترو يتوقع ولا يريد أن يدفعهم ذلك الى إلاحباط والتوقف عن الكتابة فقد كان ذلك ينهى اللعبة قبل أوانها و يفسد خططه ..
وكان يحدث كما يحدث دائما ــ مايتوقعه المايسترو ومايريده .. يتصرف البعض إلى كتابة فلسفية غير مفهومة ولامؤثرة .. لكن البعض الآخر يندفع نحو الإثارة والتهيج مدركين أنهم بكتاباتهم يوقظون الآلاف من الشباب الذين سيتحولون ذات يوم الى شهداء أو الى قادة ..
وكان هؤلاء الشباب ــ خاصة الجماعات المتطرفة ــ هم الحاجز بين بطش السلطة والكتاب ..
إنّ الكتاب لايكفون عن الهاب وجدانهم بالكلمات والسلطة لاتكف عن الهاب ظهورهم بالسياط .. فيحتاج الكتاب أكثر ليزدادوا عنفا فى مهاجمة السلطة ... لكن السلطة لاتردّ على الكتاب وإنما تزداد عنفا فترد الصاع صاعين للشباب وليس للكتاب . وكان المايسترو يدرك أكثر من ذلك أن اللّعبة لايمكن أن تستمر هكذا فى دائرة مفرغة .. وأنه من المحتم أن يحدث انفجار فى اتجاه ما . فإما تمد السلطة درعها الطويل كى تخمد جذور الفتنة بسحق الكُتّاب .. أو أن يتحول الكتاب أنفسهم الى الإرهاب فيستبدلون قلمًا بلا قيمة بالخناجر والبنادق والقنابل .

كانت لعبة ذكية كالشطرنج .. الغلبة فى النهاية للأذكى .. وقد سيطر المايسترو وتماما على نظام الحكم و بقى له أن يكمل سيطرته على الرعاع ..

وكان ذكاؤه الوقاد قد رفعه الى قمة أصبح فيها حرب أعدائه يفيده أكثر من جهد معاونيه .

ـ ٢٤ ـ

كـان المأمـول أن يمتن الـدكـتـور عبد الله حلمى النديم لعطف الامبرائيس عليه فيتوقف عن سخافاته .. أو على الأقل كان المتوقع أن ينسحق فى أعماقه وأن يخشى فى داخله تكرار بطش السلطة إلا أنه كان كأقرانه لا يستفيد من تجاربه .

برغم الازدهار الذى كان يسود أوفريسيا والذى كان لا يستطيع انكاره إلا جاحد أو كافر فقد كانت هناك مصاعب تواجه الامبرائيس . لقد أثمرت القروض فى أوفريسيا شوارع من أبهج شوارع العالم .. وميادينا من أعظم ميادين الدنيا .. كما تم تأسيس بنيه أساسية من الخدمات الضرورية والكبارى والأنفاق والتليفونات والمصانع لكن السفلة يدعون أن كل هذا يخفى رشاوى مُقتنعة . وأنه مقابل زيادة الخدمات الكمالية انعدمت الخدمات الحقيقية من تعليم وصحة وتجهيزات حضارية حقيقية تستوعب طاقة العمل فى المدن والريف . وكانوا يدعون أيضا أن العمارات الفاخرة والأحياء الراقية تخفى خلفها أبأس أحياء العالم .. ماذا كان يستطيع الامبرائيس أن يفعل لهم أكثر مما فعل .. شعب لئيم جشع لا يشبع .. وها هو يشعر بدائرة الحصار تضيق حوله .. والديون تراكست ولم تعد الدول الأجنبية تقرضه المزيد . وثمة أزمات فى الخبز والطعام لا يدرى كيف يحلها .. ومن حوله من معاونين ليسوا سوى لصوص يقتنص كل منهم فرصة السلطة كى يغتنى منا .. الآن لا يُدينُ الشعب الأحمق هؤلاء . بل يوجه كل إدانته للإمبرائيس .

وأبلى خنفس بوللى بلاء حسنا عندما أخذ يطالب الشعب أن يربط الاحزمة على البطون كى تعبر أوفريسيا الأزمة الطارئة لتطلق ما يريدة الامبرائيس لها من ازدهار ورقى . وأخذ يقدم وعودا رائعة .. فطبقا لتوجيهات الامبرائيس سوف تحقق أوفريسيا إكتفاء ذاتيا من المواد الغذائية فى خلال ثلاث سنوات .. وأنه فى خلال خمس سنوات سيكون لكل مواطن مسكن خاص .. وأن باقى الأزمات ستحل تباعا طبقا لسياسة الامبرائيس الرشيدة .

لكن الشعب فى أوفريسيا كان كالحيوانات لا يفهم .. إنه لا يريد آن يصبر على أزمات طارئة فى الخبز والزيت والصابون والبقول .. وكان خنفس بوللى وبوخليل المسعودى وونيس الخربوطلى وعشرات غيرهم يصرخون فى الشعب الأحمق .ماذا يفعل الإمبرائيس لشعب كسول لاينتج ... شعب لايستطيع أن ينتج غذاءه سيظل يقترض حتى يعجز عن الإقتراض ...

ونشر بوخليل المسعودى نداء الى الشعب كى يتبرع لسداد ديون أوفريسيا كى تجتاز محنتها لكن الرعاع لم يستجيبوا. وليت الأمر اقتصر على عدم استجابتهم فقد أثبت الدكتور عبد الله حلمى النديم انتهازيته عندما اقتنص الفرصة فكتب مقالا كان عنوانه وحده يكشف عن الحقد المستعر داخل نفسه . كان العنوان :

« فليسدد الديون من سرقوها »

ولم يكن العنوان أسوأ ما فى المقال .. فقد قدم احصائية كاملة بالقروض وطالب السلطة أن تقدم بيانا بما تم إنجازه من عمل كى يدرك الشعب هل أنفقت هذه القروض على أموره فيسددها أوهل سرقها مفترضوها فيستردها ولوبقطع رقابهم .

كان تحريضا مباشرا على ازدراء نظام الحكم .. لكن السلطة لم تكن تريد أن تعيد تجربة اعتقاله خاصة مع هياج الرعاع .

ولم يكتف الدكتور النديم بما أشعله من نار .. ففى الأسبوع التالى كان يكتب مقالا أشد تهديدا للأمن القومى والأجتماعى من سابقة .. إذْ . قدّم نماذج من القروض وكيف صرفت ... إن مليار أوفريس قد أنفقت على استصلاح أراضى صحراوية لم تزرع .. لسبب بسيط هو أن سرعة نهب النقود كانت أكثر من سرعة استصلاح الأرض .. وقدّم مثلا آخر على نصف مليار أوفريس أنفقت على إنشاء بيوت زجاجية للنباتات كما يحدث فى الدول المتقدمة .. لكنّ هذه البيوت أنشئت على أراضى زراعية وليس فى الصحراء حيث كان يجب أن تكون .. ولم يقتصر تأثير هذه الصوبات على أنهالم توضع فى المكان المناسب .. وإنما تسبب استيرادها مخالفة للمواصفات من ناحية وعدم العناية العلمية بها من ناحية أخرى فى انتشار فطرانتشار فطريات جديدة فى تربة أوفريسيا أتلفت كثيرا من الزرع . ثم فجّر النديم قنبلته الكبرى عندما أثبت بمستنداته أنه كان يمكن ألاّ تكون هناك أزمة فى استيراد القمح منذ البداية وأن هناك فى أوفريسيا مليون هيكتار بور يمكن أن تستصلح بأقل التكاليف وتزرع قمحا تكفى استهلاكها .. وتساءل النديم وقد خلع برقع الحياء تماما .. لماذا لم تزرع هذه الأرض .. بل لماذا حوربت مشاريع القطاع الخاص لانتاج القمح كما حدث فى مزرعة الصحراء الكبرى التى هدمها الأمن بمدرعاته بعد أن بدأت فى الإنتاج بحجة عدم استكمال أوراق التمليك لها .. وخلص النديم الى حقيقة

صـارخة .. أنه يمكن لأوفريسيا آن تنتج مايكفيها من القمح .. لكن سياسة الحكومة التى حولت أوفريسيا الى ثانى مستورد للقمح فى العالم لم تكن تتم اعتباطا .. فقد كان يصحب الصفقات الهائلة لاستيراد القمح عمولات هائلة للمسئولين .. من أجل هذا حاربوا بكل ضراوة أى مشروعات لزراعة القمح فى أوفريسيا .

وفى مقال ثالث أخذ النديم يفند أقوال كبار الصحفيين عن شراهة شعب أوفريسيا واستهلاكه مقارنا هذا الاستهلاك بباقى شعوب العالم وأثبت بالاحصاءات الرسمية أن شعب أوفريسياً من أفقر عشرة شعوب فى العالم وأقلها استهلاكا ..

كان الكثيرون من صحفيّى المعارضة يتشجعون بكلمات النديم فيشاركون الهجوم.

وكانت عمليات الارهاب لاتتوقف فى أطراف أوفريسيا بل و بدأت تنتقل إلى العاصمة .

وكان الرعاع متذمرين .. ولم تكن تقارير جهات الأمن ولاتقارير جهاز التحكم والسيطرة تنبئ بخير..

واستنجد الامبرائيس بالمايسترو.. و بعد أن بثه همومه قال المايسترو فى ابتسام هادئ :

ــ ثمة حل سرى ينقذنا من كلّ هذه المشاكل .. حل أثبت كفاءته دائما ولم يخب قط ..

هتف الامبرائيس فى ضعف بعث النشوة فى أطراف المايسترو

ــ أدركنى به

قال المايسترو:

ــ فلنجر انتخابات جديدة .!!

ـ ٢٥ ـ

صدر القرار الإمبرائيسي بإجراء انتخابات جديدة فبثّ فى أوفريسيا حياة وحيوية كانت تفتقدها. وامتد النشاط إلى كل الجهات. فبرغم أن الجميع كان يعلم فى أوفريسيا أن نتائج الإنتخابات محددة سلفا إلاّ أن ذكاء السّلطة لم تجعل هذه النتيجة مغلقة بحيث تصيب المرشحين باليأس. كان المرشحون يدركون أن السلطة هى التى تنتخب وليس الناس. لذلك كانوا حريصون على أن يستعرضوا قوتهم المحلية المتضمنه قدرتهم على حشد الناس خلفهم، لأن هذه القدرة تعنى العكس فى نفس الوقت.. وكان هذا العكس أحرص ما تحرص عليه السلطة: أن يتمكنوا من إسكات من يستطيعون حشدهم عند اللزوم.

أما أحزاب المعارضة فقد وقعت فى نفس الفخ الذى وقعت فيه كل مرة قبل ذلك فقد كان غباؤها يمنعها من فهم أصول اللعبة.. فقد دخلت هذه الأحزاب الانتخابات بلهفة محمومة.. كانوا يدركون أنهم لن يستطيعوا الإنتصار على الحزب الحكومى فقد درجت العادة فى أوفريسيا أن من يحكم يظل يحكم. وكعادة كل كائن حى ـ بشرا كان أم حيوانا ـ فقد تجنبوا مواجهة الأقوى ليواجهوا الأضعف. وتحول الصراع أساسا الى صراع بين أحزاب المعارضة وأخذ كل حزب منهم يُشهّر بالحزب الآخر و ينشر أخطاءه وعيوبه و يستعيد ماضيه الأسود.

أما دعاية أعضاء حزب الحكومة فقد كانت عملية الى أقصر حد. كانوا موضوعيين و يفهمون حقا نفسية الجماهير. هذا الحى يحتاج بضعة آلاف من الأوفريسات لاستكمال مسجد.. تصرف فورا.. وهذه القرية تحتاج الى كوبرى يتكلف عشر آلاف أوفريسى: يصرف ألف أوفريسى لعمليات تمهيدية لإنشاء الكوبرى بحيث يشعر الناس أنه سينفذ فى أسابيع لكن الواقع أن تنفيذه كان يتأجل لانتخابات تالية يتكرر فيها نفس الأمر.... منحة من الحكومة للموظفين والعمال: عشرة أيام من المرتب مكافأة.. لم تكن تكلف وزير المالية شيئا ولم يكن

يعترض- كما كان يحدث فى عصور الانغلاق- فقد كان الأمر مجرد طبع مزيد من البنكنوت ولايهم بعد ذلك زيادة الأسعار والتضخم . منحة أخرى من الحكومة بإسقاط الدعاوى القضائية على مخالفات الفلاحين . .

ونظرا للاجتماعات والسرادقات ولافتات الدعاية والهدايا فقد ازدهر سوق التجارة وفتح الله بالرزق الحلال على فئات لاتجد رزقها الا أيام الانتخابات .

وكان المايسترو يضحك فى سخرية عندما يقرأ بعض كتاب صحف المعارضة وهم يناشدون بل يتوسلون إلى الامبراتيس أن يتدخل لإنقاذ اوفريسيا . . وكان يقول لنفسه : « هؤلاء الحمقى . وهل يستطيع الامبراتيس أن يغير شيئا »

ولما كانت الحكومة هى أمّ السلطات جميعها فقد صدرت تقارير أمنية بخطورة بعض المشاغبين فتم اعتقالهم على الفور. وكان هؤلاء يمثلون فى الواقع خطورة فى التأثير على الرأى العام أثناءالأنتخابات .

أخذ الدكتور عبد الله حلمى النديم يناشد أحزاب المعارضة أن تُوحّد كلمتها . وأن تواجه السلطة كجبهة واحدة لكن صوته تاه وسط صراعاتهم و وسط الجهود الفذّ الذى قام به خنفس بوللى وبوخليل المسعودى ونيس الخربوطلي لأشعال الفتن بين الأحزاب المختلفة .

وطالبت أحزاب المعارضة باعداد جداول جديدة للإنتخابات بحيث تشطب من الجداول القديمة أصوات المتوفين وتدرج فى الجداول الجديدة اسماء الشباب الذين لم يقيدوا بعد .

والحقيقة أنه كان طلبا أحمقاً فمن الطبيعى أن كل من يتوفى يُشطب اسمه تلقائيا من جداول الانتخابات بالإضافة الى حقيقة بديهية أخرى أنه على فرض وجود أسمه فى قوائم الأنتخابات فلن يخرج من قبره لينتخب . وأضاف ونيس الخربوطلي ساخراً أنه حتى اذا افتُرض أن الموتى سينهضون للإنتخاب فلماذا تتخيّل أحزاب المعارضة أنهم سيعطون أصواتهم لحزب الحكومة و بالنسبة للشق الثانى كان ردّ الحكومة مقْنِعاً فعلا وهو أن السلطة تترك الباب مفتوحا ستة شهور كل عام لمن يريد استخراج بطاقة إنتخابية وانه ليس من أصول الديمقراطية أن ترغم الحكومة الناس على أستخراج بطاقات انتخابية لأنها لو فعلت ذلك ستُتَّهم بالديكتاتورية .

وعندما يئست أحزاب المعارضة من ذلك طالبت بأن يوقع كل ناخب أنه أدلى بصوته أو أن يبصم أن كان لايجيد القراءة والكتابة .

وكان هذا الطلب يعبر عن مدى الشك الأسود الذى يعتمل فى صدر المعارضة وكان إهانة حقيقية للقضاءالذى سيشرف على الانتخابات .

كان نجم بوخليل المسعودى يصعد كل يوم . . وقد اضيفت اليه مكانة الكاتب محمد أحمد وأصبح يمهد نفسه أن يكون كاتب الأمبراتيس بدلا من خنفس بوللي الذى كانت المعارضة السافلة استطاعت ببذائتها النيل منه بتسميته الكاتب المفوض شعبيا أحيانا وكلب السلطة

أحيانا أخرى. و برغم أن مواهبه كانت محدودة إلاّ انه كان يملك نوعا منحطا من الذكاء مثل ذكاء الأمبرائيس واستطاع بمقالاته الطويلة أن يرج الشارع الأوفريسي رجّا عنيفا. إلاّ انه وقع فى سقطة خطيرة عندما أتهم أحزاب المعارضة أنها بلغت من الغباء والخبث والنذالة أنها تسعى أن تفوز فى الانتخابات لتستولى على السلطة. ولم تكن ضاحلة ثقافته بمبرر كاف له عن وقوعه فى هذه السقطة. لأن جوهر الانتخابات كما هو معروف أنه طريقة حضارية لانتقال السلطة بناء على الأختيار الشعبى الحر. وكان سقوط المعارضة فى الانتخابات هو الدليل الحىّ على رفض الشعب لها وعدم جدارتها بقيادة البلاد. وقد دفعت هذه السقطة احد كتاب المعارضة إلى الكتابة بسخرية عن بوخليل المسعودى قائلا أنه لم يبقى الا أن يتهم من يسعى الى الزواج بنواياه الخبيثة فى أن ينجب من زوجته أطفالا.

كان المايسترو طوال الأعوام الأخيرة حريصا أن يكون بعيدا تماما عن كل أجهزة الأعلام وأن يبدو بعيدا عن أى شبهة تأثير من قريب أو بعيد فى أى أمر من الأمور. وكان قد مر خمس اعوام على الأقل منذ ذُكِرَ أسمه فى وسائل الأعلام لآخر مرة. وكان حريصا على أن يقضى جزء طويلا من العام خارج أوفريسيا. وكان يلح على الأمبرائيس أن يخفى حتى عن أخلص خلصائه علاقتها الوثيقة مُقنعاً إياه إن ذلك لمصلحة الأمبرائيس. وقبل الأنتخابات بوقت كاف كان الأمبرائيس يحزم أمتعته و يسافر الى الخارج.

قبل الانتخابات حدث تطور خطير لم يكن فى الحسبان حين بدأت تنتشر شرائط كاسيت تهاجم النظام. كانت الشرائط تحوى كل الأكاذيب التى يرددها السفلة ضد السلطة.. وكانت بعض هذه الشرائط تحتوى على مقاطع من اعترفات الصحفى محمد احمد وكان بعضها الآخر يشرح ماتنشره صحافة المعارضة. إلا أن تأثير هذه الشرائط كان أخطر بكثير من هذه الصحف. فقد كان ٨٠٪ من شعب أوفريسيا أميين لايعرفون القراءة والكتابة وكان ٨٠٪ من ال ٢٠٪ التى تجيد القراءة والكتابة لا تقرأ الصحف عموما حكومية أو معارضة وكان ربع ال ٢٠٪ التى تقرأ الصحف الحكومية تقرأ أيضا صحف المعارضة وكان هذا يعنى ببساطة أن أوفريسيا التى يبلغ تعدادها مائة مليون نسمة يوجد بها ثمانين مليون أمى. وأن العشرين مليون الباقية لايقرأ منها الصحافة الحكومية سوى أربعة ملايين وأن مليونا واحدا من هذه الملايين الأربعة هم الذين يقرأون مختلف صحف المعارضة ولما كان عدد صحف الحكومة أكبر بكثير، كذلك إمكانيتها وصفحاتها فقد كانت صحافة المعارضة لاتحظى حتى بتأثير يوازى النسبة العددية لقرائها.. فإذا أضفنا إلى الصحف الحكومية لأصبح تأثير الأذاعة والتليفزيون والندوات الحكومية تأثير صحافة المعارضة لايكاد يذكر.

الآن تأتى هذه الكارثة الجديدة: شرائط التسجيل فيسمعها الجميع.. رعاع فضوليون سفلة يموتون شوقا لمعرفة فضائح الآخرين خاصة إذا كان هؤلاء الآخرون هم رجال السلطة. وباعت

كل محاولات السلطة لمحاربة هذه الشرائط بالفشل.. كانت تنتشر أنتشار النار فى الهشيم .. كان الشريط الواحد يتكاثر كما يتكاثر الذباب.. كان العشرات يسمعونه.. وكان كل من يملك جهاز تسجيل يسجل نسخة منه يسمعها عشرات آخرون يعيدون نفس الكرّة. وأصبح الشغل الشاغل للملايين سماع هذه الأشرطة.. لم يعد المواطن حين يقابل مواطنا يسأله عن الأسعار أو السكر أو الزيت أو الدقيق أو حتى السياسة وأنما يسأله:

- هل سمعت الشريط العاشر؟

فيرد عليه متباهيا

- بل سمعت حتى الشريط الخامس عشر.. فيتوسل اليه الاول أن يسمعها له..

واستطاعت السلطة أن تميز صوتا واحدا من بين الأصوات التى سجلت هذه الشرائط. إذ كان صوت الرجل الخفى الذى كان يحاور الصحفى محمد أحمد.

كان الشارع الأوفريسى يغلى فقد صدق الشرائط السافلة الكاذبة الحاقدة على السلطة.. وفى وسط هذا الجو المشتعل بدأت الأنتخابات.

وقد نجح الأمبرائيس أن يمتص جزء من السخط الشعبى عندما وعد شعب أوفريسيا بأن هذه الأنتخابات ستكون أنزه انتخابات فى تاريخه.

كانت دراسة عاجلة قد قدمت الى الامبرائيس عن سير الأنتخابات السابقة وكانت هذه الدراسة تُكذّب أقوال الرعاع والمعارضة الذين يطعنون فى كل انتخابات تجريها السلطة.

كانت الدراسه توضح أنه يوجد فى أوفريسيا عشرون مليون صوت انتخابى. وأن من يذهب الى الانتخاب لايتجاوز مليونين على الأكثر. وأنه لم يكن يتم تزوير مطلقا فى أصوات الذين يذهبون للإدلاء بأصواتهم. لكن فى نفس الوقت كان من حق السلطة أن تعتبر عدم حضور ال١٨ مليونا تعبيرا عن رضاهم عن السلطة.... كان هذا أمرا شديد الوضوح لكل من يملك عقلا. ولأن أكثر من ٩٠٪ من الأصوات التى يدلى بها أصحابها فعلا كانت تذهب للمعارضة، فقد كان هذا يعنى أنّ من يريد أن يعارض يذهب فعلا إلى لجان الإنتخابات.. و يترتب على هذه البديهية المنطقية أن من لا يذهب يؤيد الحكومة. وهكذا كان يقوم موظفوا اللجان بملئ بطاقاتهم بانتخاب مرشحى الحكومة.. كان أمرا منطقيا.. وكان الامبرائيس يسائل نفسه فى غضب: كل الحكومات فعلت ذلك فلماذا يستكثر هؤلاء السفلة علىّ أن أفعل مثله.

كـانـت ادعـاءات صـحـافة المعارضة كثيرة. وقد أصدرت جميعا طبعات خاصة صبيحة يوم الانتـخـاب كما قـرّرت المـعـارضـة إصدار بيان صحفى كل ساعة عن سير العملية الانتخابية.. وكـان ملخص هذه البيانات أنه قد شكلت غرفة عمليات عليا لمتابعة نتائج الانتخابات وتحليلها أولا بأول.

وكـان جـهـاز الـتـحكم والسيطرة قد قدم خططا كاملة كبدائل للتصرف وقت اللزوم حسبما تقتضيه الظروف.

وادعـت صـحـافـة المـعـارضة أن مراكز الشرطة قد استدعت عددا كبيرا من المشبوهين وتجار المخدرات والبلطجية ووعدتهم باسقاط التهم عنهم إذا ساعدوا السلطة عندما يُطلب منهم ذلك.

وجـاء التقرير الأول مذهلا.. ففى الساعة الأولى لفتح لجان الانتخاب توجه اليها أكثر من مليون ناخب.

كـان هـذا يـعـنـى طـبـقا للإحصائيات السابقة أن من سيذهبون للادلاء بأصواتهم إلى لجان الانتخاب حتى نهاية اليوم سيتجاوز خمسة عشر مليونا.. وطبقا للبيانات السابقة فقد كان المتوقع أن يـصوّت أكثر من ٩٠٪ منهم لأحزاب المعارضة.. وكان هذا يعنى كارثة.. كان يعنى إنقلابا فى نظام الحكم يجب أن يواجه بمنتهى الصرامة والعنف.

وصـدرت تـعـليمات فورية الى شيوخ القرى ومأمورى المدن بأن من تنجح المعارضة فى دائرته سـوف يـفـصـل فـورا مـن خـدمة الحكومة. ففى قرى أوفريسيا كان أى تصرف يعتمد على ثلاثة أسس: أولهـا الاحـتـرام الـقـبلّى لشيخ البلد وكبيرها والذى عادة مايكون كبير العائلة. ثم على فـتـاوى شـيـخ الجـامـع الـذى عـادة مـايكون موظّفا لدى الحكومة.. أمّا الأساس الثالث فليس مـنـفـصـلا فى الـواقع عن الأساسين السابقين إذْ كان يعتمد على دور الأسرة وخاصة الأم ــ الأم ــ الامّية ــ فى معظم الأحوال ــ فى تكريس قيم الخضوع والطاعة والتسليم بلا جدل برأى شيخ الـبـلـدة وشـيـخ الجـامـع حـيـث تختلط طاعتها بطاعة الله من ناحية كما أن عصيانها هو فى الواقع عـصـيـان لله يـسـتـوجب العقاب الالهى الذى يجرى على يد شيخ البلد أومأمور المركز. وعلى هذه الأسـس فـقـد نجـحـت الخـطـة فى القرى إلى حد كبير. استطاع معظم شيوخ القرى إغلاق لجان الإنـتـخـاب مـنذ العاشرة صباحا وملئ بطاقات الإنتخاب لصالح حزب الحكومة... وقد صدق حـدس الأمـهـات.. فـإن الـشـبـاب الطائش الذى خرج على رأى شيخ البلد وأصَر على الإدلاء بـصـوتـه فى الانتخابات قد ضرب ضوبا مبرحا.. ولم يتمكن برغم ذلك من الإدلاء بصوته. كما انـسـحـب جميع مندوبى المعارضة من اللجان إمّا احتراما لشيخ البلد أو هرباً من الإهانة. وكان هـذا فى الـواقع دليلا لاينحض على صدق وجهة نظر الأمهات والآباء الذين لم يكن يدفعهم مجرد الحـرص الـديـنـى على طاعة أولى الأمر بل الخوف على فلذة أكبادهم من بطش السلطة.. إلا أن الـشـبـاب الطائش الذى لحق به الإيذاء لم يكن يرى فيما تعرض له من ضرب عقابا الهيا استحقوه

لخروجهم عن ولىّ الأمر.. بل كانوا يرونه إجراما من أعداء الله.. من أبى لهب المتسلّط على القرية وأبى جهل الذى يخطب فى المسجد بما لم ينزل الله.. بل ووصلت بعض الجماعات الدينية المتطرفة فى جنوحها الى تكفير من يساعد الشيوخ على تزوير الانتخابات.. الا أن هذه الآراء كلها لم يكن لها فى الواقع قيمة.. لأن شيئا منها لم يصل إلى صناديق الانتخابات.

فى المدن كان الأمر أشد صعوبة.. لأن الناس هناك قد فقدوا أخلاق القرية وتقاليدها الراسخة حيث مازال الناس يتّسمون بالأدب والطاعة و يوقرون كبيرهم. كما أن العلاقات الأسرية المتفسخة فى المدن وانشغال الآباء والأمهات عن تربية أبنائهم تربية صحيحة فى كدهم الدؤوب لتوفير لقمة العيش.. كل هذا أدى إلى اختلاف التركيبة الاجتماعية فى المدن عن القرى.....

أصر مندوبو أحزاب المعارضة على التواجد فى اللجان.... لكن السلطة المدرّبة بدأت فى تنفيذ الخطة الأولى وتم استدعاء البلطجية والفتوات ليفتعلوا مشاجرات داخل اللجان ثم يتهموا مندوبى المعارضة بالاعتداء عليهم.... وتحضر الشرطة لتأخذ الجميع الى مراكز الشرطة وتحتجزهم الى نهاية الانتخابات. وقد نجحت هذه الخطة فى بعض اللجان.. إلا أنه فى لجان أخرى لم ينجح ذلك.. فقد كان هؤلاء المعارضون السفلة على قدر من التطرف جعلهم يرفعون شعارا أحمقا يقولُ شهيد لكل صندوق انتخاب.. وكما كان لحزب الحكومة فتوّاته فقد كان لهم هم الآخرين فتواتهم.. ونشبت معارك دامية على أبواب لجان الإنتخاب سقط فيها عشرات القتلى.. كانوا حريصين على أن تدور المعارك خارج اللجان وليس داخلها.. وكان مايحدث يمثل شكلا مصغرا لحرب أهلية.. وتعاطف رعاع الشعب مع رعاع المعارضة فأصبح الأمر أشد صعوبة بالنسبة للجنة العليا لمراقبة الأنتخابات.. وكادت تحدث كارثة بأن ينجح عدد كبير من الرعاع فى الإدلاء بأصواتهم.. خاصة أن عددا منهم لجأ الى رؤساء اللجان الرئيسية وكانوا من رجال القضاء.. و برغم أن السلطة قد أختارتهم بعناية إلاّ أن معظمهم كانوا تقليديين فى عملهم و برغم أنهم كانوا يعرفون بما يحدث إلا أن موافقتهم عليه كانت مقصورة على عدم اتصاله بعملهم اتصالا مباشرا.. وقد تصرف بعض هؤلاء القضاة تصرفا أحرج السلطة إحراجا كبير عندما انتقلوا فعلا إلى لجان الإنتخاب ليثبتوا ما حدث فيها.. لكن عددا آخر من القضاةالذين يفهمون أسرار السياسة قد تدارك الأمر وساند السلطة.. و برغم كل هذه الأجراءات من السلطة فقد كانت مشاعر الرعاع قد أسفرت عن حقيقتها عندما قلّ خوفها من السلطة وعندما قلّ هذا الخوف انفجرت مشاعرهم الوضيعة فى عنف مدمر.. كان رأيهم فى أنفسهم نفس رأى السلطة فيهم.. أنهم بلا قيمة.. إلا أنهم كانوا يزيدون على ذلك أن أنسانيتهم مهدرة.. أنهم مختنقون لاستحالةالتعبير عن الذات وعدم استطاعتهم نقل رأيهم إلى صناديق الإنتخاب.. وقد فجّر فيهم

كلّ هذا إحساسا عميقا ليس باحتقار الذات فقط .. بل بالرغبة فى إعدام هذه الذات بمواجهة السلطة المسلحة بأشد درجات العدوانية بدائية وهمجية وتدميرا .. وهى مواجهة لايمكن أن تسفر عن انتصارهم .. لم تكن بطولة ولا شجاعة .. وإنما درجةً من اليأس دفعتهم لإلقاء أنفسهم إلى التهلكة.

كان الوضع خطيرا .. وكان منطقيا أن تستعيد السلطة زمام المبادرة فصدرت الأوامر بعدم الاعتماد على الفتوات بل يتدخل قوات الأمن الرئيسية تدخلا مباشرا لإغلاق اللجان. وقد نجح هذا الاجراء فى قمع الجماهير التى تراجعت فى جبن كفئران مذعورة .. و برغم جبنهم فلم يتورع بعضهم عن الكذب — وهم الذين يدعون الإيمان — فأقسموا بالله أنهم شاهدوا بأعينهم بعض القضاه يساعد بنفسه فى ملئ بطاقات الإنتخاب لحزب الحكومة ...

فى المناطق النائية حيث الغابات والأحراش والصحراء كانت هناك تراكيب اجتماعية مختلفة كما كان هناك عجز واضح فى أعداد قوى الأمن لم تمكنها من مثل هذا التدخل .. وصدر أمر حكيم من اللجنة العليا بعدم التدخل فى مثل هذه اللجان حيث أن المواجهة فيها قد تسفر عن مجزرة لرجال الأمن .... وصدر فى نفس الوقت أمر إلى عواصم المقاطعات باعداد صناديق جديدة توضع فيها بطاقات جديدة .. وأن تُعدم الصناديق الأصلية فور وصولها للفرز كى يتم فرز الصناديق التى أُعدت مسبقا

وتم فرز الصناديق تحت إشراف قضائى اثبت فوز حزب الحكومة ب ٩٥٪ من أصوات الشعب.

كان الإمبرائيس يشعر بالضيق وهو متوجه لإلقاء خطبة افتتاح مجلس الأعيان. لأول مرة تخيب نصيحة المايسترو. لقد أشعلت الانتخابات هياج الرعاع ولم تقلله .... لشدما يبغض الإمبرائيس هؤلاء الرعاع .. إنهم دائما شوكه فى حلقه. كانوا كذلك وسيظلون أبدا كذلك ....
كاد يضحك ضيقا وهو يتخيل ذلك الأحساس الأحمق الذى يشعر به صعلوك ممزّق الثياب بحقّه فى اختيار مجلس أعيان البلاد .. صعاليك رعاع حمقى .. أقصى ما يستحقونه مجرد الحياة .. و برغم ذلك فان خيالهم المجنون يخيل لهم أن لهم الحق فى أختيار مجلس الأعيان بل والتدخل بعد ذلك فى رسم سياسات داخلية وخارجية لايفهمون عنها شيئا ما قيمة هؤلاء الصعاليك حتى يتخيلوا لأنفسهم كل هذه الحقوق التى تصل إلى حق اختيار الامبرائيس أيضا .. شعب أحمق متخلف ..
إن فكرة عبقرية تدور فى ذهنه سوف يناقش فيها المايسترو بعد عودته من الخارج .. أن تلغى الانتخابات نهائيا وأن تكون كل المناصب بالتعيين ... قمة الحماقة لدى هذه الجماهير الغبية العمياء هو تسلط فكرة المساواة عليها .... لكن الناس ليسوا سواسية أبدا .. ولكن يكونوا كذلك .. إن الفارق بين خنفس بوللى مثلا وأى واحد من هؤلاء الرعاع لايقل عن الفارق بين

الرعاع والحيوانات.. فإذا كانت فلسفة هذه الانتخابات السقيمة يجعل صوت خنفس مساو يا لصوت غبى أحمق همجى فلنسمح إذن للكلاب والحمير والثيران والأبقار أن يكون لها فى الانتخاب صوت. فتلك الحيوانات العجماوات ليست أكثر حماقة وغباء من هؤلاء الرعاع الذين سببوا له كل هذا الضيق... ما أشد حكمة القدماء الذين قصروا حق التصويت على الأغنياء.. تلك الطبقة الذكية التى تستطيع أن تفهمه و يستطيع أن يفهمها.. يجب أن يتم أيضا إلغاء صحافة المعارضة بل والغاء الأحزاب جميعا.. لكم شعر بالاشمئزاز اليوم من عنوان إحدى هذه الصحف الحقيرة التى نشرت مانشيتا عريضا باللون الأسود.

« باعوا أوفريسيا »

« انتخابات مزورة »

لكن الحقيقة التى ارتاح لها الإمبرائيس قليلا أن معظمهم كان يُنحى باللائمة على وزير الشرطة وقد اتصل وزير الشرطة ليخبره عن حادث مؤسف حدث فى الصباح... أحد الرعاع ركب دراجة وأخذ يطوف بها شوارع أوفريسيا العاصمة وهو يحمل صحيفة المعارضة و يصرخ باكيا :« باعوا أوفريسيا.. انتخابات مزورة ».. وكاد هذا الملعون يتسبب فى تكدير الأمن.. لولا أن مواطنا مجهولا أطلق عليه الرصاص فأرداه قتيلا .. .. كان وزير الشرطة قد لجأ الى هذه الحيلة العبقرية كي لا تُنْسَبَ بعض الجرائم إلى جهاز الأمن.. أن يسير بين الناس جنود بلباس مدنى يستطيعون التصرف الفورى دون أن تحمل السلطة وصمة أفعالهم..

إن الإمبرائيس مستاء.. ما أقسى العبء الملقى على عاتقه.. وما أكثر الأشياء التى يمكن أن يفعلها.. يجب أن يحدد كثير من الأمور.. وأن يعاود التفكير فيما فكر قبل ذلك فيه.. لكن الآن يجب أن يواجه هذه الجماهير بما يزيد من رعبها.. أجل يجب أن يطرق الحديد وهو ساخن.

وفى مجلس الأعيان الجديد استُقبلَ استقبال الأبطال فقلّت مرارته.. .. .. وأخذ يحيى الأعضاء الجدد الذين وصلوا الى قمة السلطة التشريعية بأنزه انتخابات فى تاريخ أوفريسيا.

ثم ألقى الامبرائيس قنبلته التى أجّلها لوقت مثل هذا...

وأصدر قرارا إمبرائيسيا بتعيين وزير الشرطة نائبا للإمبرائيس ...

كانت ضربة مذهلة للمعارضة وللرعاع الذين ظنوا أن الأمبرائيس سيضحى بوزيره ليمتص غضب الرعاع.. الآن يشعرهم أنه سيواجه.. وأنه لن يترك أحدا يخل بالأمن فى أوفريسيا.. وكما توقع المايسترو تماما.. كان تأثير القرار على رجال الحكومة لا يقل عن تأثيره على الرعاع..

رفع جهاز التحكم والسيطرة تقريرا عاجلا عن الانتخابات الى المايسترو في الخارج ـ كان التقرير يحتوى على تفاصيل مذهلة.. فان عدد الأصوات التى حصل عليها حزب الحكومة فعلا لم يتجاوز ٢٪ من مجموع الأصوات الصحيحة. ونوه التقرير بمشاعر السخط العنيف التى تجتاح أوفريسيا وبزيادة انتشار شرائط الكاسيت التى تهاجم الحكومة.

ـ ٢٦ ـ

كان الإمبرائيس يسير فى غرفة مكتبه مهتاجا .. ملعون أبو المايسترو .. أشار عليه بالانتخابات كي يلهي الشعب ثم تركه وسافر .. ولم تله الانتخابات الشعب الذى خرج فى مظاهرات عارمة بعد أن ألقى خطابه فى مجلس الأعيان .. حيوانات بشرية لاتخشى الموت .. وكل يوم يزيد أوار المظاهرات فيتسلل الى قلبه رعب رهيب .. و يسائل نفسه : هل أكمل الزمان دورته وآن الآوان لكى ينتهي بالقتل أو السجن أو مستشفى أمراض عقلية .... إنه يحاول أن يلهب نائبه بالأوامر ... أقصى درجات العنف مع هؤلاء السفلة .. أطلقوا الرصاص فورا على أي تجمع .. ولتسحق مدرعات الشرطة أفواجهم المهتاجة كالحمير الوحشية .. كان القتلى كل يوم عشرات .. ثم اصبحوا مئات .. لكن تلك الدماء المسفوكة كأنما كانت وقودا يلهب مزيدا من المظاهرات .. ستون يوما والمظاهرات لا تهدأ .. لم يعد يملك الوقت ولا البال الذى يستجدى فيه لهؤلاء الرعاع من الدول الأجنبية غذاءهم .. وعندما حدث ذلك شحت المواد الغذائية فانتهز التجار الفرصة ورفعوا أسعارهم .. كانوا هم الآخرين كلابا .. الجميع كلاب ينهشون فيه ولا أحد يرحم .. هو الآخر لن يرحم أحد .. فلتمتلئ السجون بكل من يحاول تكدير الامن فى أوفريسيا وجاءه نائبه ليقرر له أن جهاز الأمن والميليشيا الشعبية غير قادرة على حفظ الامن ... وسأله بارتياع فما هو الحل إذن ... وأجاب النائب لا مفر من نزول الجيش .. ..

هذا الوغد .. أيحاول أن يلعب معه اللعبة القديمة التى لعبها هو نفسه مع الإمبرائيس السابق .. انه خائن .. الجميع خونة .. وها هو ذا يرسل استدعاء كل يوم للمايسترو كى يعود لكنه لا يعود .. خائن جبان مثلهم .. عندما تنتهى هذه الأزمة سوف يعاملهم جميعا كالكلاب .. سوف يسحقهم سحقا .. لن يعود فى أوفريسيا رجل كبير إلاّ هو وحده .. .. .. لكن عليه الآن أن يستعيد جلاء عقله القديم .. أن يتعامل مع الجميع و يلعب معهم اللعبة حتى ينتصر .. يريد النائب نزول الجيش إلى الشوارع ... فلينزل الجيش .. وإنه مستعد أن يخلع ملابس الإمبرائيس

لينزل فى الشارع دفاعا عن أمن أوفر يسيا واستقرارها لكنه غير محتاج إلى ذلك الآن.. عليه أن يواجهه نائبه فهو مصدر الخطر الداهم وليست مظاهرات الدهماء...... وأصدر أوامره بنزول الجيش لكنه كان قد رتب بحيث لا يستطيع أن يستولى على مكانه.. إن كان لا بد من الهزيمة فليس قبل أن يُهزم الجميع.. ليكن هو آخر المهزومين.. وفى اليوم الأول لنزول الجيش إلى الشوارع حدثت مجازر رهيبة راح ضحيتها الألوف.. كانت الدبابات تسحق أجساد المتظاهرين لتحولهم الى كتلة من شيء مفروم لاشكل له.. و بدا فى نهاية اليوم أن الرعاع سيهزمون.. كانت تنبيهات الإمبرائيس على نائبه أن لا يترك مكتبه وأن يحيطه بكل التفاصيل لحظة حدوثها.. وفى نهاية اليوم كانت المكالمة المائة أو الألف من النائب له أن يطمئن... وفى نفس اللحظة سمع الامبرائيس عبر سماعة التليفون انفجارا هائلا قُطع الاتصال بعده..

اطمئن الامبرائيس أن نائبه قد نُسِفْ.. وأصدر قرارا بعقد اجتماع فورى لمجلس الأمن القومى وقادة الجيش.. وفى هذا الاجتماع أصدر أوامر صارمة محددة على كل قطاع أن ينفذها.. بدت عليه معالم القوة والجبروت لكنه كان يرتعد فى داخله... إنه ينظر فى عين كل قائد من قادة الأفرع كى يسبرأغواره.. كانوا دائما هم المحتاجين إليه.. الآن يحتاج هو إليهم.. فمن منهم ينوى خيانته.. الجيش... السند الرئيسى لدعامة الحكم.. وفى نفس الوقت الخطر الرئيسى عليها.. فهو حام غول.. ومصدر الأمن هو نفسه مصدر القلق..

فى اليوم التالى سالت الدماء أنهارا فى الشوارع والدبابات تقذف بحممها جموع المتظاهرين.. لكن مسا من الجنون كان قد أصاب الجميع... كلما اذدادت قوة القمع اذدادت حدة الهياج..

وكانت كلمات خنفس بوللى وونيس الخربوطلى وبوخليل المسعودى وعشرات غيرهم تشتعل نارا.. ولقد حاولوا قدر جهدهم أن يعزوا هذا الهياج إلى صراع طائفى محذرين الأقلّيات ومطالبين لها بأن تواجه نفسها الشعب الذى يقوده الغوغاء بهدف إقامة حكم يسحق الأقليات سحقا.

لكن صحافة المعارضة لم تتوقف عن إشعال النار فى الرعاع.. فقد أخذت من ناحية تستغل معاناة الجماهير ومن ناحية أخرى تذكر وقائع مذهلة عن التعذيب الوحشى الذى يتعرض له المعتقلون..

وصدر بيان من وزير الشرطة ثم أكّده الامبرائيس بأن كافّة الضمانات تُوفَّر لكلّ المعتقلين فى ظل سيادة القانون.

لكن إذاعة معادية مجرمة أذاعت شريطا كاملا سجل عليه أصوات صراخ وحشية للمعذّبين فى السجون. وتلقفت صحيفة معارضة ذلك الخبر الدنئ وأكّدت أن الشريط موجود فعلا وأنه توجد لديها نسخة منه.. وأنه شريط فيديو.. وعرضت بعض اللقطات منه.. ولم يكن أحدٌ فى أوفر يسيا تقريبا يعلم أنّ هذا الشريط هو الذى سجله العقيد أحمد راشد قبل موته.

كانت ضربة صاعقة لأجهزة الأمن فى أوفريسيا إلاّ أنّ السلطة اعتمدت على التكذيب المستمر متحدية الصحيفة أنْ تُظهر الشريط ومتهمة تلك الصحيفة بالتخريف .. فإذا كان التعذيب كما تدعى الصحيفة فكيف تسنى لأى إنسان أن يتسلل إلى السجن ليقوم بتصويره ...

وكتب الدكتور النديم مقالا أحمقا قال فيه أنه وإن كان لا يوافق على أعمال العنف الا أنه يدين عنف الجانى لا عنف الضحية .. وأن الشعب المقهور عندما يخرّب الآن و يدمر فى المظاهرات فانه لا يفعل إلا ما كانت تقوم به السلطة دائما .. وأن الناس يحسون أن ما هو عام ليس ملكهم لذلك يحطمونه .. يحطمون حتى الوسائل التى يستخدمونها فى حياتهم اليومية .. لأنهم يدركون أنها تُقدّم إليهم لا كحق أصيل لهم وإنما كمنّة وفضل لا يستحقونه .. وأخذ النديم يحلل بصورة بشعة ما يحدث منتقدا السلطة فى أوفريسيا .. ومتهما لها بأن سياستها دائما كانت سياسة تدبير الحال لا التخطيط .. وأن الخطط عندما كانت توضع فقد كان ذلك يحدث فقط بغرض إيهام الشعب بمستقبل يضج جدا لآلامه وعنائه .. وأن هذه الخطط كانت دائما إلهاء للناس وامتصاصا لنقمتهم .. وفسّر النديم عنف المظاهرات بأنها الجانب الآخر لليأس ... أنه السلاح الوحيد والأخير لإعادة شئ من الاعتبار المفقود الى ذات الجماهير المهدرة .. وأن سياسة الحكومة وتزوير الانتخابات قد جعلت العنف هو لغة التخاطب الأخيرة الممكنة مع السلطة حين يحس الشعب بعجزه عن إيصال صوته بطرق الحوار المشروعة بعد ترسخ القناعة لدى الشعب بفشله فى إقناع السلطة بالاعتراف بكيانه وقيمته .. إن الشعب الآن يحاول بتمرده استعادة كرامته المثلومة .. اعتباره الذى لم تعترف السلطة به .. أمواله التى أهدرتها السلطة .. ثروته التى استولى عليها الحكام .. إرادته التى اغتصبتها الحكومة .

لم يكن الأمر يتسع لحماقات النديم فصدر قرار فورى بمصادرة جميع صحف المعارضة وسحب الترخيص بها واعتقال كل كتابها .

كانت قوات الجيش مازالت تحصد الجماهير حصداً ...... لكن الرياح لا تأتى بما تشتهى السفن دائما .. فثمّة واقعة صغيرة حدثت قلبت الأمور كلها رأسا على عقب .. وربما كانت الواقعة لم تحدث قط إلا فى مخيلة أشرار سفلة أطلقوها فأتت التأثير المقصود منها وكأنها حدثت فعلا .. كانت مجموعة الجنود فى دبابة تطارد المتظاهرين وكانت الأوامر قد صدرت بنسف البيوت التى يلقى المتظاهرين منها الحجارة وزجاجات المولوتوف .. وبلغا فى نهاية الشارع منزل يعتليه المتظاهرون .. وصدر الأمر لدبابة المقدمة أن تنسف هذا البيت بمن فيه ..... لكن قائد الدبابة صرخ فجأة :

هذا بيتى ...

وجاءه الأمر عبر اللاسلكى ..

— أنسف البيت فورا ..

وضع قائد الدبابة يده المقود .. راح ينظر .. ولمح شبحا يتحرك خلف نافذة .. تخيل لوهلة أنها أمه .. إنها فى البيت .. اينسفها ؟ .. جاءه الأمر صارخا مرة أخرى .

— أنسف البيت

فى لحة خاطفة أدار برج الدبابة بحيث اتجه مدفعها الى الخلف ونسف دبابة قائده ..

إنتشرت هذه الحادثة فى أنحاء أوفريسيا فى لازمن .. فهمها قُوّاد الجيش أكثر بكثير من حقيقتها حين تخيلوا ان بعض فرق الجيش قد تمرّدت .. وفهمها الرعاع على حقيقتها .. أن جنود الجيش أبناءهم وإخواتهم .... وبلا تخطيط تغيّر فورا تكتيك المظاهرات .. وبعد أن كان الناس يجرون أمام الدبابات راحوا يجرون نحوها .. كان منظر الدماء والأشلاء رهيبا وتوقف الجنود عن اطلاق النار .. وصعد الناس على ابراج الدبابات .. وهتف صوت مشروخ تحيا أوفريسيا ..

وفى لحظات كانت السماء والأرض تهتز لدوى الهتاف الذى أخذ الرعاع والجنود يرددونه .. « تحيا أوفريسيا » ..

كان الإمبراثيس يعرف مايحدث لحظة بلحظة .. لكنه لاحظ فجأة أن الحرس الإمبراثيسى يهرب من قصره .. أعمل فكرة بسرعة .. وأدرك أن الجميع قد خانوه .. عليه الآن أن يهرب بجلده ـ لو رآه الناس الآن فسوف يمزقونه إرباً .. الوقت يمضى والخطر ماحق .. عليه أن يفكر .. فكرة رائعة من أفكاره القديمة .. هاهى .. لايوجد شئ آخر ..

ولبس الإمبراثيس ملابس امرأة منقبة .. تسلل من باب خلفى للقصر وأندس وسط الجماهير المتجهة نحو القصر هاتفا معهم :

تحيا أوفريسيا

لكنه كان يفكر فى نفس الوقت فى وسيلة للهرب إلى الخارج ..

— ٢٧ —

—

الأن . . .

ليس أخيرا . . وإنما فى الوقت المناسب تماما تأتى لحظة الانتقام ياموسى الدهان
هكذا كان المايسترو يحدث نفسه وهو يُصدر أوامر صارمة إلى حيدر الطرابلى .

— أحد الأعوان الخمسة ونائب رئيس مركز التحكم والسيطرة — بضرورة القبض على موسى الدهان وتقديمه إلى الشعب لمحاكمته . .

إلا أن رغبته فى الانتقام لم تنسه شئون أوفر يسيا فاجتمع برئيس المركز و بعض أعضائه لإعداد خُطةٍ لتوجيه غضب الرعاع إلى الوجهة التى ير يدها . . فثمة غضب هائل وطاقة مدمرة عمياء . . . وكان على ذلك كله أن يجد متنفسه بتقديم ضحايا . . بل و بقتل البعض احيانا تشفّيا وانتقاما . . . . . وكان بعض من صدر الأمر بتحر يض الرعاع لقتلهم مقنعين استنفدوا أغراضهم أو أصبحوا خطرا على سياسة المايسترو . .

نجحت أجهزة المايسترو — كما كانت تنجح دائما — فى القبض على موسى الدهان متخفيا فى ملابس امرأة منقبة فى ميناء ساحلى صغير أثناء محاولته الهروب من أوفر يسيا . . . . . . ونشرت الصحف والإذاعة والتليفز يون على أوسع مدى ممكن صورة الإمبراتيس الجديدة ساخرة منه شامتة فيه .

يجب أن يتحول اهتمام الشعب كله إلى محاكمة الإمبراتيس واعترافاته ، ولكن قبل ذلك

يجب بناء هيكل جديد للسلطة يقوم بمحاكمة الإمبرائيس ودفع المايسترو أعوانه اءلى تقليب وجهات النظر فى صحافة أوفريسيا وكل منهم يعرض فكرة جديدة لنظام جديد للحكم .. كان المايسترو يقود الجميع الى الفكرة النهائية الموجودة قبل ذلك فى خلايا مخه .... لقد عُرض كلّ رأى وفُنِّدت كلّ فكرة ثم وافقت الآراء جميعا فى النهاية على تشكيل مجلس رئاسة من رؤساء أحزاب المعارضة فُهُمْ القادرون على قيادة البلد وإنقاذها من الخراب . وتم الا تفاق على حل مجلس الاعيان الذى أتى بانتخابات مزورة على أن يقود مجلس الرئاسة أوفريسيا لمدة ستة اشهر تتم فيها انتخابات جديدة حرة ونزيهة ...

ورحبت احزاب المعارضة جميعا بالفكرة.. وكانت النيران التى صهرت شعب أوفريسيا قد دفعت بالجميع إلى درجة من النقاء الصوفى فأصبح كلّ واحدٍ على استعداد للتضحية من أجل الآخرين وأن ينكر ذاته فى سبيل إعلاء شأن أوفريسيا ولم تحدث خلافات فى تشكيل مجلس الرئاسة ولا فى انتخاب الرئيس.. وبلغت سماحتهم أنهم أبدوا استعدادهم أن يشاركهم فى مجلس الرئاسة عضو من حزب الحكومة السابق منوّهين بأنهم ليسوا طلاّب سلطة ولا هواةَ مناصب... إلا أن أحدا لم يتقدم... كان حزب الحكومة قد ذاب تماما ولم يعد به عضو واحد سوى الإمبرائيس الذى يحاكم الآن...

وذهب فيروز العسال منزعجا الى المايسترو

— بهذه الطريقة ستفلت الأمور من أيدينا . سينقبون فى كل شئ وسيكتشفون أشياء كثيرة وسيمسكون بمقاليد الأمور والسلطة .

ضحك المايسترو فى أستاذية من يدرك أنه حتى أعظم تلاميذه لا يستطيع فهم خططه... قال فى ابتسامة نشوانة:

— لا تنزعج

قال فيروز العسال فى قلق:

— كيف لا أنزعج وخيوط اللعبة تنتقل إلى أيدٍ أخرى...

وبنفس الأبتسامة النشوانة رد المايسترو:

— سوف أحكى لك حكاية: فى الزمن القديم.. عندما كان الإنسان الأول يريد أصطياد حيوان متوحش لم يكن يواجهه لأنه لو واجهه سيقتله الوحش لامحالة.. كان يحضر له حفرة يغطيها بالأعشاب.. وكانت هذه الحفرة دائما فى الطريق الحتمى الذى يسلكه الحيوان ليأكل أو ليشرب وكان الحيوان المتوحش يقع فى الحفرة فيصبح بلا حول و بلاقوة.. عندئذ كان يصبح فريسة سهلة وطعاما سائغا..

ورد فيروز العسال وقد زايلته نظرة القلق:

— أنا لاأفهم ما تقصد إن كنت أستطيع التخمين.. إلا أن ثقتى فى تخطيطك العبقرى تبثّ الاطمئنان فى عقلى.

كانت محاكمة الإمبرائيس السابق أعظم حدث فى تاريخ أوفريسيا التى لم تشهد قبل ذلك أبدا محاكمة حاكِمِها... وتدفقت الأسرار وفاحت الروائح القذرة كطوفان من مياه المجارى.. وثبت للجميع بمالا يدع مجالا للشك أن السلطة فى أوفريسيا كانت قد تدنّتْ وانهارت فى أخلاقياتها وسلوكها الى مستوى يتجاوز حتى عصابات اللصوص والقوادين ومحترفى الاجرام.

وكتب عبد الله حلمى النديم والذى أصبح نجم الكتاب بلا منازع أنه حتى على مستوى العصابات الإجرامية يوجد قانون يحكم العلاقة بين أفراد العصابة و يرتب العلاقة بصورة تشبه الصورة الأخلاقية وإن لم تكن كذلك.. إلا أن حكّام أوفريسيا قد افتقدوا حتى هذه القواعد....

واستمرت محاكمة الأمبرائيس شهورا عديدة وكان كل يوم يمضى يأتى بأحد أعوان الأمبرائيس السابقين لكى يقف فى قفص الاتهام معه...

عاشت صحافة المعارضة عصرها الذهبى. إلاّ أن صحافة الحكومة لم تدع لها البريق كله فأخذت تنافسها هى الأخرى فى نشر وقائع محاكمة الإمبرائيس وفضائحه.. وكان موقف رؤساء تحرير هذه الصحف صعبا.. كان قد تم استبدالهم بآخرين وإن احتفظوا بمكانهم كصحفيين فى نفس الصحف.. وقد استطاعوا إنقاذ جزء كبير من مكانتهم بتقدمهم كشهود ضد الإمبرائيس بعد أن أدركوا أنهم إن لم يتقدموا كشهود فسوف يقدموا كمتهمين..

ووقف خنفس بوللى أمام منصة القضاء فلم يقتصر على مجرد الشهادة بل أخذ موقف الادعاء وهو يهاجم الامبرائيس أقصى هجوم مقررا أنه عندما كان يدافع عنه إنما كان يدافع عن رمز أوفريسيا التى سيظل دائما يدافع عنها وأنه كصحفى لم يكن يملك إلاّ نشر المعلومات التى تأتى اليه من جهات مختلفة.. وضرب مثلا لُقنع الجميع حين قال أننا لو أتينا بجهاز كمبيوتر وغذيناه بمعلومات خاطئة فالوضع الطبيعى أن يعطينا نتائج خاطئة..وهنا لايكون الكمبيوتر هو المخطئ بل يكون المجرم (وهنا أشار بيده إلى الإمبرائيس) هو الذى غذاه بالمعلومات الخاطئة..

أما ونيس الخربوطلي فقد تكلم كثيرا حتى طالبة القاضي أن يختصر من مقدمته ليدخل في صلب الموضوع فانفجر باكيا بلا مقدمات وهويتحدث عن القهر والذل الذى تعرض له من الامبرائيس عندما خالف تعليماته ذات مرة .... ووجدت المحكمة أنه لن يضيف جديدا فصرفته .

ووقف بوخليل المسعودى ليلقى محاضرة طويلة عن دورللصحافة ... وأنه عندما كان يكتب مناديا بسيادة القانون واحترام الدستورلم يقصر نداءه على الشعب فقط .. وأن من يراجع مقالاته ليقرأ ما بين السطور يكتشف على الفور أنه كان عدوا للإمبرائيس لا صديقا له .... وأنه ازاء جوّ القهر الذى عاشت فيه أوفريسيا كان يلجأ إلى الرمز وما بين السطور.. ولم تخرج أقوال باقى الصحفيين عما ذكره الثلاثة الكبار..

أما صحف المعارضة فقد أبدعت فى المهرجان الا أنّ استمرارها على درجة واحدة من الالتهاب والسخونة قد صرفت البعض عنها .. وكانت بعض مقالاتها لاتخرج عن أشكال كاريكاتيرية مثل ذلك الصحفى الذى استأذن النيابة فى أن يخالفها فيما ذهبت اليه فى مطالبتها بإعدام الامبرائيس طبقا لمواد القانون . وأنه يطالب أن يوضع فى قفص فى حديقة الحيوانات كى يظل عبرة لكل حاكم يأتى بعده وأن يُمكن كل فرد من شعب أوفريسيا من مواجهته ومناقشته وهو فى قفصه هناك .. ودلل الصحفى على وجاهة اقتراحه بحادثة مماثلة وقعت فى احدى الممالك منذ أجيال قليلة ..

ومن الغريب أن الامبرائيس لم يحاول من بعيد أو قريب ذكر اسم المايسترو ويبدو أنه كان يخشى أن يكشف عن أسرار أخرى . وكان يأمل أنه يستطيع أن يهرب يوما ما بمساعدته وكان قد أُسقط فى يده تماما فلم يحاول حتى الدفاع عن نفسه مكتفيا بنفى الاتهامات مقررا أنه غير مذنب .

ووقف محامى الإمبرائيس ليلقى دفاعه فقال أن ضميره يتمزق بين واجبه كمحام وإحساسه كمواطن أوفريسى .. وأنه لايطالب له بالعدل فالعدل يدينه .. وإنما يطالب بالرحمة واثقا أن جزاءه الرئيسى لن يكون على الأرض بل فى السماء .. وكان المحامى بارعا عندما عزز طلبه بالرأفة بأن الإمبرائيس مهما بلغت جرائمه لن يكون مثل ملك دولة من دول الجنوب الذى كان غذاؤه المفضل حساء مصنوع من لحم الأطفال ومع ذلك لم تحكم المحكمة باعدامه ..

وصدر الحكم أخيرا على الإمبرائيس بالسجن مدى الحياة ..

فى نفس الوقت كان العمل يجرى على قدم وساق لإعادة ترتيب البيت فى أوفريسيا وتم التحقيق فى عدد كبير من الجرائم وتم استرداد بعض الأموال المنهوبة ...وثبت أن ما كانت صحافة المعارضة تنشره لم يكن صحيحا فقط بل أنه كان مجرد قشور لحجم هائل من الفساد .. وبرغم كل مجهودات الحكومة الجديدة فلم يمكن حصر هذا الفساد كله .. إذْ أن جهة مجهولة ـــ

لعلها تتبع الإمبرائيس ــ قد دمرت معظم الوثائق والمستندات .. واستطاع عدد كبير من المنحرفين الهرب إلى الخارج كان من بينهم نائب رئيس الوزراء السابق . وأعدّ تقييم جديد للمشروعات التى أُنفق عليها المليارات فإذا بمعظمها هياكل مشاريع وليست مشاريع حقيقية .. وثبت يقينا أنها أُنشئت لا لتنمية ثروة الوطن بل لنهبها .

كان معاوية زغلول يتمتع بسمعة طيبة داخل أوفريسيا . وقد أمر المايسترو فيروز العسال أن يخطره بإنهاء أعماله فى الخارج والعودة إلى أوفريسيا ..

وكان مجلس الرئاسة قد فتح الباب على مصراعيه لإنشاء أحزاب جديدة وإصدار صحف جديدة .. واستطاع معاوية زغلول فى أسابيع قليلة أن ينشئ حزبا جديدا سماه حزب العدل كما أنشأ له صحيفة تنطق باسمه .. ونظرا لخبرته الواسعة وإمكانياته المادية فقد كان حزب العدل هو أقوى الأحزاب الجديدة التى نشأت بل ونافس بعض الأحزاب القديمة فى شعبيته .

وأجريت الانتخابات .. وكانت باعتراف الجميع انتخابات حرة .. إلا أنه صحب ذلك انهيار الوحدة المعنوية التى ربطت أحزاب المعارضة فى البداية .. وأخذ كل حزب يهاجم الآخر ويبدى مساوئه كى يفوز هو بالسلطة .

ولم يحقق حزب من الاحزاب الأغلبية المطلقة .. وجرت مناورات كثيرة لتكوين حكومة ائتلافية .. وتكونت هذه الحكومة أخيرا بعد أن امتلأ هيكلها بالشروخ ..

وشغل معاوية زغلول منصب وزير الدعاية والثقافة . وشغل أحد زعماء أحزاب الأقلية الضعيفة منصب الرئيس ، كان لقب الامبرائيس قد ألغى بعد تعديل الدستور ، وكان الجميع حريصا على أن يكون حزب الرئيس أضعف الأحزاب فذلك يجعلهم فى مركز أقوى تجاهه ..

وبدأت الحكومة الجديدة تدير شئون البلاد .

— ٢٨ —

ذهبت السكرة وجاءت الفكرة ..

وواجهت الحكومة الجديدة فى أوفريسيا مشاكل كالجبال ..

وبدأت نشوة الرعاع فى أوفريسيا تتضاءل إزاء ما سموه انتفاضتهم الكبرى .

حدثت انشقاقات عديدة فى الائتلاف الحكومى .. وتغيّر الرئيس أكثر من مرة .. وكان يبدو أن القداسة التقليدية التى طالما احتفظ بها مقعد الحاكم لم تخدش فقط بل تحطمت تماما ، وبدأت شرائط التسجيل تنتشر من جديد .. وأخذ الرعاع يطلقون النكات على الحاكم ..

الديون هائلة بحيث لا يمكن سدادها .. بل إنّ دخل أوفريسيا القومى كله لم يعد يكفى حتى لسداد فوائد الديون ... وأصبحت الوسيلة الوحيدة هى مزيد من الاقتراض لمجرد سداد ديون أخرى .. كانت مقادير أوفريسيا قد أصبحت مربوطة بخيوط تحرّكها من الخارج .. وكانت الحكومة تمثل مجرد مدير أعمال تقليدى لتسيير امور الحياه اليومية ، كما كان الأمير يديرالبلاد لصالح الخليفة الأعظم للدولة الغازية .. ولم يقتصر الأمر على ذلك .. فقد كان كل ائتلاف يجئ يضطهد أحزاب المعارضة الأخرى ويحاول تصفيتها واضطهاد أعضائها كى يضعف هذا الحزب .. وانتشرت المساومات الوضيعة .. ولكى تظهر الحكومة ديمقراطيتها فقد كانت كل حين وآخر تعقد مؤتمرا لمناقشة مشكلة من المشاكل ..

وكانت هذه المؤتمرات لا تعقد لإيجاد حل حقيقى للمشاكل بل لكى تثبت الحكومة للشعب أن هذه المشاكل بلا حلّ ... وأن الحكومة معذورة وليست عاجزة .. فالخطأ فى التركة المثقلة بالكوارث وليس فى عجز السلطة .

كان كل مؤتمر يبدأ بكلمة للرئيس أو من ينيبه .. وكانت هذه الكلمة عادة مليئة بالالفاظ الرنانة والجمل الطنانة التى لاتعنى فى النهاية إلا قدرة لغوية وغنى لفظيا دون معنى .. طنطنة وتطويل وجعجعة ثم لا شئ .. ثم يلقى رئيس الوزراء كلمة .. كذلك رئيس مجلس الأعيان ــ الذى أصبح اسمه بعد التغيير الجديد مجلس النواب ــ ثم يلقى بعض الوزراء كلمات .. وتسلط الاذاعة والتليفزيون اهتمامها على كلمات الزعماء ثم تنصرف عند بداية جدل المتخصصين .

وفى جدول المتخصصين كان الحديث يتشعب ويذهب كل مذهب فى حالة من تداعى الأفكار التى تبتعد تدريجيا عن الموضوع الأصلى ثم تعود اليه كى تطرح قضايا جديدة تكون بدورها منطلقا للانحراف فى أمور جانبية .. وهكذا يخرج المجتمعون دون دراسة المشكلة أو إيجاد حلّ لها .. وتظل جميع القضايا معلقة لا يذهب التفكير فيها لأبعد من السطح .. كان الجميع يتجنبون إيجاد حل جوهرى لأى مشكلة إما بالوعى أو باللاوعى .. فحتى الانتفاضة قد أفرزت مراكز قوى جديدة .. وكان الاستقرار يعنى استمرار هذه المراكز أما التغيير الجوهرى فقد كان يعنى تغييرا فى طبقات المجتمع .. فى النخبة التى تحكم . وفى منهج الحكم . وعندما كانت مجموعة تنادى بزيادة سيطرة الدولة على عمليات الانتاج كانت مجموعة أخرى تتهمها بأنها من بقايا أعوان الإمبرائيس السابق وأنها تريد عودة عصر السلب والنهب .. وبرغم أن المجموعة الأولى لم تقل ذلك ولم تقصده إلا أن المجموعة الثانية كانت تتجاهل ماقالته المجموعة الأولى لتناقش مانسبته هى إليها .. وتناقش بذلك فكرا ليس هو فكر المجموعة الأولى بل فكر يحاول تبخيس هذه المجموعة وتحقيرها وإهانتها ولأنه لا يمكن ذلك بالاعتماد على أقوالهم وحدها فقد كان ضروريا نسبة أقوال إليهم لم يقولوها .. ثم تفند هذه الأقوال والأفكار حتى تنسف نسفا .. وكانت المجموعة الأولى ترد الصاع صاعين للمجموعة الثانية .. إذ تُفسّر أقوالها على نحو لم تقله ولم تقصده ثم تبدأ فى تفنيد هذه الأقوال التى لم يقلها أحد لتنسفها نسفا ..

وكان عبد الله حلمى النديم يصرخ : اتفقوا قبل فوات الأوان .. الا تفاق أو الضياع .. إنكم تتركون الأصول لتتقاتلوا على الفروع .. إن الامبرائيس لم يمت .. لا أقصده كإنسان وإنما أقصده كمنهج .. إن أوفريسيا امامكم كمريض ينزف .. وأنتم تتركون النزيف لتدخلوا فى جدل عقيم حول طريقة العلاج والمريض يموت .. أوقفوا النزيف أوّلا ثم اتفقوا بعد ذلك أو اختلفوا كما شئتم ... وأخذ الدكتور النديم يواصل شرح نظريته فى مقالات متعددة اننى أقصد بالنزيف ذلك الفساد الذى كان مستشريا ومايزال .. ربما هو فى هدنة قصيرة لكنه سيعود كما كان فى عهد الامبرائيس .. لسبب بسيط هو أنكم تسيرون على نفس المنهج .. نفس الطريقة فى تزييف وعى الشعب ... فى اختلاق مشاكل وهمية وتجاهل مشاكل قاتلة .... يجب أن يتوقف الفساد فذلك هو النزيف .. يجب أن نوقفه أيا كانت أسبابه وأيا كان مصدره .. وبعد ذلك علينا أن نبحث الأسباب والمصادر ومدى الدمار الذى حدث لأعضاء المريض الداخلية ولجهازه العصبى

وفكره وارادته وقوته و بناء على هذه الأسباب يجب أن نبدأ فى علاج أوفر يسيا .. إنّ إيقاف التز ييف هو مهمّة المفكر ين ويجب أن يبحثوها بلا مز يد من التأخير..

وفى مقال آخر قال :

(انكم تتصرفون بنفس الطر يقة التى كانت تحدث فى السابق .. امبراثيس غبى أو خائن .. ومفكرون متخلفون لا يتفقون حتى على البديهيات) .

وفى ندوة حضرها عشرات الألوف كان النديم يصرخ :

— إنّ ماينقصنا الآن هو المنهج .. منهج جديد للحكم لا نسمح فيه للصوص أن يتسللوا إلى قمته .... منهج آخر لا أعتقد أن أى حزب مهما اختلفت مشار به يختلف عليه .. أن نصل الى الأساسيات .. نظام انتخابات لا يتسلل اليه التزو ير أبدا .. تشر يع جديد لعقوبة تصل حتى الاعدام لكل من يشارك أو يتستر أو يعرف فلا يمنع أو يبلغ عن أى جريمة تزو ير فى الإنتخابات. تلك هى الجريمة الأولى والسبب الأول فى انهيار أوفر يسيا .. بعد الانتخابات تأتى نقطة أخرى لا تقل أهمية .. إن الانتخابات تعنى الاختيار بين بدائل .. وهذه البدائل يجب أن تكون بدائل لها قيمة حقيقية وليست اغراقا فى الماضى واسترجاعا له كواقع متوهج بالحياة وليس كماضى فات ولم يعد بإمكانه أن يعود .. ولكى تكون هذه البدائل حقيقية فيجب أن نستأصل فورا ذلك السرطان الذى ينهش فى أجهزة الاعلام من صحافة وإذاعة وتليفز يون ودور نشر وندوات ..فى عهد الامبراثيس كانت كل هذه الوسائل عدوّة للشعب .. كانت لا تضع أمامه المعلومات الصحيحة اللازمة لأى اختيار له قيمة .. وإذا أخذنا الصحف على سبيل المثال فإن حر ية الصحف فى الواقع لم تكن سوى حر ية أصحابها ... فالصحيفة مجموعة من الآلات الصماء لا نصيب لها من الحر ية .. يديرها عمال لا نصيب لهم كذلك من الحر ية كما أن المحرر ين مرتبطون فى عملهم بارضاء أصحاب الصحيفة .. و يتوقف على مدى هذا الإرضاء ليس فقط مستقبل المحرر كصحفى وإنما تعرضه للتشرد والجوع والسجن إذا عارض والحقيقة أن الذين يتمتعون بالحر ية الحقيقية فى الصحافة هم أصحاب الصحف .. فلنعد الى الواقع فى أوفر يسيا حيث يملك الصحف كائن هيولى لا شكل له . و وجّه النديم نداءه للجماهير المحتشدة :

— ها أنتم عشرات الآلاف فهل يعرف أحد منكم من يملك الصحف فى أوفر يسيا ؟ هل يستطيع أحد الاجابة ..؟

وسرت همهمات متناقصة بين الجموع الحاشدة فقال النديم :

— فلنرد على السؤال بسؤال آخر: هل كان يملك الصحف خنفس بوللى أوونيس الخربوطلى أوبوخليل المسعودى أومحمد أحمد أوعشرات غيرهم.

وسرت نفس المهمة العاجزة عن الإجابة فواصل النديم:

— كل هؤلاء لم يكونوا سوى خدم فى بلاط الإمبرائيس يقولون مايريد .. كانوا ككلاب الصيد عند السلاطين القدامى ..يطلقهم السلطان على فريستهم فيمزقونها اربا .....إذن .. كان الامبرائيس هو المالك الحقيقى للصحف. كان كان هو المالك الحقيقى ورئيس التحرير الوحيد. ومايتطبق على الصحف ينطبق على الإذاعة والتليفزيون وأجهزة النشر الأخرى ..
إن الصحافة الحرة وأجهزة الاعلام الحرة هى حارس الدستور فإذا اختفى الحارس امتلأ الدستور باللصوص.

و واصل النديم محاضرته قائلا :

— هذا المواطن الذى يجب أن يتاح له انتخاب مباشر يجب أن تكون لديه كل المعلومات الصحيحة التى يبنى هذا الاختيار وإلاّ كان اختياره بلا قيمة وثالثا .

— بعد الانتخابات الحرة والمعلومات الصحيحة يجب أن يكون هناك قانون حقيقى .. وليس مجرد وثن نسيِّده ونعبده بينما تتوارى خلفه أيدى إمبرائيس آخر.. فنصبح مرة أخرى عبيد مثل هذا الإمبرائيس.. يادة القانون لم تُنْتهكْ قط كما انتهكت فى ظل شعار سيادة القانون .. أوفريسيا لم تُنهب وتبدد ثرواتها إلا فى ظل شعار ١ أوفريسيا فوق الجميع ... والإرهاب لم ينتشر قط كما انتشر خلف عبارة محاربة الإرهاب.

وارتفعت نبرات النديم وهويقول :

— عندما كان الامبرائيس يحارب الإرهاب كان هو الإرهابى الأول .. وكان فى هجومه السوقى على أعدائه إنما يقوم بعملية إسقاط نفسى ..فهويعلن فيهم مايحتقره فى نفسه .. مايظن أنهم يعملون عنه ..

ونادى النديم المواطنين مرة أخرى بأن يقعوا فى وهم أنهم تخلصوا من الإمبرائيس فهو مازال باقيا كمنهج فكر وأسلوب عمل ..

ثم نادى بمنهج جديد للفكر .. منهج موضوعى من أساسياته عدم القول المسبق بمقررات معينة .. وعدم محاولة البرهنة على معتقدات غير علمية بوسائل علمية .. أن نضع الظواهر قيد البحث لتفسيرها ونفهمها حتى لو خالفت مفاهيمنا السابقة بدل من أن نَفْسِرَ الظواهر على أن تتخذ مجرى معينايؤيد قتناعاتنا السابقة قبل البحث.

وصرخ النديم:

- إن من يفعل ذلك يتحول من مفكر إلى دجال .. والحق أقول لكم أن معظم المفكر ين الذين تتاح نشر آرائهم فى أوفر يسيا دجالون.

وواصل النديم قائلا:

- يجب أن يكون شعب أوفر يسيا هو المسئول الحقيقى عن حاضره.ومستقبله لكن المسئولية تنتفى تماما من جميع ألوان الاختبار التى تخرج عن إطار العلم والمعرفة والإدارة .. المسئولية حر ية .. والحر ية اختيار .. والاختيار معرفة .. و بدون ذلك لا مستقبل لأوفر يسيا وإنما يوجد فقط مستقبل آخر لإمبرائيس أخر يتسلل من بين الصفوف مرو أخر ..

وواصل النديم:

- أن الطفل والبدائى المتخلف فقط هم الذين يضحون إلى الاطلاق فى أحكامهم .. ومن المحزن أننى أرى نفس الشئ فى أحزابنا المتصارعة والتى أصابها نوع من الخلل العقلى فى العجز عن ترتيب الأولو يات البديهية ....

أجل أيها المواطنون: مايلزمنا هو جزء كبير من الصدق مع النفس ..

وعندما نلتزم بذلك .. ونحقق منهجنا الواضح المنطقى والمتمثل فى انتخابات حرة تغذّيها معرفة كاملة يحرسها قانون يخدم الدستور لا يخدمه الدستور .. عندما يحدث ذلك .. فهل سيكون هناك مجال لخلاف حول أىّ تفاصيل .. عندما يكون هناك مجلس نواب حقيقى ورأى حر

حقيقى ودستور حقيقى ففيم إذن سنختلف .. ألن يُعرض كل شئ يومها على ممثلى الأمة ونوابها .. وسيفوز الرأى الذى يحظى بالأغلبية ... أليس هذا هو الشئ المنطقى .. فهل نفعل ذلك أم نمضى خلف سراب يقودنا إلى ظلمات فوقها ظلمات .

وفى ختام محاضرته قال النديم :

إن ما أراه فى الساحة الآن خطير خطير.. ويبدو أن الخلاف لم يكن على منهج الامبرائيس فى الحكم بل على المضمون .. إن أحزاب الشمال وأحزاب اليمين وأحزاب الشرق وأحزاب الغرب جميعها تبدو وكأنها تريد أن تنفّذ مضامينها الخاصة بنفس منهج الامبرائيس .. وبهذا نكون قد استبدلنا الكارثة بكارثة والإمبرائيس بإمبرائيس آخر... إن الجميع يتحدث عن الحرية والديمقراطية والنزاهة والتضحية والوطنية .. لكن دعونى أقول لكم كلمة أخيرة لاتنسوها .. «احذروا المرأة التى تتحدث كثيرا عن الشرف»

كان تفاعل الجماهير مع النديم عظيما .. وقد تفاعلت معه أيضا كثير من الأقلام فى كثير من الصحف .. لكن صحفيين آخرين هاجموه مقررين أنهم وإن كانوا يقدرونه حقّ قدره إلا أنه جعل من نفسه وصيا على أوفريسيا يرسم لها المناهج ويحدد المضمون وهذا حق ليس لكاتب مهما علا قدره وسمت منزلته أن يدعيه لنفسه .

ـ ٢٩ ـ

لم يضج حزب من أحزاب أوفريسيا من تسلل أعوان منظمة التحكم والسيطرة . كما أمكن السيطرة على كثيرين من قادة الأحزاب إمّا بطريق غير مباشر بتقديم معلومات غير صحيحة أو بالتهديد بافشاء أسرار خاصة . ولم تحرص المنظمة على إخفاء تسلل أفراد معادين إلى الأحزاب . وكان الهدف من ذلك أن يشك كل عضو فى زميله . أن يعتبره جاسوسا وعدوا .. وأن تُخْفى مناشط الحزب عنه .. والغريب حقا .. أن الشك لم يتطرق قط إلى أى عضو يتبع المنظمة . بل إن هؤلاء الأعضاء كانوا هم الذين تلمع أسماؤهم و يزدادون رقيا فى مناصبهم وشعبية لدى المواطنين ، بينما يُتهم أعضاء الحزب الحقيقيين بأنهم عملاء للأعداء أو للسلطة .

وفى غضون أعوام قليلة أصبح معظم الوزراء إما مقنعين أو مجندين .. وأصبح معاوية زغلول رئيسا للوزراء .

فى قصر فاخر من قصور معاوية زغلول فى بلاد الغرب كان المايسترو يجلس مع فيروز العسال وهو يقول له باسما .

ـ ها قد تحولت الثورة إلى مجرد فورة ..

وسأله فيروز العسال فى إعجاب :

ـ كيف لم يزعجك الأمر فى البداية ؟

وأجاب المايسترو بثقة :

- عندما يكون الشعب متخلفا فلاتخشى من أى تحول ... فالشعب المتخلف يمثله حزب حكومى متخلف يرأسه حاكم متخلف تحركه مراكز قوى متخلفة وتعارضهم أحزاب معارضة متخلفة .. إنها حكمة بسيطة لكنها تخفى على الكثيرين .. إن من يزرع الحنظل لن يحصد قمحا ... وسوف ترى فى السنوات القادمة كيف سيحدث الاستقطاب بين الأحزاب الحاكمة لتتبلور الأمور فى النهاية عن حزب قوىّ يحكم وإمبرائيس آخر.. وأحزاب معارضة هزيلة ....

صمت المايسترو طويلا ثم أضاف :

- مايقلقنى حقا هو تلك الجماعات المجهولة التى تصدر شرائط التسجيل . بعد افراجهم عن الصحفى محمد أحمد حاولنا بكل أجهزتنا أن نعرف أى شئ عنهم لكننا فشلنا . إنها مجموعة منظمة تنظيما جيدا وتقوم بعملياتها ببراعة حقيقية وإتقان يكاد أن يكون مطلقا ....

وأضاف المايسترو:

- هذه المجموعة هى التى تقلقنى .. ينبغى أن يحاول مركز التحكم والسيطرة التسلل إليها كما ينبغى أن نعيد تنظيم مركز صناعة الأقنعة فقد نحتاجها فى السنوات القادمة .

ضحك فيروز العسال قائلا :

- عندما أقلق أنا تكون أنت مطمئنا .. وعندما أطمئن يتسرب اليك القلق .. لكنك دائما على صواب .

وفى خلال بضعة أعوام تحقق ماتوقعه المايسترو.. وعادت السلطة مركّزة فى يد حزب قوى وعادت نغمة تحقيق الاستقرار لهيكل الحكم كى يتمكن من حل مشكلة أوفر يسيا الاقتصادية .. وأدركت أحزاب المعارضة الأخرى أنه قد تم التغرير بها وخداعها كديكور فى مسرحية مثلوها دون وعى لكن الرعاع لم يعودوا كما كانوا .. وكانت عمليات التوتر العنيف فى المجتمع تفرز كثيرا من الأحداث المؤسفة من عمليات تخريب وإرهاب وتحطيم . ولم يقتصر الأمر على ذلك . وإنما تطورت الأشرطة المسجلة اعدادا وتوزيعا بحيث أصبحت تشكل خطرا جسيما على الأمن القومى فى أوفر يسيا .

كان خنفس بوللى وزملاؤه قد طعنوا فى العمر . لم يعودوا رؤساء تحرير لكن كانت لهم أعمدة ثابتة فى الصحف يحاولون منها إعادة وجدان الأوفريسيين الذى شوهته الثورة .

وعلق أحد شرائط التسجيل على أحد مقالات خنفس بوللى قائلا :

— إنّ خنفس بوللى يمثل نموذجا ممتازا للحقيقة الطبية التى تقول : « ليس أقذر من شرج الإنسان سوى فمه »

وكانت هذه الشرائط تحاول أن تشرح للأوفريسيين أنهم ليسوا رعاعا وأن التخلف الذى هو سمتهم .. ليس عيبا خلقيا ولدوا به وليس قدرا من السماء قدر عليهم .. وإنما هو موقف نفسى دفاعى تجاه آلام لا تحتمل يتسبب فيها قهر اجرامى وإذلال لا يطاق من نظام حكم قاهر تشكل المواجهة معه خطرا ساحقا للمجتمع ... خطر الإبادة والتعذيب والقهر .. وهو مجتمع تقوم بنية السلطة فيه على القهر والاستغلال .. ولا يوجد فيه حدود فاصلة بين المشروع وغير المشروع .. مجتمع يصبح فيه لزاما على كل فرد أن يلعب اللعبة حسب إمكانياته .. لا قانون يحمى ولا سلطة تحكم ولا منطق يسود وو يل لذوى النية الطيبة ، فهم فى نظر السلطة المجرمة سذج وأغبياء وحمقى .

وعندما تدنّت الأحوال الاقتصادية نادى ونيس الخربوطلى شعب أوفريسيا بأن يزيد الإنتاج فصدر على الفور شريط يقول :

— « إن انخفاض الإنتاج هو النتيجة الطبيعية والإبن الشرعى للظلم الاجتماعى والتخلف السياسى »

ولم تقتصر الأشرطة على الرد على كبار الكتاب فقط بل إنها أخذت تواجه الرئيس نفسه وتنتقد خطبه بصورة لا تعرف الحياء . وكان أحد هذه الأشرطة يقول :

— ياأيها الرئيس ... أنت لست رئيسنا .. إنما أنت مجرد وكيل لاصحاب المصالح فى الخارج .. أنت كالملتزم فى العصور القديمة .. تجنى أموالنا وتأكل عرقنا ثم لا نجد منك سوى الرشوة بالوعود والكلام الفارغ عن مستقبل أفضل .. أموالنا تسرق وثروة الوطن تنهب لتوزع على المادحين والمنافقين الذين يشاركون فى نهب الوطن وتهريب أمواله للخارج .. الى حيث أصحاب المصلحة الحقيقية .

وكتب بوخليل المسعودى عن الرئيس البطل المتقد المكافح الفادى الهادى المهدى منكر الذات المنصرف عن اللذات .

وفى نفس اليوم صدر شريط يقول : ؟ «ان بوخليل المسعودى كاقرانه يستطيع دائما التغطية على ما فعله الرئيس والتفسير لما يفعله والتبرير لما سيفعله .. وإنه يستطيع أن يمتدح باقتدار فى الصباح ثم يكتب العكس فى المساء..... ورغم هذا يطلب من الشعب أن يصدقه .. الكذب كثير لكن طلب التصديق أكثر» .

تردى الوضع الاقتصادى فى أفرويسيا أكثر وأكثر... كان لابد أن تتصدى الصحافة والإذاعة والتليفزيون لتفسير ما يحدث .. وأن أوفريسيا تخوض أقص مراحلها .. وأنها سوف تجتاز بجهد الرئيس الملهم عنق الزجاجة إلى عالم الرخاء والرفاهية .. كانت الأجهزة تركز على ضراوة المعركة التى تخوضها أوفريسيا إن الأعداء والطامعين فى الخارج يتربصون .. والإرهابيون فى الداخل لا يفهمون أن مستقبل أوفريسيا فى خطر وأنه لا توجد حلول وسط فإما الإنطلاق إلى الرخاء أو السقوط إلى الحضيض والإفلاس ... وأن هذه المشاكل والصعوبات التى تواجهها أوفريسيا تعود إلى أمرين : ضخامة وشراسة هجمة الاعداء على أوفريسيا والأمر الثانى هو تواكل الشعب الأفريسي وجموده وجبريته .... بل أن ونيس الخربوطللى لم يتمالك انفعاله فوصف الشعب الأوفريسي بأنه شعب من الحمير.

ونظرا لخطورة الأوضاع فقد تصدى الرئيس بنفسه . وأخذ الرئيس يطرح بالأرقام ما حققه عهده لأوفريسيا التى كانت على شفا الإنهيار..

والحقيقة أن وضع الرئيس كان حرجا .. فقد نظر إليه الرعاع فى أوفريسيا فى البداية على أنه الزعيم المنقذ والقائد الذى سيحرك الجماهير بل ورفعه البعض إلى مستوى الأبطال . كانوا يصدقون وعوده . بل وكان المتخلفون ينسجون الخرافات عنه .. واندفع الأتباع — كما يندفعون دائماً — إلى مواقف الاعجاب والتأييد الأعمى .. إن القائد البطل سيفعل لهم كل شئ وما عليهم الا أن ينتظروا و يتفرجوا .. إلا أن هذا الوضع بقدرما كان مريحا للرئيس فى البداية إلاّ أنه أصبح بالنسبة له الآن مأزقا ... إنه يعد فيخلف .. يحاول فيفشل .. و يعيد ويحاول فيتكرر الفشل .. و يتراكم عجزه مفجرا التناقصات بينه و بين جمهوره .. لكنه بعد انكشاف أمره يكون قد تعوّد على مقعد السلطة فلا يتخلى عنه برغم خيبة الأمل فيه ... و بإصراره على البقاء أخذ يتحول الى طاغوت لابد له أن يمارس القمع فى محاولة للإحتفاظ بمركزه .. وتعود الأمر الى سيرتها الأولى ..

هكذا كانت تقول شرائط التسجيل الذى بدا واضحا أن بطلها الأول هو الصوت الخفى الذى كان يستجوب الصحفى محمد أحمد منذ أعوام طويلة ..

وفى شريط آخر كان يشرح للشعب الأوفريسى ما سماه حقيقة الوضع :

« إن الفشل لم يأت من خارج الحكم كما يحاول الرئيس وكتبته أن يوهمونا لتبرير أخائهم والهروب من المسئولية » .

« إن الخطأ قابع فى منهج ونظامه .. ولقد كان كل نظام يدعى أن أوفريسيا تعيش أخطر الأيام حسما .. كل الأيام حاسمة وكل الفترات مصيرية .. إنها محاولة مكشوفة لاستخدام القضية الوطنية والشعور القومى لتغطية الأزمة الإجتماعية .. محاولة مكشوفة لأنّ المقصود منها هو منع الجماهير من المطالبة بتحسين ظروفها المادية والاجتماعية والسياسية . فمن يستطيع أن يطالب — والأعداء ه متربصون — بالديمقراطية أو بزيادة الأجور ومن الذى يستطيع أن يهتم الحكومة بالعجز وهى التى تواجه أعتى الأعداء وأشد المخاطر .. إن الحكومة تمن علينا بأنها إن كانت لم تحقق نجاحا فقد منعت كارثة ..

كان الرئيس يحاول التقرب من رعاياه .. يزور الفقراء وأماكن العمل .. يحمل طلا . يبتسم لعجوز .. يقبل فلاحا و يتناول الغذاء معه فى بيته المتواضع يلبس زيا وطنيا متواضعا . وكان يحشو خطبه بما يعنى ارتباطه بالتراث والأرض والناس .

وكانت زوجة — الرئيس — المجاهدة الأولى — تظهر فى الصحف بثياب بسيطة ومواقف تقدم فيها الخيع وأعمال البر أو تلقى قصيدة أو تأخذ بيد طفل أو تساعد معقا أو تربت على مريض . كانت كذلك رئيسة لجمعيات نسائية عديدة .. ورئيسة لجميعات رعاية الأطفال .. وكانت أيضا رئيسة فخرية لعشرات .

كان المايسترو يتابع هذه المواقف بشغف .. وكان بعقله الكلّى يدركُ أنّ هذه المواقف المفتعلة غير سوية .. وأنها ليست عفوية .. بلا صدق و بلا إخلاص .. وأنها مجرد تغطية .. تبرير وغسل وتنظيف واستجلاب لعطف واحترام وانتباه الناس .. بل كانت عملية اغتصاب لوجدان الشعب ...

لكن ما أقلق الإمبرائيس أن صوت الخفى فى شرائط التسجيل كان يصل الى نفس استنتاجه وإن كان أشد حدة وأقل تحضرا فى تعبيره عن ذلك ... وكان ضمن تلك الأشراطة السافلة شريط يقول :

« هذا الاعجاب اللانهائى بكل حاكم .. تركيز الإذاعة والتليفزيون والصحافة عليه وصف حركاته نقل خلجات انفعالاته إلى الجمهور ... التحدث عن حركات يديه أصابعه وصف ملابسه .. وصف مشيته .. شكل عصاه التى يحملها كرمز للسلطة والفحولة ....

كل ذلك لا يتم ولا يمكن أن يتم إلاّ برضا الحاكم عنه واستمتاعه به فى نوع من الشبق الذاتى يتوازى مع العهر السياسى » .

كان المايسترو يتمنى أن تتحول هذه الأشرطة إلى الألوان التى تمرّس فيها . إما أن تزداد أفكارها صعوبة فلا يفهمها الناس .. وإما أن تظل على نفس الوتيرة من انتقاد غير مؤثر فيملّها الناس .. لكن الشرائط كانت للأسف ــ وللقلق أيضا ــ حيّةً تناقش الموضوعات نقاشا جذريا وتستطيع الربط ليس بين ظواهر الأشياء وإنما بين العلاقات الكامنة فيها والتى تحدد مسارها . ولشد ما انزعج المايسترو فعلا عندما سمع أحد هذه الأشرطة تقول بالنّص :

« لا يمكن أن يكون حكامنا بشرا مثلنا .. ليسوا سوى لصوص يخفون ملامحهم الحقيقة بالأقنعة » .

ــ الأقنعة ..

يا أولاد الكلاب .. ياسفلة يارعاع .... لكن الأهم الآن .. هل جاءت الكلمة مجرد تعبير بَلاغِيّ أم أن ثمة تسرّب لحظته العبقرية .

* * *

ولم تقتصر ساحة العمل السرى على هذه المجموعة فقط .. وإنما انضمت إليها كثير من المجموعات المختلفة والمتناقضة التى جعلت من الدين شعارا لها ..

ــ الدين ...

شكرا يا معاوية ..
ليس فى التاريخ الدينى من هو أحب إلى قلبى وأقرب الى عقلى منك .. لقد أرحتنا إلى الأبد من أى تمرّد للرعاع بأسم الدين .... قبلك كان رجل الدين هو الذى يعطى للحاكم شرعيته وهو الذى يفتى بعزله . وجئت أنت لتقلب الآيةَ تماما فأصبح الحاكم هو الذى يعطى رجل الدين شرعيته هو الذى يوليه و يعزله .. ومن أيام معاوية العظيم أصبح الحاكم هو الدين بل تحول من خليفة الله الى إلــه آخر.. الخروج عليه كفر الله و بالدين يستحق قطع الرقاب ... والتمرد عليه إثم يفوق كل ذنب آخر. إن السرقة والزنا والقتل وشرب الخمر والفتنه والكذب والتزو ير بل والشرك بالله ذاته أمور يتسع لها عقل الحاكم وضميره وقلبه ودينه .. وقلب الشيخ الكبير ليس إلا صورة منسوخة من قلب الحاكم .. وهو يتسع أيضا لكل ذلك .. فالله غفور

رحيم .. والأعمال بالنيات ولكل امرى مانوى .. أما الشرك بالحاكم فهو جريمة الجرائم التى لا تغفر قط .. أى خروج على نمط الحاكم والشيخ فى الدين هو تطرف دينى .. وأى متطرفون هم خوارج وأى خوارج كفرة .. وأى كفرة لا حق لهم فى الحياة.

تلك هى الفلسفة العظمى التى تركها لنا معاوية العظيم والتى طبقها أعظم تطبيق ابنه يزيد الذى لم يـر التاريخ عبقريا مثله .... فيزيد .. بالدين الذى أرسل به محمد (ص) قتل أبناء محمد (ص) ومثل بجثثهم واجتث جذورهم ليس مجرد اجتثاث أنساب بل اجتثاث أفكار.... ولم يقتصر الأمر على هذا .. بل إنه بالرغم من هذا كله استمر يحكم بشرعية الإسلام وأطاعة الرعاع .. تلك هى التجربة العظمى فى التاريخ التى لا تقارن بها إلا تجربته العظمى فى الاستيلاء على السلطة بالأقنعة .. لكن فضلا عظيما يعود إلى معاوية و يزيد اللذان أراحاه من رجال الدين إلى الأبد ..

وكنوع من التأكيد لأفكاره استرجع المايسترو تصرفات مشايخ جامع أوفريسيا الكبير .. الذين لم يعترض منهم أحد قط على تصرف الحاكم .. والذين أعطوا الحاكم دائما ولاء يزيد عن ولائهم لله .. كانوا أذكياء .. فقد كانت فلسفتهم أن الله يمهل ولايهمل لكن الحاكم لايمهل ولا يهمل فى عدم إطاعته أو تهدغد طانه .

ولم تترك شرائط التسجيل هذه النقطة دون ردّ فصدرت إحدى هذه الشرائط تقول :

« أنهم يتهمون الشعب الأوفريسى بأنه ابتعد عن الله ، وأنه غير متديّن لذلك يحيق به غضب الله وانتقامه.. لكننا نقرر أن أى مواطن عادى أكثر تدينا من كبار رجال الدين فى أوفريسيا .. وأنه إذا كان مواطنو أوفريسيا لا يتقنون عبادة الله فإن رجال الدين فيها يتقنون عبادة السلطان .. وإنه إنْ كان هناك انتقام الهى فبسبب انحراف الخاصة لا أخطاء العامة ..

وأدرك المايسترو أن الشرائط لم تعد تصدر من جهة واحدة بل أصبح هناك أكثر من فكر تعبّر عنه هذه الشرائط .. وإن كان الصوت الخفى أقواها وأكثرها شعبية وانتشارا .

وكانت بعض الشرائط تنسب بعض العمليات الإرهابية الى مجموعات كانت منها مجموعة سمعت نفسها : « الجبهة الوطنية لتحرير أوفريسيا » كان المايسترو يدرك خطورة هذه المسميات فقد كانت من وجهة نظره تَنْفُذُ إلى الحقيقة المجردة بصورة لا يجدر بأحد غيره أن يصل اليها .. ولذلك كان يصدر توجيهاته وتعليماته إلى المجندين من كبار الصحفيين أنْ يسفّهوا تلك الأسماء تماما .. و يفنّدوا كل كلمة منها بل كلّ حرف .... فماذا تعنى مثلا كلمة جبهة .. وماذا تعنى كلمة وطنية .. وماذا تعنىّ كلمة التحرير وهل يحكم أوفريسيا محتل أجنبىّ كى تدّعى تلك الجبهة أنها ستحررها منه ..

وفى عملية عبقرية نجحت منظمة التحكم والسيطرة فى التسلل إلى الجبهة الوطنية لتحرير

أوفريسيا عن طريق زوجة أحد الأعضاء والتى كانت فى نفس الوقت عشيقة لأحد أفراد منظمة التحكم والسيطرة .. وتجمعت الخيوط كلها .. وقام أحد المقنعين وكان لواء يشغل منصبا هاما وخطيرا فى جهاز الأمن بمتابعة أعضاء المنظمة والتسجيل لهم بالصوت و بالصورة .... كانت التفاصيل مذهلة .. وكان أحد أعضاء الجبهة ابن اللواء محمد بدوى مما كان يشكل عقبة خطيرة فى القبض على أعضاء التنظيم لما تتمتع به ذكرى ذلك اللواء من شعبية أسطورية بين الرعاع .. وكان الجزء الخطير الآخر أن عددا كبيرا من أعضاء الجبهة موظفون فى أجهزة حساسة فى أوفريسيا بل كان منهم ضابط مخابرات ....

وكانت الخطورة القصوى فى ذلك بالنسبة للمايسترو أن الرعاع بدأوا عملية مضادة لعمليته .. فهاهم أولا يتسللون إلى السلطة كى يتحكموا فيها أخيراً.

وفجّر الاعلان عن القضية بركانا فى رعاع أوفريسيا .. ولقد قامت الصحف والإذاعة والتليفزيون بأقصى جهد تستطيع أن تقوم به .. فأعضاء المنظمة كفرة لادين لهم ..وهم فى الأصل عصابة لتهريب المخدرات لكن دولة معادية جندتهم لتخريب أوفريسيا .. وأنهم قبضوا الملايين بل إن بعض صحف الحكومة أكدت أن أنحلال هذه المجموعة قد وصل الى حد الشذوذ الجنسى .. وأن نهارهم كان سرقة وإجراما وليلهم نساء وخمرا وهيروينا ..

تصدت صحافة المعارضة للقضية بمنتهى القوة ..لكن قوتهم كانت مجرد قطرة إزاء الطوفان الهائل الذى جرى فى أجهزة الاعلام.

وتصدى الدكتور عبد الله حلمى النديم للدفاع عن اعضاء المنظمة.

وعرقلت الأجهزة الرسمية المتمرسة فى أوفريسيا محاولات النديم للانفرادبأعضاء المنظمة كى يستطيع الترتيب للدفاع عنهم...لكن الاحترام الواسع الذى يحظى به النديم — دون مبرر— قد مكنه من التغلب على محاولات الأجهزة الرسمية..واستطاع اخيرا الانفراد بهم ..

كانت مقابلات النديم مع المتهمين تسجل صوتا وصورة ..وكانت الشرائط تصل الى الأجهزة الرسمية لكن شريطا إضافيا كان يصل الى المايسترو حيث إقامته شبه الدائمة فى الخارج كما كان لديه قبل ذلك أيضا شرائط التحقيقات المختلقة التى أجرتها مع المتهمين جهات جديدة .. وكانت لديه معلومات وافية عن طرق الضغط التى تعرضوا لها كى يتعرضوا على أعضاء آخرين فى تنظيمهم وكانت المعلومات الواردة فى هذه الشرائط بالغة الخطورة .. وصدّق ظن المايسترو - كما يصدق دائما - فقد نجحت هذه المجموعة فى تقليد عمليته العبقرية بصورة معكوسة .. وكانت تضم بين أعضائها عديدا من المستشارين والقضاة .. وأنه لم يكن يتم تنفيذ أى عملية ارهابية إلا بعد جلسة شبه قضائية تؤخذ فيها الأصوات بالإجماع بعد عرض المستندات الدامغة التى تدين

الضحايا.. وكان لكل ضحايا عملية إرهابية ملف كامل بالجرائم التي يدعى الإرهابيون أن الضحايا ارتكبوها ....

وقد حاولت السلطات أن تنسب لأعضاء هذه المجموعة عملية اختطاف الصحفى محمد أحمد .. لكن مقارنة الأصوات أسفرت عن عدم تشابه أى صوت منهم مع الشرائط .. بالإضافة إلى انكارهم جميعهم .. وفضلا عن كل ذلك كان الصوت الخفيّ مازال يتحدث فى شرائط التسجيل .

كانت مدة الرئيس فى الحكم على وشك الإنتهاء ..... ولم يكن يعيبه إزاء المايسترو إلا أنه لم يكن مُقَنّعًا ..إلا أن هذا العيب كان فى ذات الوقت ميزة ..فعملية المُقَنّعين أخطرُ من أن يسند إلى أحدهم منصب رئيس يكون تحت رحمة المعارضة والرعاع الذين لايمكن التنبؤ بفورات انفجاراتهم والتى كانت يمكن أن تؤدى إلى أن ينتهى الرئيس إلى حيث انتهى موسى الدهان .. ومن الممكن حينئذ فى لحظة من تلك اللحظات التى يسخر فيها الواقع من عبقرية المنطق أن تنكشف عملية المُقَنّعين .... لذلك رأى المايسترو أن تكون السلطة فى يده دائما مجرد عصاة تؤدى له كل المنافع .... وأنه كلما انكسرت هذه العصا استبدل بها عصا أخرى .. لكن الشئ الجوهرى .. ألا يتحول هو أو أحد أتباعه الكبار من يد تمسك العصا إلى عصا ..

كانت الفترة الحاسمة التى تمر بها أوفر يسيا لا تحتمل إجراء انتخابات مثل تلك التى جرت مرّات عديدة بلا جدوى .. وكان ينبغى أن تعود الانتخابات إلى سيرتها الأولى .... رسُرّب مشروع قانون إلى مجلس النواب وساهمت الصحافة والاذاعة والتليفزيون فى اقناع الرأى العام بهذا المشروع : أن يكون الرئيس رئيسا مدى الحياه .. وقد نجحت أجهزة الاعلام فى أن تؤكد أن ذلك ليس عودة إلى نظام الإمبرائيس بل أنه تطوير ضرورى وجوهرى للاستقرار فى أوفر يسيا ..

* * *

استمرت جلسات النديم مع المتهمين فى منظمة جبهة تحرير أوفر يسيا واستمرت المعلومات الخطيرة تسجلها شرائط الفيديو وتنتقل إلى المايسترو.

- وكان أخطر ما أكتُشِف والذى كان مذهلا حتى للمايسترو نفسه أن ضابط المخابرات اللعين والعضو الرئيسى فى الجبهة قد تمكن من الحصول على مستندات موثقة تفيد أن الرئيس نفسه متورّط بأبعد مما يتخيل الكثيرون .. لم يقتصر التورط فى التستر على الفساد كما تقول صحف المعارضة .. ولم يكن اشتراكا فى نهب ثروة الوطن كما يدعى الرعاع .. بل أخطر من هذا كله .. إذ أنه بعد أن أكد ما وصلت اليه المعارضة والرعاع يُقلِّب أوراقا قديمة فى أرشيف المخابرات

مستعينا بأصدقاء له فى مخابرات أجنبية ليكتشف أن الرئيس فى الواقع كان يعمل جاسوسا لدولة الشرق منذ عشرين عاما وأنه طوال هذا الوقت يتلقى منهم دخلا شهريا ثابتا يودع فى أحد بنوك دولة الشمال . كان ذلك يحدث وهو مجرد عضو فى مجلس الأعيان واستمرّ حتى الآن بعد أن تولى الرئاسة .

وكشفت التحقيقات بعد ذلك أن لجنة القضاة والمستشارين فى جبهة تحرير أوفريسيا اجتمعت وأصدرت بالإجماع حكمها على الرئيس بالإعدام .. وأن هذه المجموعة الإرهابية كانت على وشك تنفيذ عمليتها الإجرامية باغتيال الرئيس .

كانت السلطة تتكتم تماما كل هذه المعلومات ولم يكن يصدر إلا مقالات مطولة عن شذوذ كل فرد من أفراد العصابة وانحرافه الاجرامى ..

وفاجأ الدكتور النديم الجميع بمؤامرة خسيسة .. إذ استطاع أن ينتهز فرصة وجوده فى أحد الاحتفالات التى أقامتها أحدى السفارات بعيدها القومى وكان يحضر الاحتفال عدد كبير من الصحفيين .. وفجأة أعلن النديم عن عقد مؤتمر صحفى سيذيع فيه معلومات هامة .

وبدأ المؤتمر فى حديقة السفارة بخطبة طويلة تحدث فيها النديم عن القيم المجرّدة المطلقة عن الوطن .. والتاريخ والدين والحكومة ثم افترض النديم أن دولة من الدول اختل الوضع فيها فتمكن جاسوس من الوصول إلى مقعد الرئيس .. فهل يكون جهد كل أجهزة الوطن حينئذ حماية الرئيس الجاسوس أم القبض عليه ..

وصرخ النديم :

— ماذا يكون موقفنا .. أن نحميه من الوطن أم نحمى الوطن منه .

تعالت أصوات الصحفيين وهى تطالب النديم بأن يعطيهم معلومات محددة وليس مجرد آراء عامة .

وألقى النديم قنبلته :

— اننى أتحدى السلطة أن تحاكم أعضاء جبهة تحرير أوفريسيا محاكمة حرة علنية .

وتعالت أصوات :

— لماذا .

وصرخ النديم :

— لأن رؤوسا كبيرة ستسقط إذا عَلّم الشعب الاوفريسى بما يعلَمُه أعضاء هذه الجبهة .

وازداد إلحاح الصحفيين :

— نريد أن تحدد لنا أسماء .

وزعق صحفى من دولة اشتهرت بعدائها لأوفريسيا :

— هل تقصد أكبر رأس فى البلد .

وأجاب النديم :

— إن أكبر رأسٍ فى البلد شئ معنوى وليس جزءا من جسد إنسان أيّا كان منصبه .

وتعالت أصوات الصحفيين مرة أخرى تطالب بمعلومات محددة :
وقال النديم :

— لعلكم تذكرون ذلك المواطن الذى وجد مشنوقا فى زنزانته وادعت سلطة الإمبرائيس السابق أنه انتحر .

وتعالت أصوات :

— نذكره

وصاح آخرون

— نريد معلومات عن الحاضر لا عن الماضى

وقال النديم :

— إن السلطة لن تجرؤ على مواجهة أعضاء جبهة تحر يرأوفريسيا فى ساحة المحكمة .. وستفاجأون بهم قريبا مشنوقين فى نوافذ زنزاناتهم فالمعلومات التى لديهم ستدفع السلطة لقتلهم ثم الادعاء مرة أخرى أنهم قد انتحروا .. وتصاعدت الأصوات مرة أخرى .

— نريد أن نعرف الاتهامات والمتهمين ..

* * *

وصلت أنباء المؤتمر الصحفي إلى السلطة لحظة ابتدائه .. و برغم السرعة القصوى التى تم بها التصرف إلا أن خطة النديم أعطتهم وقتا كافيا حتى يصل شباب الصحفيين مع بعض رجال الأمن الذين يحملون بطاقات صحفيين .. وقد بدأوا يتجمعون ثم اكتمل عددهم مع السؤال الأخير:

— نريد أن نعرف الاتهامات والمتهمين

وهنا تعالت أصوات وتداخلت أجهزة الميكرفون الخاصة بالمسجلات وعم ضجيج استحال فيه أن يسمع صوت ... ولسبب غير مفهوم نشبت مشاجرة عنيفة تحطمت فيها المقاعد والمصابيح وتدخلت قوات الأمن واصطحبت الجميع إلى مركز الشرطة .. وتم سؤال الجميع بعد التحفظ على مايحملون من كاميرات وأجهزة تسجيل .. وبعد التحقيق ثبت أنه ليس هناك مُتّهم معين فيما حدث ورجّح الضابط الذى يحقق أنّ ماحدث كان بسبب تدافع الصحفيين وعدم انضباطهم وتم الإفراج عن الجميع .. لكن جميع الأفلام وشرائط التسجيل والفيديو كانت تالفة ....

وقدم بعض الصحفيين الأجانب شكوى يتهمون فيها رجال الشرطة أنهم هم الذين أتلفوا الشرائط .. وتم التحقيق فى الشكوى وكان واضحا تجنيهم على رجال السلطة فمن المنطقى أن تكون هذه الشرائط قد تلفت بمحض الصدفة أثناء المشاجرة .. وأقفل التحقيق على ذلك بالحفظ .

كان النديم ـ كعادته دائما ـ كثير الشك والأوهام فتخيل أن مؤتمره الصحفى سوف يدفع السلطة بالإسراع فى خطتها ضد رئيس جبهة تحر يرأوفريسيا ربما بنفس الطريقة التى فكّروا فيها بالتخلص منه شخصيا عندما كان سجينا وربما بأى طريقة أخرى فهويعرف أنّ باع السّلطة طويل فى هذه الأمور. وحاول أن ينشر وقائع المؤتمر الصحفي لكن الصحف الحكومية تجاهلته تماما . وعندما قررت الصحف المعارضة والتى كانت تتمتع بحرية لايحدها إلاّ القانون نشر وقائع هذا المؤتمر صدر قرار من النائب العام يحظر النشر فى القضية كلّها .
ثبت بم لايدع مجالا للشك انحراف تفكير الدكتور النديم فلم يحدث شئ مما توقّعه .. وإنّما فوجئ الجميع بأن ضابط المخابرات السابق ورئيس جبهة تحر يرأوفريسيا قد تُوفّى بصورة طبيعية

فى زنزانته .... وكانت السلطة حريصة فى هذه المرة متجنبه الوقوع فى أخطائها السابقة فكلفت أكبر الأطباء الشرعيين فى أوفريسيا بتشريح الجثة وكان تقريرهم يؤكد أن الوفاة طبيعية ....

وصرّح شيخ الجامع الكبير فى أوفريسيا أنّ حياةَ كلّ واحد منا وديعة عند بارئة يستردّها حين يشاء .. وأن أجل كل إنسان لا يتقدم ولا يتأخر لحظة ..

وطالبت أحزاب المعارضة بإعادة تشريح الجثة وعلى عكس المتوقع وافقت الحكومة .. وأعيد تشريح الجثة فإذا بالتقرير الثانى صورة مطابقة للتقرير الأوّل .

كان انفعال الدكتور النديم بأوهامة أكثر من أن يحتمله عمره فأصيب بجلطة فى المخ وسقط فى غيبوبة تامة .

وأبدت السلطة كرما متناهيا وسماحة بلا حدود فقد صدر الأمر فورا بنقله فى طائرة خاصة إلى أحدث المراكز الطبية فى بلاد الشمال لعلاجه على نفقة الدولة التى قضى عمره فى مهاجمتها .. وتم نقله : واستعملت أحدث الوسائل العلمية فى علاجه لكن قضاء الله الذى لا يرد قد نفذ ...

ومات الدكتور عبدالله حلمى النديم :

* * *

خرج المايسترو وفيروز العسال من مركز الفحص الطبى الدورى ..
قال المايسترو ضاحكا :

— الطبيب يحذرنى .. قال لى : صحتك جيدة لكن عليك بعدم الإفراط فى الشهوات .
وضحك العسال فى فتور.
وواصل المايسترو:

— هل علمت بموت النديم .. يالها من نشوة أن يموت لك عدوّ.

وأجاب فيروز العسال فى شرود :

— لكنّ الرعاع فى أوفريسيا يغلون غضبًا

انتبه المايسترو فجأة لشرود فيروز العسال فتدارك متسائلا :

ماذا قال لك الطبيب .

وأجاب العسال بملامح مهمومة :

— لقد طلب مزيدا من الفحوصات

كان فيروز العسال مصيبا عندما قال أن الرعاع فى أوفريسيا يتفجرون بالغضب .

واجتمع مجلس الأمن القومى واتخذ عدة قرارات لشد انتباه الرعاع عن جنازة النديم فى اليوم التالى وعما أثاره قبل موته من سخافات حول اتهام السلطة بقتل رئيس جبهة تحرير أوفريسيا ..

وكانت الإذاعة المعادية من الدولة الصغيرة المجاورة لاتكف عن مهاجمة أوفريسيا وحكّامها .

وتصدّرت نشرة الأخبار معلومات مقلقة حول تحرّش قوات هذه الدولة بقوات أوفريسيا على الحدود .

وكانت أحداث اليوم التالى أحداثا عاصفة ورهيبة .. منذ الصباح الباكر تجمع أكثر من مليون مواطن أوفريسى فى شوارع أوفريسيا العاصمة كى يودّعوا النديم إلى مثواه : الأخير ..

كانت المعلومات تصل الى المايسترو بالتليفون كل بضع دقائق ..

لا شئ إلا الجنون يفسّر ارتباط الرعاع بعبدالله حلمى النديم .. كانت مشكلة عويصة وكان المايسترو يملك لها تفسيراته الخاصة لكنها لم تكن تفسيرات صلبة كبقيه أفكاره ..

لماذا يحبون النديم ؟

هل خفض لهم أسعارا هل وفّر لهم مأوى هل أعطاهم طعاما أم رفع عنهم ظلما .. هل حقق بكل حياته شيئا وحيدا يفسر حب الرعاع له ... والوجه الآخر للمعضله لقد كان النديم بلا شك عقلا كبيرا وشخصية فذّةفكيف غاب عن هذا العقل الكبير أن كل مافعله كان بلا جدوى .. ولماذا ضيّع عمره فى هذا العمل والضنى .. لم يّحقّ به هو ظُلم .. ولم يعوزْه المال وكان الجاه والسلطة رهن اشارته لو تخلى عن سلوكه المعوجّ .. فتُرى ما هى الطاقة الرهيبة التى دفعته أن يُفنى عمره كله فى قضية خاسرة..... إن المايسترو يفسّر الأمر كله بتخلّف الأوفريسيين .. بعادة عبادة الأوثان .. لقد عبدوا النديم فأحبّوه حب العاشق للمعشوق .. لكن ذلك التفسير يفسّر نصف المشكلة فقط .. أما النصف الثانى فلا يبدو له امام المايسترو تفسير وهو لماذا أحب النديم هؤلاء الناس ..

وإن الأخبار التى تصله تترى توحى إليه بفكرة غريبة .. وهو أن المليون الذى يودع الآن

النديم .. وملايين أخرى تبكيه .. تحمل فى قلوبها من الوَلَهِ بالنديم قدرا يساوى تماما فى معضلة مستحيلة التفسير قدر الحب الذى أحبة النديم لهم .. فكيف يمكن تفسير أن إنسان واحد يتسع قلبه لما تتسع له ملايين القلوب .

ولم يقتصر الأمر فى الجنازة على تشييع الجثمان فإن المليون العائد من المقابر تصرف كما هو جدير بوحوش ضارية متخلفة أخذت تدمر كل شئ ..

وأذاعت اذاعة أوفريسيا أن طائرات معادية هاجمت أوفريسيا من الدولة المجاورة .. وأخذت المارشات العسكرية تعزف فى الإذاعة والتليفزيون .

لكن إذاعة تلك الدولة المعادية كانت تكذِّب تماما ما أعلنته إذاعة أوفريسيا .

وبناء على توجيهات الرئيس أصدر رئيس الوزراء معاوية زغلول أوامره بتأديب تلك الدولة الحقيرة التى تتجزأ على شعب أوفريسيا العظيم ..

وفى خبث دنئ كانت تلك الدولة قد قَوت موجة إرسالها كى يسمعها الجميع فى أوفريسيا

كان نوعا من الحرب المعنوية لكن الرعاع فى أوفريسيا لم يفهموا ذلك .

وكان صوت المذيع الأوفريسى الخائن يتحدث من اذاعة تلك الدولة الأجنبية مؤكدا أن هذه الدولة ليست عدوة لأوفريسيا وإنما هى عدوة للجلادين الذين يستعبدون شعبها ..

وصدر بيان رسمى من تلك الإذاعة أنها لن ترد على هجوم الجيش الأوفريسى عليها .. لأنها تدرك أنه جيش مقهور ومجبر على تنفيذ الأوامر .. لكنها أخذت تناشد الأوفريسيين فى نذالة أن يدركوا سر ما يحدث .. وأن نظام الحكم ـ كانت هذه ألفاظهم القذرة فى وصف الحكومة الأوفريسية ـ فى أوفريسيا يقصد بهذه الحرب أن يُلهى الشعب الأوفريسى عن فشل النظام فى الداخل والخارج .... وأنه يتجنب مواجهة أعدائه الحقيقيين فى الخارج الذين يجرّعونه المذالة والمهانة كل يوم .. لكنهم بدورهم يتقلون هذه الجرعات من المذلة والمهانة إلى الشعب الأوفريسى ولأنهم يدركون الآن أن كأس الأوفريسيين قد طفحت بما فيها وأنهم لم يعودوا يحتملون مز يدا من الذّل فإنهم يحاولون نقل هذا الذل بضرب دولتهم الصغيرة والتى يجب أن تمثل امتدادا طبيعيا وحليفا لأوفريسيا .

بالرغم من نشوب الحرب فعليا فان الرعاع لم يتوقفوا عن مظاهراتهم طوال اليوم فى خيانه سافرة للوطن الذى يخوض معركة شرسة ضد أعداء أوفريسيا .

إتصل معاوية زغلول بفيروز العسال فى ساعة متأخرة ليطمئنه على الأحوال خاصة بعد إعلان ـكام العرفية بسبب الحرب

فى الصباح الباكر دوّى تليفون خاص فى قصر المايسترو.. وهو تليفون لايعرف رقمة سوى الأعوان الخمسة ولايستعمل إلاّ فى أشد الأحوال خطورة .

كانت المكالمة مختصرة لكنها مذهلة ..

فأثناء توجه أحد أسراب الطائرات لضرب العدوّ غيّر هذا السرب اتجاهه ونسف قصر المايسترو وقيادة الجيش وأنه قد تم القبض على معظم كبار الضباط والوزراء وأعضاء مجلس النواب فقد كان الأمر مدبرا .. وأن مايحدث هو انقلاب عسكرى أوشك أن يُحكم قبضته على الإذاعة والتليفزيون وجميع المرافق العامة . وأنّ الجماهير عندما أدركت مايحدث اندفعت إلى الشوارع كالجراد . وأنّ مذابح رهيبة تحدث الآن فى أوفريسيا ضد النظام الحاكم كلّه ..

تساءل المتحدث :

ــ هل يمكننا فعل شئ

واجاب المايسترو بسؤال

ــ هل يمكنك أن تفعل شيئا ؟

ــ لا أعتقد أنه يمكننا فعل أى شئ وسط هذه الفوضى .

ــ إذن .. لننتظر ونرى ..

* * *

كان الحصاد فى نهاية اليوم رهيبا ..

كان عدد القتلى لايقل عن أربعين ألفا منهم عدد كبير من رجال السلطة .. كان معاوية زغلول وعشرات المقنعين بين القتلى وآلاف المجندين بين القتلى والجرحى ونجح الانقلاب ..

فى المساء كان قائد الانقلاب يوجّه بيانا إلى الشعب الأوفريسى : كان المايسترو يسمعه من الراديو مباشرة ..

بدأ قائد الانقلاب بيانه ..

وهبّ المايسترو واقفا وهو يهتف :

ــ هذا هو الصوت الخفى الذى اختطف الصحفى محمد أحمد .

ـ ٣٠ ـ

كـانت الأسابيع التالية مزعجة للمايسترو حقا.. كانت لعبته القديمة قد استمرت فى إطارها الـذى رسـمه لها.. وكان الأبداع قد أثمر نوعا من التسيير الذاتى للحكم على هواه حتى أتى هذا الانقلاب ليهدد خططه.

اتـضـح أن اسم قائد الانقلاب خالد سليمان نور الدين الأيوبى .... ولم يسفر الانقلاب عن الـقـضـاء على الحكومة أو رجال السلطة فقط وانما كان يسعى للقضاء على طبقة بأكملها.. وهذا هو بالضبط ما أزعج المايسترو لأنه كان يدرك دائما أن الملك أو الرئيس أو الامبرائيس أو الحاكم مجرد محصلة لطبقة.. الوجه الظاهر لقوة خفيّة.. لذلك كان القضاء على إمبرائيس لا يسفر عن امبرائيس آخر مثله، كان كالممثل على خشبة المسرح.... لايشترك فى كتابة الرواية ولا الإخراج ولا الموسيقى ولا الديكور ولا حتى اختيار الممثلين الأخرين الذين يمثلون باقى الأدوار معه.. لذلك كان من السهل دائما كلّما ذهب أمبرائيس أن يأتى ــ حتى ولو من الكومبارس ــ من يقوم بدوره. فالملقن موجود والرواية لاتتغير..

ومن هنا كان انزعاج المايسترو.. لأن هذا المسمى خالد قد أدرك سرّ اللعبة فغيّر الرّواية والمسرح والمؤلف والمخرج والممثلين جميعا.. إنه يلعب فى ساحة أخرى. إنه يسحق الطبقة العليا دون أن يقيم طبقة أخرى بديلا عنها بل و يدفع بالطبقة المتوسطة كى تتولى زمام كل الأمور فى أول انقلاب حقيقى على أنظمة الحكم. انقلاب يغير مصدر القرار ومُصدره.

كانت خطة المايسترو دائما أن يتركز القهر على الطبقة المتوسطة.. تلك التى تمثل العمود الفقرى بالنسبة لكل مجتمع لأنها الطبقة التى تسعى دائما للتغيير.. فهى ليست من فئة المسحوقين بلا أمل ولا من فئة النخبة التى حققت كل أمل ويهمها أن تستقر الأوضاع..

وكانت خطة المايسترو العبقرية أن تنشغل هذه الطبقة تماما بهموم الحياة اليومية حتى لايعود لديهم وقت للتفكير فى شئ أخر. أن يغرقوا فى الصراعات الصغيرة التى تشكل محور

وجودهم فيصبح الثانوى رئيسا والرئيسىّ بلا قيمة..... أن يفقدوا الثقة بالمنطق.. وأن يكون حوارهم مع بعضهم ومع الآخرين كحوار الطرشان.. انهيار علاقة التفاعل والتفاهم وارتباط النتيجة بالسبب.. كلّ هذا يؤدى إلى الانكفاء على الذات والانفعالات المفرطة تجاه اتفه الأسباب وتجاهل مآزقهم الرئيسية لأنها بلا حلّ........

لكّن المايسترو كان حريصا دائما على أن تكون هناك ثغرة تُنِفّس منها هذه الطبقة عن نفسها كى لاتنفجر... وهذه الثغرة أن يكون هناك أمل دائما بالنسبة لكلّ واحد من أفراد هذه الطبقة أنه بضربة حظ يستطيع أن يقفز إلى الطبقة الأعلى.. مثل لعبة يانصيب مستمرة.. واحد فقط هو الذى يكسب لكن الملايين المشتركين فيه يحملون أمل الفوز....

الأن يأتى ذلك الخالد فينسف خطته نسفا. وإنّ المايسترو ليكتشف وهويتابع خطبه أنه يكاد يتمتع بعقل كلى مثل عقله لكن فى الأتجاه الآخر... كقطبى مغناطيس يحملان نفس القوة والخواصّ لكن فى الأتجاه المضاد

صدرت أوامر المايسترو أن تُعيد منظمة التحكم والسيطرة كلّ حساباتها. لقد قتل الكثيرون من أفرادها أثناء الشغب.. لكن على الباقين أن ينقسموا إلى قسمين.. قسم يكون ملكيّا أكثر من الملك فى تأييد الثورة.. وقسم يكون موضوعيا تماما فى التقارير التى يقدمها إلى الرئاسة.. ولأن الموضوعيّة ليس لها مقياس تُقاسُ عليه فقد كان شرحُ المايسترو لهذه الموضوعية أن تكون على هوى القائد الجديد.

إستدعى المايسترو أيضا فيروز العسال على عجل وكلفه بمهام سرية محددة.. وحذّره.. من درجة السرية القصوى لفكرته بحيث لايجب أن يعلم بها كاملة إلاّ ثلاثة: المايسترو وفيروز العسال والشخص الثالث الذى سيُكلّف بالمهمّة.

وتساءل فيروز العسال:

— هل ترى أنّ الأمر على هذه الدرجة من الخطورة

وأجاب المايسترو

— على أى حال فنحن لانبدأ من الصفر.

* * *

شكّلت فى كل أنحاء أوفريسيا لجانٌ من الرّعاع مهمتها أن تبحث مصدر ثروة كلّ غنى... فإذا استطاع هذا الغنى إثبات مصادر مشروعة لثروته تُركتْ له.. وإذا لم يستطع صودرت الثروة كلها.. أما اذا شكّتْ اللّجنةُ فيه فإنها تُصادِرُ نصف ثروته..

والغريب أنّ القائد الجديد كان يبرر هذا السلب والنهب باسم الدين.

وبعد تطبيق هذه القوانين لم يعد فى أوفريسيا تقريبا أغنياء فقد كان الجميع تقريبا إما لصوص وإما نصف لصوص..

كان المايسترو فى السنوات الماضية يحسب حسابا لكل شئ.. كان الجزء الأعظم من ثروته فى الخارج.

واستطاع المحاسبون القانونيون للمايسترو أن يثبتوا أن كل ثروته فى أوفريسيا مُحَوّلة من الخارج لذلك فإنها مشروعة..

وبالرغم من ذلك فقد تقدم المايسترو بمبادرة عبقرية حين قَرّرَ التبرع بكل ثروته فى أوفريسيا للشعب وكانت تقدر بثلاثمائة مليون أوفريس. أرسل المايسترو تنازله الرسمى إلى القائد الجديد منهياً رسالته الشخصية إليه بتمجيده لقيادته وبطلب واحد.. هو أن لا تتعرض وسائل الأعلام لهذا فهو يقصد صالح الوطن ولا يريد أية شبهة لمجد شخصى.

لكن القائد الجديد لم يستجب لهذا الطلب.. وقبل التنازل لصالح الشعب الأوفريسى وأصدر فى نفس الوقت قرارا بمنح المايسترو لقب

«المواطن الأوفريسي الأول»

واشتمل القرار أيضا على حق المايسترو فى الاحتفاظ بقصره فى تيفولى الجبل مدى حياته.

وأخذت الصحافة والإذاعة والتليفزيون تمجد فى هذا المواطن العظيم الذى لم يشارك فى الفساد السياسى أو الاقتصادى فى أى عهد وبرغم ذلك يتبرع بثروته كلها لشعب أوفريسيا

لم يقلق المايسترو كثيرا عندما استدار القائد الجديد إلى الأموال المهرّبة فى الخارج... كانت أمواله فى الخارج مودعة بصورة لا يستطيع حتى الشيطان اكتشاف سرها ....

والغريب أنّ السلطة القديمة كلها قد تهشمت كصندوق من الورق المقوّى.. واعترف الكثيرون بالأموال المهربة فاستعادها القائد.. أما الذين لم يعترفوا فقد صدر أمر بسجنهم مدى الحياه إن لم يُحضِروا هذه الأموال، فانهار عدد كبير منهم وسحب أمواله من الخارج مقابل حرّيته.

أثبتت محاكم الثورة فى أوفريسيا أنّ جميع رجال السلطة السابقة كانوا خونة... صدرت عليهم أحكام تتراوح بين الإعدام والأشغال الشاقة والسجن وكانت محاكم عسكرية استثنائية لم يكن لأحكامها استئناف ولا نقض.

وادعت الحكومة الجديدة أن جميع القروض التى أبرمها الحكام السابقون كانت سرقة ونهبا وأنها لم تتم بمعزل عن حكومات أجنبية تخلت عن جلال السلطة لتعاونى دور اللص العالمى لنهب ثروة أوفريسيا ..وأن من كان يعطى القروض لأوفريسيا كان يعطيها لأشخاص ولم يكن يعطيها الشعب ولا لدولة ولا لوطن.. وبهذا المنطق المعوج الذى يخالف جميع القوانين الدولية أصدر

القائد الجديد قرارا بتوقف أوفريسيا عن سداد ديونها للخارج. كان نوعا من البلطجة على مستوى دولى...

ولخيبة أمل المايسترو فإنّ الدول الدائنة لم تتخذ موقفا صلبا تجاه ذلك القرار المُشين.. وادرك المايسترو أن الدّول الدائنة نفسها عازفة عن الدخول فى تفاصيل القروض لأن ذلك سيكشف أمرين هامين: الأمر الأول أن هذه القروض كانت مؤامرة حقيقية متفقا عليها للسيطرة على أوفريسيا.. والأمر الثانى أن بحث التفاصيل كان سيسفر عن تورط قيادات رئيسية فى الدول الدائنة فى الحصول على عمولات ضخمة إزاء ابرام هذه القروض.

كانت اللقمة ضخمة وسائغة لكن القائد الجديد استطاع ابتلاعها.. وبدا الرعاع فى أوفريسيا مفتونين بالقائد الجديد الذى فجّر فى الجماهير العمياء حماسها فتخلت عن سلبيتها القديمة المتوارثة.. وكان هذا بالضبط هو مكمن الخطورة فى الثورة.. أن يتحول الرعاع من الاستسلام الكامل إلى الإحساس بالسيادة المطلقة.... وفى شهور قليلة استطاعت تلك الحيوانات البشرية أن تُدير أمور أوفريسيا بقدر من الكفاءة المذهلة.. زاد الانتاج وانعدمت السرقة تقريبا لأنّ القانون كان يُطبّق بمنتهى العنف على الجميع.

تخلّى القائد الجديد عن الصحافة والتليفزيون والراديو.. والغى قسما هاما فى هيئة الإعلام كانت مهمته تقديم الزعيم للجماهير كنجم. واستطاع الداهية أن يكّون علاقة مباشرة بينه و بين الناس الذين راحوا يقدسونه.

كانت بعض خطبه تكرار لما جاء فى شرائط التسجيل قبل ذلك ... وكانت الأخرى تسير على نفس النهج.. كان يقوم للجماهير بدور المعلّم.. وكان يناشدهم ألا يسمحوا لطاغية آخر باستعبادهم..

كان يحدثهم عن العلاقة بين الماضى والحاضر والمستقبل.. فالماضى هو الذى أدى بنا الى الحاضر وحده.. ثم يتفاعل الحاضر مع الماضى ليكوّنا المستقبل.. وأن المستقبل هو ما تحقق من آمال الحاضر..

وكان يركز على إعادة فهم الماضى وإعادة صياغة الحاضر لتحقيق المستقبل و بينما يتحدث عن الماضى أخذ يشرح للجماهير العلّة الأساسية التى أدت الى فساد الحكم وخيانته لأوفريسيا .... كان كل شئ كاذبا.. أصبح الكذب جزء إساسيا من نسيج المجتمع.. فى كل مكان وزمان و بين كل إنسان وإنسان.. الحاكم يكذب على الشعب والشعب يكذب على الحاكم.. كذب بين كل المؤسسات و بين الأمة... و يتكاثر ذلك الكذب كنباتات شيطانى ليؤدى إلى كذب بين الأفراد والأفراد.. كذب فى الإيمان والتدين.. كذب فى الولاء.. كذب فى الصداقة كذب حتى فى الحب والزواج.. كذب فى إدعاء القيم السامية وادعاء المعرفة.. كذب المسئول على المواطن وكذب المواطن على المسئول.. كذب رجل الشرطة الذى يدعى المحافظة على الأمن

بينما يهدده.. كذب الموظف على صاحب الحاجة كذب التاجر على المشترى.. كذب الحرفى على الزبون.. كل الحوار تضليل وخداع وكلّ المقالات كذب..

وساد فى أنحاء أوفريسيا احتقار عميق لاحهزة الدولة القديمة مماأثر تأثيرا سلبيا على الأمن فوقف القائد الخطيب يخطب:

إننى معكم فى أن عنفنا الثورى كان هو السلاح الأخير لاعادة اعتبار شعب أوفريسيا المفقود وذاته المهدرة.. لكننا فى نفس الوقت يجب أن نكون حريصين على عدم تدمير أنفسنا.. إننى أدرك مثلكم كمّ المرارة الهائل تجاه بعض الأجهزة... لكن عيب هذه الأجهزة ليس مقصورا عليها وليس خطأ كامنا بل هو عيب النظام الحاكم كله.. إننى أدرك مثلا مرارة الجماهير تجاه القهر الذى تعرضت له من الشرطة... إننى أطمئنكم أولا أنه لن تمر واقعة تعذيب واحدة دون تحقيق.. وسنعود إلى طريقة أوفريسيا القديمة فى العقاب كى نستأصل فكرة التعذيب تماما من أى حكم قادم.. العين بالعين والسن بالسن والبادى أظلم.. سوف يتعرض كل من مارس التعذيب لنفس نوع التعذيب الذى مارسه..

كانت الصحافة تمجد مع الرعاع فى البطل!.. وأبدى خنفس بوللى وزملاؤه براعة هائلة فى تغيير جلودهم والتأقلم مع النظام الجديد..

وفى مقالة شهيرة بعنوان «عفا الله عما سلف» كتب خنفس بوللى يناشد الحاكم أن يستعمل الرحمة قبل العدل.. منوها أنه برغم ذهوله ممّا تكشف عن حجم فساد الحكم السابق و برغم حزنه وأساه لما اكتشفه من صدق وقائع التعذيب التى أنكرتها السلطة دائما.. إلاّ أنه يلتمس العذر لمن خُدعوا فى النظام السابق.. وإذا كان كبار المفكرين أنفسهم قد خدعوا فالأولى أن نلتمس العذر للصّغار.

إلا أن صحفيا من صحف المعارضة السابقة أيّد القائد الملهم فى أن يلقى الجلادون جزاء ما اقترفت أيديهم.. وفى مقال شهير بعنوان.

«لا رحمة بالفجرة».

قال فيه أنه يدرك الأبعاد المختلفة للموضوع.. وأنه يدرك أن الشرطى أو الضابط الذى كان يقوم بالتعذيب كان فى الأصل مواطنا أوفريسيا عاديا.. لكنه لم يكن هناك أشد قسوة و بطشا فى التعامل مع هؤلاء المعتقلين من هؤلاء المواطنين الذين كانوا مستضعفين ومقهورين قبل دخولهم سلك الشرطة.. لقد تحولوا من أناس عاديين إلى شياطين ووحوش.. من أناس مُهدّدين إلى حيوانات مستبدة تتشفى بمن لايزالون مستضعفين.. كانوا يشعرون فى أعماقهم بنوع من التحدى تجاه المُعتقلين.. لقد تخلّوا هم عن كل القيم الأخلاقية والدينية والإنسانية كى يصلوا إلى مناصبهم.. فى جزء ما من داخلهم كانوا يدركون أنهم لم يعودوا بشرا.. وكانوا ينقمون على

أولئك المعتقلين الذين يصرّون رغم التعذيب أن يحتفظوا بادميتهم . كانوا ينتقمون من اولئك الذين رفضوا أن يكونوا حيوانات مثلهم ... وأن أىّ مبرر للدفاع عنهم غير مقبول ... وختم الصحفى مقاله بأنه يؤيد القائد الملهم فيما ذهب اليه من طريقة عقابهم .

كان القرار النهائى دائما يصدر من القائد .. ولم يكتف القائد بذلك بل قرر أن كل كبار الصحفيين سيتعرضون لنفس التجربة التى تعرّض لها الصحفى محمد أحمد .. وأنه لن يترك أحدا منهم دون أن يعترف بالتفصيل بكل ما اقترفه .. وأخذ يشرح ذلك قائلا أن وظيفة الصحافة فى أوفريسيا كانت تزييف وعى الأمة .. وأنها لم تكن تقل خطورة عن خطورة النظام الحاكم ولاتقل كذلك عنه فسادا .. وأنه يريد للصحافة عهدا جديدا لاتكون وظيفتها فيه مجرد نشر الخبر الصادق والرأى الحر .. بل أن تنشر الثقافة أيضا والفروع التى تشملها الثقافة من معرفة وتاريخ وقيم وأفكار وعادات ومبادئ ودراسات للماضى والحاضر وآفاق المستقبل .. لأنها بذلك فقط تستطيع أن تحقق توازنا عاما للأمة عن طريق بناء جملة المعايير المختلفة التى تصهر مشاعر الأفراد فتنقيها مما علق بها من خبث حتى تدمج الأفراد بعضهم بالآخر .. أن تخلق هوية قومية وشخصية قومية لأوفريسيا .. تلك الهوية والشخصية التى اغتالتها نظم الحكم السابقة .

ولم يقتصر الأمر على الصحفيين فقط بل صرح القائد أنّ كل كبار المسئولين سيتعرضون لنفس النوع من المحاكمة .. وأن فقهاء السلطان أيضا لن ينجوا من المحاكمة والاعتراف .

وكان القائد يخاطب الشعب قائلا أنه بذلك لايريد التشفى والانتقام بل يريد أن يظهر للأوفريسيين جذور الفساد وكيف تنبت .. وأن يظهر للمفسدين أن يوم الحساب آت لاريب فيه .

وكما يسرى تيار من الكهرباء فى آلة خامدة . اشتعل الرعاع فى أوفريسيا بنشاط رهيب وبدأ الانتاج الزراعى والصناعى يتزايد بصورة مذهلة . وقلت حوادث العنف والاجرام التى كانت سمة من سمات أوفريسيا .. وكان قرار عدم دفع الديون دفعة هائلة فكّت قيود الاقتصاد فى أوفريسيا فأخذ ينطلق ..

كان المايسترو قد عاد الى أوفريسيا معززامكرما ... وكان برغم شيخوخته مازال محتفظا بحيويته .. لكنه بدا عازفا تماما عن بذل أى نشاط سياسى أواجتماعى .. بل ورافضا أيضا لأى نوع من التكريم .

كان يراقب تقديس الأوفريسيين للحاكم الجديد بنوع من الحيرة ... كان مايزال برغم عمره قادرا على التركيز معظم الأحيان .. إلا أنه كان يحاول التفكير أحيانا أخرى فتلتمع الفكرة فى رأسه كومضة البرق ثم تمضى كما لو كانت تكشف له فى سرعة خاطفة محتويات غرفة مظلمة .. لكنّ الضوء لايمكث الوقت الكافى الذى يعطيه الفرصة للتمحيص .. لو استمر وميض البرق أكثر قليلا لاستطاع أن يرى الحقيقة كاملة .. أن يكشف السر ... المعادلة البسيطة المذهلة التى

تشرح كل الأشياء .... إنه يخشى أن يؤثر تصلب الشرايين على خلايا محه . فيخونه عقله ، خيانة العقل هى أقسى خيانة فى الوجود ..

لقد استطاع موسى الدهان أن يذل جسده لفترة .. لكن هذا الحاكم الجديد يُذلّ روحه و يزلزل فكره .. حتى أنه يمنع نفسه أحيانا بقوة خارقة من الإعجاب به ..

إنّه يتحدث كثيرا عن الوطن فما هو الوطن ..؟!.

هل محو تلك الخطوط السوداء الغبية التى تفصل بين البلاد فى الخرائط ..؟ خطوط مختلفة صنعتها أجيال متخلفة .. فماذا يمكن أن يربط بينه و بين أحد رعاع أوفريسيا ؟. أمْ هى كثبان الرمال ووديان الطين وصخور الجبال ؟ ماذا يعنى الوطن غير ذلك .. وهل يختلف هذا الطين عن أى طين آخر فى أى بلد من بلاد الدنيا ؟ أو أن ذرات هذا الهواء ذات تركيب آخر؟!

لايوجد شئ اسمه وطن .. يوجد العالم .. والعالم قريته الكبرى التى ينتمى إليها والعالم كله ليس إلا صورة مرسومة بلُغَة ما على خلايا مخه .. إذن فانتماؤه فى النهاية إلى هذه المساحة الضيقة على قشرة مخه .. إلى نفسه .. ونفسه فقط .. فاذا أراد أن يوسع مجال الانتماء قليلا فإنه يضمّ إليه من يشابهونه هل يمكن أن يقارن حجم الانتماء بين أفراد مجموعته العالمية و بين انتماء أى واحد من هذه المجموعة وأى فرد من الرعاع فى كل الأوطان .. هل يمكن أن تنشأ علاقة انتماء حقيقية بين الحاكم والمحكوم .. بين السيّد والعبد ..

لكم ودّ طيلة عمره أن يُبدعَ نظاماً للحكم كالجسد الإنسانى : رأس يفكر ويحصل على أكبر قسط من الدم .. وعضلات تنفذ وتحصل على قسط من الدم يساوى تماما جهدها .. ثم لا يبقى بعد ذلك سوى طعام وشراب ونفايات ..

إن القائد يتحدث أيضا عن الاستعباد الذى تعرض له الأوفريسيون .. من قال أن نظام العبودية خاطئ .. إنه أعظم نظام وُجد فى الدنيا وسيظل الناس برغم كل أنواع الحكم وأشكاله مجرد سادة وعبيد ..

ويتحدث خالد سليمان نور الدين الأيوبى عن التاريخ الذى سيسجل العاركما سيسجل الفخار..

ياله من أحمق ..

ماهو التاريخ ..

هل هو قصص العجز والفشل والإنحطاط والهزائم وبحور الدم وأكوام الجماجم والأشلاء ؟ هو خرافات الحمقى وأساطير الجهلة ؟

هل هذا التاريخ ؟..

التاريخ ليس إلاّ بصمات العظماء على الزمن .. يزيدُ كان عظيما وصنع تاريخا عظيما .. أنا أيضا عظيم أصوغ تاريخا ..

أما التاريخ الآخر الذى يقصده ذلك الأحمق فليشرب منقوع أوراقه .. .. .. فهل يضر يزيدا الآن أن يُنصفه التاريخ أو يدينه .. وهل يعيد التاريخ مغنيا ضاع أو بطلا مات ..

فليظلّ التاريخ عزاء الحمقى ..

ولتظل كذلك لهم آمالهم أن يدخلوا الجنة وأن ندخل نحن النار.... لكن عليهم بعد أن يحصلوا على تاريخ الدنيا ومجد الآخرة أن يكتفوا بها تماما ويتركونا نفعل مانشاء ..

عاد فيروز العسال من الخارج... اطمأن منه المايسترو على تنفيذ الخطة وأخبره أنّها ستكون جاهزة فى غضون ستة شهور.

ثم أردف فى صوت يملؤه الأسى :

ــ لن أكون موجودا .

تساءل المايسترو

ــ هل ستسافر مرة أخرى ... أظن أن الفترة القادمة تحتاجنا جميعا داخل أوفريسيا لا خارجها .

أجاب فيروز العسال :

ــ أسفرت الفحوص الطّبية عن إصابتى بسرطان الرئة وقد انتشر فى الكبد والعظام والمخ .

اختلجت نبرات صوته وبدا أنه سيبكى لكنه تماسك .. وكانت مرة من المرات النادرة التى اهتز فيها المايسترو بعنف وهو يهتف صائحا :

ــ مادا تقول ؟

ــ أخبرنى الأطباء فى الخارج أنه لاجدوى من العلاج وأننى سأموت خلال ثلاثة شهور.

وخيّم عليهما صمت عميق مشحون بالتوتر والحزن

وتساءل المايسترو:

ــ أليس ثمة احتمال الخطأ فى التشخيص .. برغم نحافة جسمك فإن وجهك يبدو ناضرا ..

وأجاب فيروز العسال

— لقد اضطررت لتغيير القناع قبل حضوري ..

وخيّم الصمت العميق مرة أخرى .. ثم تساءل فيروز العسال :

— أتظن أن هناك بعد الموت شئ ..
فاجأ السؤال المايسترو مفاجأة عنيفة اهتزلها .. لقد طرح هذا السؤال على نفسه لآخر مرة منذ خمسين عاما .... تداخلت أفكاره فلزم الصمت .

وتساءل العسال مرة أخرى :

ألم تفكر أبدا أن الله قد يكون موجودا حقا ..

تقلص المايسترو فجأة كما لو أن ضربة أصابت موضع جرح قديم ....
وواصل العسال حديثه :

— كل هذا العناء .. ثم لاشئ .. فياله من أسى .. الآن أفهم لماذا يعبد الناس الله ..

تدهورت صحة فيروز العسال سريعا .. فدخل أحدث مستشفى فى أوفريسيا . ولأول مرة تهتز مشاعر المايسترو بعنف عندما يزوره فيرى الآلام المبرحة التى يعانيها .. إنه يستطيع الادعاء دون مبالغة أنه يشارك فى تسيير الكون لكنه عاجز عن أن يخفف لحظةً من ألم صديقه .... كان قد تعود أنّ الموت يعمل دائما لحسابه.... الآن يواجهه .. فيجد نفسه أعزلاً بلا حول ولا قوة .

وبعد قرابة ثلاثة شهور مات فيروز العسال .. كان المايسترو قد نسى أن العين يمكن أن تبكى عندما بكى ..
سار فى الجنازة .. أول جنازة يسير فيها .... وها هم يقذفون بفيروز العسال فى تلك الفوّهة المظلمة ..
لشد ما يبدو كل شئ خاويا وسرابا ..
الحياة نفسها تبدو خدعة كبرى .. أمهاتنا يجلسين القرفصاء على جواف القبور. نقفز من غياهب الرحم فيلتمع الضوء لحظةً ثم يُقذف بنا إلى تلك الحفرة المظلمة .

ساندته الحاشية حتى سيارته ..

انطلق السائق وهو يضبط المذياع على محطة القرآن .. وانطلق صوت المقرئ كسيخ من الحديد المحمى يخترق الجسد ..

« وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه »

وأمر السائق أن يغلق المذياع .

ـ ٣١ ـ

يشعر المايسترو أحيانا بالغضب من فيروز العسال .

كأنه خانه فمات ..

بموته مات جزء منه .. لم يكن يدرك أنه قد أحبّه إلا بعد أنْ فقده .. كان قد أدرك منذ زمان طويل أن العواطف تخلّف وأن العقل سيد الوجود .. الآن تتزلزل فكرته .. فهل يخونه الفكر أيضا كما خانه فيروز العسال ... إن أشياء كثيرة تهتز أمامه .. ولقد خشى على نفسه من الهلوسة ذات يوم عندما تخيّل أن فيروز العسال أمامه يسأله :

— هل يوجد بعد الموت شئ ..

وكادت الكلمات تخرج من فمه ليسأله هو:

— أوجدت أنت شيئا ..

لكنه أدرك أن مايراه خيال فحبس الكلمات على لسانه وهو يتلفت حوله خشية أن يراه من الخدم أحد ..

بل إنه يكاد يضبط نفسه أحيانا يكرر تساؤلات فيروز العسال ..

لشد ما سيسخر منه أصدقاؤه فى الخارج لو عرفوا فيما يفكر....

لقد حسم رأيه فى الأمر منذ عشرات الأعوام ..

فالدين ليس إلا رداء للحاكم وعزاء للرعية .

سرعان ما استعاد المايسترو جلاء عقله وصفاء ذهنه . وأخذ يتابع تفاصيل خطته الأخيرة بعد أن عيّن بديلا لفيروز العسال .. لو نجحت خطته هذه المرة فلن تفشل بعد ذلك أبدا ..

إن أبناء المقنعين لن يحتاجوا للأقنعة مرة أخرى لأنهم سيكونون منذ البداية حكاما .. سوف يكون المقنعون هم نواة نخبته الحاكمة الجديدة التى تحكم إلى نهاية الدنيا ..

فقط تنجح خطته الجديدة .

كان هوس الرعاع فى تقديس الحاكم مذهلاً حتى له ..

وأدرك لأول مرة فى حياته أن الاستعباد لا يكون بالقهر .. بل يوجد استعباد بالحب أيضا !!

هذا الحاكم الداهية ليس كتلة من اللحم والعظام كسابقيه .. إنه يصوغ تاريخا آخر وشعبا آخر يكاد المايسترو لا يعرفه حتى ملامح الناس قد تغيرت ..

لكن ثمة خطأ قاتلا يقع الداهية فيه .. خطأ فكرى .. ولشد ما يخشى المايسترو أن يتسع الوقت أمام خالد سليمان نور الدين الأيوبى لاكتشافه ...

إنه يسير على نفس النمط القديم للفكر ..

وهو يعلّم الشعب أن الصواب واحد .. أنه وحده ومن معه على صواب .. هم فقط الذين يملكون الحق .. أما الآخرون فخطئون مجرمون مارقون كفرة ....

إن المايسترو ما زال يحرك بعض أجهزة الاعلام والفكر لكى تكرس هذه الفكرة .. فعندما يكبر الأطفال فى هذا الشعب و يصبحون رجالا .. سوف يفكرون بنفس الطريقة .. إنهم وحدهم على حق وأن الآخرين على ضلال ... وبهذا سيضمن المايسترو دائما أن يتفرق شعب أوفريسيا إلى عشرات الشعوب ، كلّ منها تعتقد أنها هى وحدها على صواب .... والتاريخ لا يكرر طويلا نماذج ذلك القائد الداهية الذى يجمع الشعب خلفه على فكرة واحده وأمل واحد وشعور واحد ..

و يا لها من متعة طاغية أن تأتى أجيال بعد ذلك تعتبر هذا الزعيم الحقيقى .. مارقا وعلى ضلال .... وكما أدان يدان ...

هذه هى أهم نقطة يجب أن يحرص المايسترو عليها .. أن تبدأ كل فئة دائما من نقطة الصفر أو حتى تحته .. وأن يهدم كل جديد ما بناه السابقون ... ألا تكون لشعب أوفريسيا أبدا مجموعة من الاقتناعات المشتركة التى يؤمن بها الجميع و ينطلقون بعد ذلك منها .. لأن هذه الاقتناعات المشتركة هى التى تؤدى فى النهاية إلى الوحدة بين الرعاع ، والهوية القومية للوطن .... تلك هى المشكلة .. أن ينجح فى تفريق الرعاع دائما .. وفى سحق أى اتجاه لتكوين هوية قومية .

حيوانات بشرية .. مجرد عبيد مهما اختفت السلاسل من أقدامهم والقيود من أيديهم ..
لم يعد العقل ولا حتى الجنون بقادرين على تفسير مشاعر الجماهير نحو القائد

كما كانت نفس الحيرة تستبد بالمايسترو وهو يفكر هل يمكن أن يحمل كل هذا الحب الذى يدّعيه للأوفريسيين .. كل هذه الحماسه .. كل هذا الجهد وفى سبيل ماذا؟ .. ماذا يمكن لهؤلاء الرعاع أن يعطونا .. المجد ... هل يملكون هم مجدا كى يعطوه؟ .. التاريخ؟ فليسجل أسمه فى كتب التاريخ أحمقا آخر تشيد به أجيالٌ لم تره ..

لقد جرب المايسترو أن يحاول إغراءه وحتى تخويفه عن طريق معاونيه لكنه اكتشف أنه لا يهاب ولا يُعاب.

لكن بالرغم من ذلك... نجحت منظمة التحكم والسيطرة أن تشكّكه فى معظم من حوله .. أن تنتقى بالذات أخلص معاونيه فتبث الشكوك فى قلبه تجاههم .. وكان طبعه النارى وإحساسه الدائم بأنه يسابق الزمن يجعل قراراته تصدر بلا تردد...........

وكان النجاح الباهر للمنظمة عندما اختار القائد نائبا له أحد المقنعين.

كان المايسترو قد تخلى ــ ازاء خطورة ما حدث ــ عن فكرته القديمة بألا يتولى المقنعون السلطة فالرئيس فى أوفريسيا يصل دائما إلى منصبه عن طريق الصدفة .. ولم يعد المايسترو يقبل ذلك .. لابد أن تكون هناك خطة محكمة لكل شئ.

كان القائد متوجها الى قصر الأمة لالقاء إحدى خطبه.

بلغ جنون الجماهير الحمقاء أن رفعت سيارته على أكتافها ....وآلاف المنازل أخرجت قطع السجاد لتفرش بها الشوارع التى يمر بها الزعيم كى تنال شرف مرور سيارته عليها .. فأى جنون وأى تخلف ...

فى شرفة قصر الأمة وقف يلقى خطبته .. بدا كما لو كان يحتوى ملايين الجماهير التى تجمعت فى الميدان الكبير بعقله وقلبه وعينيه ... إنه يتكلم لغة أخرى .. كأنما اكتشف طريقة جديدة كى يتصل انفعاله بالجماهير فى تيار جارف هادر هائل .. كان يبدو أن الجماهير ليست وحدها هى التى تستمع لكلماته .. حتى الكون يصمت والرياح تخمد وشقشقة العصافير تخبو .. وعندما يتصاعد الهتاف كان يبدو أن الكون كله يردد هتاف الهاتفين ....

كان المايسترو يجلس متوترا يشاهد الخطاب فى التليفزيون متعجلا انتهاءه ..

إنتهى الخطاب فدوى اعصار من التصفيق والهتاف الذى لم يسمع المايسترو فى حياته له مثيلا .. كانت أول مرة تكون انفعالات الجماهير فيها مباشرة دونما تدخل ولا صناعة ..

دقيقة ....

دقيقتان ....

خمس دقائق ....

عشر دقائق ....

والجماهير مازالت تنفجر هتافا والقائد يحيي .. يرفع يده مؤكدا بأصابعه على حتمية انتصار الجماهير ..

دخل القائد أخيرا ليستريح بعد كل هذا العناء .... عندما دخل خالد سليمان نور الدين الأيوبي الى مكتبه فوجئ بشئ غريب .. ويبدو أنه ظن لوهله أن أمامه مرآه فقد رأى خالد سليمان نور الدين الأيوبي آخر يواجهه .. كان الفرق الوحيد أن الآخر يحمل مسدسا .. وقبل أن يدرك القائد ما يحدث كان الرصاص قد انطلق من مسدس كاتم للصوت .. فمات .

* *

كانت الجماهير مازالت تهدر فى الخارج فخرج اليها خالد سليمان نور الدين الأيوبي الجديد ملوّحا بذراعيه .. مبتسما ابتسامته التى كانت الجماهير تعشقها .

لولا دقة ملاحظة المايسترو لانخدع مع الجماهير ..

« نجاح كامل »

تلك كانت الرسالة التى وصلت الى المايسترو.

فى حوض سباحة صغير فى أحد القصور المهجورة كان مزيج الأحماض معدا .. وألقيت فيه جثة خالد سليمان نور الدين الأيوبي .... كان المايسترو نفسه موجودا .. فتلك هى أعظم لحظات حياته .

والقائد يذوب .. كان المايسترو يشعر أن قواه تخور .. كما لو كان قطبا من أقطاب المغناطيس قد فقد قوته ففقد القطب التالى بالآخر تأثيره ..

نشوة أليمة وألم ممتع ..

غصه فى الحلق .. وبهجه فى القلب ...

إنه يشعر أنه انتهى وفى نفس الوقت يشعر أنه يبدأ ..

يتوق الى ينفرد بها بنفسه ..

تتزاحم الذكريات فتتوقف الصور فى رأسه كشريط سينمائى أدركه العطب .

تخيلّ للحظة أنه هو الذى ذاب فى الحامض وأن خالد سليمان نور الدين الأيوبي هو الحى الآن .. فامتلأ ذعرا .. ثم امتلأ نشوة .. إلا أنه لايدرك سر ذلك الاحساس القديم الذى يحس به فى

أعماق قلبه .. كالنشوة الأولى والخوف الأول والحب الأول .. شئ من البكارة .. متعة فعل الشئ لأول مرة ..

إنه المايسترو حقا ....

و باغتته فجأة رغبة جارفة أن يرى وجهه الحقيقي دون قناع .. إشتاق إلى نفسه .. اتجه نحو المرآه بعد أن أخذ معه المحاليل الخاصة التى تزيل الأقنعة .. لم يعد هناك خطر يمنعه من ذلك ..

أصابه الذهول عندما ذاب القناع ليجد أن وجهه أصبح صورة طبق الأصل من القناع . ذُعِرَ قليلا .. إستعمل المحلول مرة أخرى .. لكن وجهه القديم لم يعد ..

خامرته لوعة طفولية وشوق مجنون أن يرى وجهه القديم .. كان يبكى وجهه القديم كما بكى فيروز العسال ....

نظر فى المرآه طويلا ودموع صامتة تنهال من عينه .

ثم أنطلق يقهقه ضاحكا ..

وكانت تترامى إلى سمعه إعادة تسجيل خطاب الرئيس القائد وهتافات الجماهير المحتشدة ..

« تمت »

تصويب الأخطاء

الصواب	الخطأ	السطر	الصفحة
الرائى	الرئى	٥	٧
اختلاف	اختلاف	١٤	٧
قوة	القوة	٥	٩
لن أطالب	أطالب	٤	١٢
كفيلٌ	كفيلا	١٨	١٤
يلامس الأرض	يلامس	١٦	١٦
وما دمت	دمت	١١	١٧
أصدقاؤه	أصدقاءه	١٣	٢٠
سجن أوفر يسيا	أوفر يسيا	٣	٢٥
كاذبان	كذبان	٨	٢٦
أنه يخشى أن ينزل	أن ينزل	٣	٣٤
شعب أوفر يسيا	أوفر يسيا	٤	٣٧
مؤكدا	مؤكد	٥	٣٧
يخضعوا	يخضعون	٤	٣٩
فى أى طرف	فى طرف	١٦	٤٥
حدثت منذ	تحدث منذ	١٦	٤٥
جهدا	وجهدا	١١	٤٧
واستعمالها	واستعملها	١١	٥٠
أقوى	أوقوى	١	٥١
إن لم	إلم	١٨	٥٤
لأكثر من مصافحة	من مصافحة	٢	٥٥
خلايا غفة	خلايا	١٦	٥٦
أقترح عليه أن يشكل مؤسسة رقابية جديدة تماماً تنتشر داخل البلاد وخارجها وأن يعتمد عليها دون سواها .	صفحة سقطت وملخصها :	بعد آخر سطر	٥٦

تصويب الأخطاء

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٦٠	١٣	التى	هى التى
٦٠	٢٢	الأساسية وأى	الأساسية . شىء كالهيكل العظمى للإنسان يمكن أن يتوافق مع أى ملامح وأى لون وأى تفاعل
٦٠	٢٧	نفاعل	تفاعل
٦٢	٨	والنهاية .	والنهاية . كانت الأفكار مرسومة فى ذهنه بكل
٦٤	٢٨	فئات	فتات
٦٦	٢٦	الطيارات	المليارات
٦٨	١١	قوة وحدته	قوة فى وحدته
٦٩	٢٢	الوظيفى .	الوظيفى . كان عجز أجهزة المايسترو فى معرفة تفاصيل التقرير تعبيراً
٧٣	٨	من فئة أخرى	من فئة إلى فئة أخرى
٧٤	٢٤	حجمه	حجمه
٧٤	٢٥	غبائه	غباء
٧٥	٢٠	مرتبة	مرئية
٧٥	٢٥	لكنهم	مجرد قميص يلبسونه أحياناً لكنهم
٧٥	٣٠	عن	أن ترفه عن
٧٧	٢٣	أوفريسى	مليون أوفريسى
٧٨	٢١	الحوار	يحضر الحوار
٨٤	٢٣	لغزو	لغو
٨٥	٢	احتقر	احتقره

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٨٥	٩	وجه	وجهه
٨٥	١٧	يذبها	يهذبها
٨٦	٤	الإمبرائيس	نائب الإمبرائيس
٨٩	٤	تمنعها	لم تمنعها
٩٠	١٢	فهم	فهمهم
٩١	١٣	شتتها	شتتها الإمبرائيس
٩٢	١٤	الاحتفاظ لـ بوضعه	الاحتفاظ هذه لن يتراجع عن أى فعل يحتفظ له بوضعه ..
٩٤	١٤	ضحكة	ضحك ضحكة
٩٤	٢٠	يلاسخ	يرسخ
٩٥	٦	كطبيعة دائماً إزاء	كطبيعته دائماً إزاء
٩٥	٨	استدراك	استدرك
٩٥	٩	مواصفتك	مواصفاتك
٩٥	٩	المايستروهذا	المايسترويتوقع هذا
٩٦	٩	ستفز	يستفز
٩٧	١٤	كبير	كبيرة
١٠٠	١٣	نؤسس	أم نؤسس
١٠٠	١٩	مدعوين	مدعوون
١٠٣	٢٠	على ألفور	عليها على الفور
١٠٤	٨	تحول التساؤل هل كذب الكاتب	تحول التساؤل من : هل ارتشى نائب الوزراء إلى التساؤل هل كذب الكاتب .
١٠٥	١	عن	عن أن
١٠٦	١	تهدم هذا	تهدهم هذا
١٠٨	٢٠	بتهجم	بتجهم
١٠٨	٢٣	بتهجم	بتجهم
١٠٨	٢٧	واحد	واحدا

الصواب	الخطأ	السطر	الصفحة
تجنيدها	تجنيبها	٦	١١٣
التضريف	التصرف	٢	١١٥
إزاءه	إزاء	٣	١١٥
ثمة	شمة	١٦	١١٧
المجموعات	المجموعة	٨	١١٩
سوف يخدع القارئ نفسه	سوف يخدع نفسه	الهامش	١٢٤
مثارة	ممتازة	١	١٢٨
إيحاء	ايسحاء	١٢	١٢٩
لكننا	كلننا	٢١	١٣٠
تفرض عليه فرضا	عليه فرضا	٧	١٣١
والفداء	والغناء	٢٣	١٣٥
الشيخ العربيد	العربيد	٢	١٣٦
«زائد فى الطبع»	إن العم للخارج	٢٠	١٤٣
الفكرة	الفكر	١١	١٤٤
الشقة	الثقة	١٥	١٤٧
الخلفية	الخافية	٢	١٤٨
ينصرف	يتصرف	٧	١٤٨
ذراعها	درعها	١٥	١٤٨
سخرى	سرى	١٣	١٥١
المرفوض	المفوض	٣٠	١٥٣
ضحالة	ضاحلة	٤	١٥٤
الشعبى	الشعب	٦	١٥٤
تأثير	لأصبح تأثير	٢٧	١٥٤
لأصبح تأثير	تأثير	٢٧	١٥٤
لا يدحض	لا ينحض	٢٨	١٥٦
ولن	ولكن	٢٨	١٥٨
أحدا	أحد	١٢	١٦١
يواجه	يواجهه	٢	١٦٢
اطمأن	اطمئن	١٠	١٦٢

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٦٢	١٧	إذدادت	ازدادت
١٦٢	٢١	نفسها	بنفسها
١٦٤	١٥	خانو	خانوه
١٦٧	٢	يحضر	يحفر
١٦٨	١٨	وكان	أو كان
١٧٣	١٣	يبنى هذا	يبنى عليها هذا
١٧٣	١٦	يادة	إن سيادة
١٧٤	١	بأن يفعو	بأن لا يفعوا
١٧٤	٥	نفسر	نفسر
١٧٤	٦	قتناعاتنا	اقتناعاتنا
١٧٤	١٢	والادارة	والارادة
١٧٤	١٤	مرو	مرة
١٧٤	١٥	آخر	أخرى
١٧٤	١٧	يضجون	ينحون
١٧٦	١	لم يضج	لم ينج
١٧٧	١	فلا تخشى	فلا تخش
١٧٨	٢٠	تجنى	تجبى
١٧٩	٦	أقصى	أقسى
١٧٩	٢٤	الأمر	الأمور
١٨٠	١	أخائهم	أخطائهم
١٨٠	٣	منهج ونظامه	منهج الحكم ونظامه
١٨٠	٧	يهتم	يتهم
١٨٠	٨	ثمن	تمن
١٨٠	١٠	طلا	طفلا
١٨٠	١٤	الخيع	الخير
١٨٠	١٤	معهقا	معوقا
١٨٠	١٦	لعشرات	لعشرات الهيئات
١٨٠	٢١	صوت	الصوت
١٨٠	٢١	استنتاجه	استنتاجاته
١٨٣	٩	أولا	أولاء

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٨٣	١٣	الخلال	المحلال
١٨٣	٢٤	يتعرضوا	يتعرفوا
١٨٤	١٦	رسرب	وسرب
١٨٨	١٥	حرج	خرج
١٩٠	١٩	الذالة	المذلة
١٩١	٥	المايسترو	الأمبرائيس
١٩٢	٧	لا يفرعن	لا يسفرالا عن
١٩٨	٦	محو	هو
١٩٨	٢٦	؟هو	؟أم هو
٢٠٥	٢٤	بها	فيها

كتب للمؤلف

□□ صــــدر

١ ــ إغتيال أمة	« قصة سادات »	سياسى	مكتبة مدبولى
٢ ــ الحاكم لصا	« أوفريسيا »	رواية	مكتبة مدبولى

□□ تحت الطبع

١ ــ الوزير	رواية
٢ ــ الليل والقهر والموت	مجموعة قصص قصيرة
٣ ــ محاكمة مصر : منظمة ثورة مصر.. وقضايا أخرى	سياسى
٤ ــ القصر العينى	رواية

طبع بالمطبعة الفنية ــ ت : ٣٩١١٨٦٢

هـذه الروايـة .....

من سجن استئناف اوفريسيا قام اللصوص والمجرمون بانقلاب على نظام الحكم . فحكموا !!

وفى احدى حكوماتهم كان وزير المالية سجينا سابقا بتهمة تزييف النقد ، وكان وزير الشرطة تاجرا للمخدرات ، ورئيس المخابرات جاسوسا ، ووزير الثقافة والأداب قوادا . أما الامبرائيس فقد كان واجهة للحكم ، واداة له ، مجرد عصا فى يد المايسترو الذى يحكم فعلا .

ولقد أكتشف المايسترو ـ الملك ـ أن الفارق بين ممارستهم وممارسات الحكومات السابقة هو مجرد الفرق بين الأحتراف والهواية .

كان الجميع لصوصا .

ولم تكن الوجوه تختلف .

فقط تختلف الأقنعة .

مكتبة مدبولى

٦ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ت : ٧٥٦٤٢١

طبع بالمطبعة الفنية ـ ت : ٣٩١١٨٦٢